C

تاريخ الفقه الامامي

عقيل

من النشوء الى القرن الثامن الهجري

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق - وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠١٦- ٢١٥٦

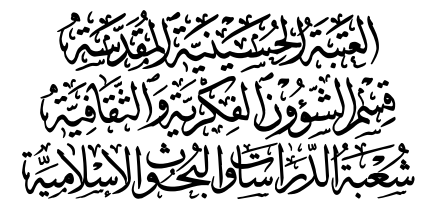
مصدر الفهرسة:	IQ-KaPLI ara
رقم تصنيف LC:	BP 169.9 .M3 2016
المؤلف الشخصي:	المدوح، مرتضى جواد، ١٩٦٧.
العنوان:	تاريخ الفقه الامامي: من البداية الى القرن الثامن الهجري.
بيان المسؤولية:	الشيخ مرتضى جواد المدوح؛ [تقديم السيد محمد علي الحلو].
بيانات الطبعة:	الطبعة الأولى
بيانات النشر:	كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م
الوصف المادي:	[٢٨٦] صفحة
سلسلة النشر:	قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية (١٩٧)
تبصرة ببليوغرافية:	يحتوي على هوامش - لائحة مصادر (الصفحات ٢٧٢ - ٢٨١)
مصطلح موضوعي:	الفقه الجعفري - تاريخ
مصطلح موضوعي:	الأئمة الاثنا عشر - الدور الفقهي
مصطلح موضوعي:	فقهاء الشيعة الامامية - تراجم.
مصطلح موضوعي:	الاجتهاد (اصول فقه)
مؤلف اضافي:	الحلو، محمدعلي، ١٩٥٧ -، مقدم.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

تاريخ الفقه الإمامي

من النشوء إلى القرن الثامن الهجري

الشيخ مرتضى جواد المدوّح



طُبِعَ برعاية

العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩

www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com

الإهداء

أهدي هذا الجهد البسيط إلى إمام الهدى و مصباح الدجى و علم التقى و ذوي النهى و الحجى، إلى كهف الورى ووارث علم الأنبياء، إلى المثل الأعلى و الحجة على أهل الدنيا و الآخرة، إلى معدن حكمة الله و حافظ سر الله، إلى حامل كتاب الله ووصي نبي الله، إلى سادس إئمة المسلمين ويعسوب الدين، إلى من أعلن دعوة الله و بين فرائض الله و أقام حدود الله، إلى من نشر شرائع الله و أحكامه و سننه، إلى محيي آثار النبوة و معالم الدين، إلى إمام الفقه ومنبع العلم والعلماء، إلى ولي الله وإمامي ومقتداي الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، راجياً من الله تعالى أن تنالني بذلك شفاعته يوم القيامة.

مقدمة اللجنة العلمية

تاريخ نشوء الفقه الإمامي، إحدى الملاحم التاريخية التي كتبها شيعة أهل البيت عليهم السلام بدمائهم الزكية يوم كانت مطاردات الأنظمة لهذا الفكر تحدياً حقيقياً يهدد الكيان الإسلامي فكراً أو وعقيدةً ومبدأً، بما لهذا الفقه من علاقة أصيلة في بناء الذات الإسلامية التكاملية بكل امتداداتها ودواعيها الفاضلة، وإذا كان للفقه الإمامي حضوره الواسع في هذه الحركة التاريخية فإنّ لهذا الفقه حضوره كذلك في ذاكرة الأمة وكونها مدينة له في حفظ التراث النبوي من الضياع والتفريط ومع أهمية هذا الوضع فقد بقي تاريخ نشوء الفقه الإمامي مشتتاً إلى حد ما محتاجاً إلى وضع انسيابيته التاريخية بشكله المتميز لتقرأه الأمة على أنه استجابة لرشد فقهي يتحدى كل صراعات الزمن، لذا فقد صار التصدي لمثل هذه الدراسات ضرورة تاريخية - تراثية تستجلي معها الماضي ويستبين فيها الحاضر بكل عنفوانه وجذوته، ولا نريد أن نبالغ في القول إذا قرأنا تاريخ نشوء هذا الفقه الأصيل بأنه جهاد أمة ونهضة فكر وبناء ذات طوردت بكل تفاصيلها وشخوصها حاضرة في ذاكرة الأمة والدراسة بين يدي القارئ الكريم إحدى حلقات هذا الجهد الذي استجلى معه حقائق تاريخية بانسيابية يستوضحها الباحث من مصادر موجزة ومع هذا فقد قدّم - مشكوراً - جهده المبارك ودراسته القيمة لتشارك في رفد المعرفة الإسلامية بهذا الهائل من الكم، والرائع من الكيف... سدد الله خطى الجميع ووفقهم لمرضاته..

عن اللجنة العلمية / السيد محمد علي الحلو

المقدمة

يراد بـ(تاريخ الفقه الإمامي من البداية إلى القرن الثامن الهجري) البحث حول مراحل الفقه الإمامي من البداية إلى القرن الثامن الهجري ودراسة كيفية نشوء الفقه الإمامي وتأريخ تأسيسه والمراحل التي مرّ بها منذ تكوّنه إلى القرن الثامن الهجري، والسؤال الذي يدور حوله الكتاب هو تحديد المراحل التي مرّ بها فقه الإمامية وما مرّ به من تطورات وتكامُل جعلته يصل إلى هذا الحد من العمق والدقة والرشد، والبحث في خصائص كل مرحلة مر بها هذا الفقه ومن هم أبرز علماء تلك المرحلة وما هي آثارهم العلمية والفقهية في مجال تطور الفقه الإمامي، ومن أجل توخي الدقة في دارسة تطور الفقه الإمامي ركزنا النطاق والبحث في مقطع تاريخي محدد، يمتد إلى القرن الثامن الهجري، وهي الفترة التي مر بها الفقه الإمامي بمخاض عسير اجتاز فيها مراحل التأسيس والانطلاق والرشد تشخّصت فيها هويته ومعالم قوته.

وقد مرت حركة الفقه الإمامي والاجتهاد منذ أن انطلقت في عصر النص بمراحل من النمو الطبيعي والتدريجي حتى آلت إلى ما عليه اليوم من ازدهار علمي ونضج ملحوظ في المنهجة والمضمون. وقد ساهمت في تأسيس وبناء كل مرحلة

من مراحل سير الفقه طبقة من الفقهاء وكان لمرحلة صدور البيان الشرعي دور تأسيسي من حيث تكوين المادة الأولى لصناعة الفقه؛ فقد جهد السابقون من أصحاب الأئمة عليهم السلام أنفسهم في ضبط وتكميل هذه المادة ونقلها إلى الجيل اللاحق بأمانة ودقة. ولم يكن يتلخص دورهم في الضبط والتدوين والتكميل فحسب، بل امتد للنظر في مفاد الأحاديث ومضامينها وترجيح بعضها على بعض، وإبداء الفتوى والرأي على ضوئها، فكان دور الفقاهة ملحوظاً في مجمل مجهودهم العلمي والفقهي. وقد كان الأئمة الطاهرون عليهم السلام يشيدون بدور البعض من رموز مدرستهم في تدعيم حركة الفقه وتقوية ركائزه، وفي حفظ الأحكام ونشرها، يأمرون بعضهم بالتصدي للفتيا في بعض المراكز العلمية، فيما كان لبعض هذه الرموز والشخصيات ثقل علمي معترف به في الأوساط العلمية عند المسلمين كافة كما نلاحظ ذلك في أمثال محمد بن مسلم، وزرارة بن أعين، ويونس بن عبد الرحمن، وأبان بن تغلب، وغيرهم من كبار فقهاء أصحاب الأئمة عليهم السلام، وهذه الكوكبة وإن عرفت بالحديث أيضاً باعتبار أنه كان يمثل اللغة الرسمية لجميع العلوم والمجالات، والفقه والكلام والأخلاق وغير ذلك، إلاّ أنّ هذا لا يلغي أن يكون لكل علم ومجال آنذاك منهجه وقواعده التي تتناسب ودرجة المقياس العلمي الذي كانت تعيشه تلك المرحلة، فالمفسّر مثلاً له طريقته الخاصة وذوقه الخاص اللذان يميزانه عن الفقيه مثلاً.

ولعلنا يمكن أن نتلمس الدور الفقهي لأصحاب الأئمة عليهم السلام بشكل عام كفقهاء لا محدثين من خلال أمرين:

الأول: كل ما يدل على نشاطهم الفقهي كالآثار الفقهية التي تركوها، أو تخريج جماعة على أيديهم في الفقه، أو آرائهم التي يتداولها الفقهاء ويعتنون بها.

الثاني: المؤشرات والدلائل العامة الدالة على فقاهتهم، مثل شهادات الأئمة عليهم السلام بحقهم، أو شهادات معاصريهم من الأصحاب أو الرجاليين، أو غير ذلك من الوقائع والشواهد الدالة على الأمر المذكور.

وهذا هو المنهج الذي سوف نتبعه إن شاء الله في عصر النص في الدراسة عن بعض الرموز والشخصيات من طبقة السابقين ومن أصحاب الأئمة عليهم السلام الذين اتسمت مرحلتهم بخصائص الفقه المأثور، وعرفوا بالفقهاء الرواة أو المحدثين.

علماً أنّه قد يتفاوت تطبيق الأمرين المشار إليهما قوة وضعفاً من شخصية إلى أخرى فقد تكون شخصية كبيرة يقطع بفقاهتها من خلال المؤشرات والدلالات العامة ولكن يندر أو يكاد يعدم في أيدينا تراثها الفقهي بشكل ملموس، فلا نكاد نعلم منه إلاّ اسمه، بل قد تفتقد مصادر ترجمته أيضاً، وعلى كل حال سواء كان من هذا الصنف أو ذاك سوف نحاول بهذه الدراسة تسليط الضوء على ما نستطيع ذكره والعلم به من مرحلة التشريع وعصر الصدور من أصحاب الأئمة عليهم السلام والذي كان لإرشادات الأئمة عليهم السلام وتوجيهاتهم الفضل الكبير في صناعة هذا أو ذاك الذي أسهم بقدر ما لتطوير الفقه وإيصاله إلى ما هو عيه الآن.

ولكن يبقى أن نشير ونؤكد أن موضوع البحث الأصلي ليس حول أصحاب الأئمة عليهم السلام وإنما حول تاريخ الفقه الإمامي ومراحل تطوره وارتقائه من البداية إلى القرن الثامن الهجري والبحث حول خصائص كل مرحلة واختلافها عن التي تليها وحول فقهاء كل مرحلة وآثارهم العلمية والفقهية والتي أسهمت

سلباً أو إيجاباً في تطوير الفقه الإمامي ودور كل فقيه ومن كان له الدور البارز.

والبحث حول أدوار أصحاب الأئمة عليهم السلام هو كمقدمة ومدخل للبحث وللارتباط الذي بيناه قبل قليل ولدور أصحاب الأئمة عليهم السلام كفقهاء لا رواة فقط قد أسهموا بقدر ما في ارتقاء الفقه وتطوره كما سيتضح خلال البحث إن شاء الله تعالى.

امتيازات الفقه الإمامي

يمتاز الفقه التابع لمدرسة أهل البيت بامتيازات كثيرة عن سائر الفقه التابع للمدارس الأخرى ولذا ينبغي أن نتعرف على هذه الامتيازات قبل البدء في دراسة تاريخ هذا الفقه حتى نعرف مدى أهمية هذا الفقه ومدى أهمية دراسة تاريخه ومراحل تطوره.

وهذه الامتيازات كالتالي:

١- اعتماد الكتاب والسنة كمصدرين أساسين لاستخراج الحكم الشرعي في كل الأبواب الفقهية، لأنهما كاملان ووافيان بحاجات الإنسان الفقهية في كل ألوان سلوكه الخاص والعام إلى الأبد.

٢- إنّ السنة الشريفة تمثل ما يصدر عن المعصوم المتمثل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الاثني عشر عليهم السلام أما التي تصدر من غيرهم فهي لا تمثل السنة وليس فيها حجية شرعية ومخالفتها لا يستلزم أي محذور شرعي[١].

٣- لا اعتبار بقول الصحابي أو التابعي ولا برأيهما ما لم ينقلا حديثاً عن

---

(١) راجع: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية: عدنان فرحان. ص٦٢.

المعصوم ويكونا ثقة.

٤- إن السنة الشريفة لابد من إثباتها شرعاً إمّا بالقطع واليقين أو بحجة شرعية كخبر الثقة أو الخبر الموثوق به - ولا بد من إثبات هذه الحجّية الشرعية بالقطع واليقين - ولا يشترط في ذلك أن يكون الراوي إمامياً، ومن هنا أجمعت الطائفة على العمل بروايات جملة من العامة الواقعين في أسانيد روايات المعصومين عليهم السلام لوثاقتهم وصدقهم من قبيل طلحة بن زيد النهدي الشامي، وحفص بن غياث النخعي، وإسماعيل بن أبي زياد السكوني الشعيري وغياث بن كلوب البجلي وغيرهم.

٥ - القرآن الكريم هو المصدر الأوّل للتشريع، وظهوراته حجة إلاّ أنّه لابد - ككل ظهور معتبر - من التأكد:

أولاً: من نفس الظهور والدلالة، وذلك عن طريق معرفة أساليب الدلالة في الخطاب القرآني.

ثانياً: لابد من معرفة العام والخاص والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه من الآيات عن طريق السنة المتعرّضة لذلك، فلا يمكن الاستناد إلى الظهور القرآني إلا بعد استكمال هاتين المرحلتين بحثاً وفحصاً وتحقيقاً[١]. وهذه الميزة الخامسة ربما لا يقول بها بعض من الإمامية.

٦ - لا قيمة للرأي والاجتهادات القائمة على أساس الأقيسة والاستحسانات أو المصالح المرسلة، كما لا حجية لقول الصحابي أو التابعي؛ فإنّ شيئاً من ذلك لا يمكن أن يكون من مصادر الاجتهاد والاستنباط الفقهي، وإن

(١) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي: مقدمة الموسوعة: ج١، ٣٠.

الاجتهاد كما تقدم ليس إلاّ استفراغ الوسع والجهد لاستنباط الحكم الشرعي من الكتاب والسنة[١].

٧ - انفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه وعلى طول الخط وعلى مدى قرون منذ التأسيس وحتى يومنا هذا[٢].

٨ - عدم جواز تقليد مجتهد لمجتهد آخر من أي عصر أو أي زمان، كما أنه على كل مكلف إمّا أن يجتهد أو يقلد مجتهداً حياً لا ميتاً أو يحتاط، ولو مات مقلَّده وأراد أن يبقى على تقليده أو يقلد مجتهداً ميتاً ابتداءً فعليه أن يرجع إلى مجتهد حيّ أولاً، فإذا كان يرى جواز ذلك التقليد رجع إلى الميت بإذن الحي، وهذا يعني أن التقليد لابدّ وأن يبدأ بالمجتهد الحي دائماً على خلاف المدارس الأخرى[٣].

٩ - مدركات العقل - سواء على صعيد العقل النظري أو العقل العملي - قد يستعان بها في مجال الاستنباط إذا كانت قطعية ويقينية إلا أن هذه المدركات لا تكون في مجال تشخيص ملاكات الأحكام وإثبات الحكم الشرعي بها، بل إما ترتبط بتشخيص العلاقة فيما بين الأحكام كعلاقة التضاد والتقابل أو الاستلزام والتقارن وما يتولد منها نتيجة لذلك من دلالات تضمنيّة أو التزامية في خطاب شرعي أو تعارض وتزاحم بين خطابين شرعيين، فيكون المُدرَك العقلي في هذا القسم راجعاً إلى تشخيص صغرى الدلالة في الخطاب الشرعي. وما ترتبط بتحديد الوظيفة والموقف العملي البديهي عند الشك في حكم شرعي لا تحديد نفس

(١) انظر: دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي: باقر الايرواني، ج١، ٢٢.

(٢) راجع: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية. عدنان فرحان. ص٦٢، ص٢٢٥.

(٣) موسوعة الفقه الإسلامي: طبقاً لمذهب أهل البيت: ج١، ٣١.

الحكم الشرعي، وقد اصطلح عليه علماؤنا في أصول الفقه بالأصول العملية الفعلية من احتياط أو براءة أو تخيير[١].

١٠ - نؤكد أنّ دور العقل في الموارد التي يحصل له القطع واليقين كما في باب الملازمات والأحكام البديهية هو دور المُدرِك والمستكشف دون المؤسس والحاكم، إذ ليس من حقه ذلك في نظر الفقه الإمامي[٢].

١١ - الإجماع ليس مصدراً مستقلاً، وعدّه كذلك مبني على المسامحة لأنه بما هو إجماع ومن دون كاشفيّته عن موافقة المعصوم عليه السلام ليست له قيمة في مدرسة الفقه الإمامي، ولا نسلم بالمقالة القائلة: **«لا تجتمع أمتي على ضلال»**. فالقيمة على هذا الأساس للسنة، أي لرأي المعصوم المنكشف بالإجماع، ودور الإجماع ليس إلاّ دور الكاشف عن السنّة[٣].

١٢ - السيرة ليست مصدراً مستقلاً من مصادر التشريع سواء كانت سيرة عقلائية أو سيرة متشرّعيّة، ذلك لأن حجيتها تنبع من كاشفيتها عن رأي المعصوم عليه السلام الذي هو السنة وإلا فهي - أي السيرة - لا قيمة لها. أما كيف تكشف السيرة عن موافقة المعصوم عليه السلام؟ ذلك لأنّها إذا كانت عقلائية ومعاصرة لزمن المعصوم عليهم السلام فعدم الرد عنها يدل على إمضائها، وإذا كانت متشرعية ومتصلة بزمن المعصوم عليه السلام فهي تكشف مباشرة عن

(١) انظر: دروس في علم الأصول ـ محمد باقر الصدر. الحلقة الثانية ـ مجمع الفكر الإسلامي، بحث الأصول العملية.

(٢) انظر: دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي: باقر الايرواني: ج١. في بحث المقدمة. وانظر: حلقات السيد الصدر، وكفاية الأصول للأخوند بحث الملازمات والأحكام البديهية.

(٣) انظر: بحث الإجماع في كفاية الأصول للأخوند.

موافقته وإلا لم تكن سيرة متشرعة[(١)].

١٣ - الاستصحاب وبقية الأصول العملية هي قواعد عامة مستفادة من السنة وليست شيئاً مستقلاً في مقابلها.

١٤ - الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي في الفقه الإمامي له مرحلتان طوليتان؛ لأن البيان الشرعي ينقسم إلى نوعين رئيسين:

النوع الأول: البيان الذي يثبت به الحكم الشرعي الواقعي ويسمّى بالدليل الاجتهادي، وهذا ما يكون على مستويين: المستوى الأول: ما يثبته الدليل إثباتاً قطعياً، من قبيل ما يثبت من الأحكام الشرعية بصريح آية من الكتاب الكريم أو سنة قطعية سنداً وصريحة دلالة. المستوى الثاني: ما يثبته إثباتاً شرعياً تعبدياً من قبيل ما يثبت من الأحكام بظهور أو بحديث معتبر شرعاً رغم أنه لا قطع بصدوره ومطابقته للواقع إلا أنّ حجيته قطعية.

النوع الثاني: البيان الذي لا يثبت الحكم الشرعي الواقعي وإنّما يحدد الوظيفة العملية والموقف الذي يجب اتخاذه من قبل المكلف في حالات الشك والتردد واشتباه الحكم الشرعي وعدم الدليل عليه، ويسمى هذا النوع من الأدلّة بالدليل الفقاهتي أو الأصل العملي.

وهذه الأصول العملية بدورها لابد وأن تثبت بالأدلّة الشرعية من النوع الأول أو بحكم العقل، كما أنه لا تصل النوبة إلى هذا النوع من الأدلّة إلا بعد فقد النوع الأوّل، فليس النوعان من الأدلّة في عرض واحد بل طوليان.

---

(١) انظر دروس في علم الأصول: السيد الصدر، الحلقة الثانية ـ بحث حول السيرة، مجمع الفكر الإسلامي ص١٣٧ ـ ١٤٠ و١٥٣ ـ ١٥٩.

وهذا التقسيم وأحكام كل قسم وآثاره من أروع انجازات فقهائنا وتخريجاتهم في أصول الفقه التي استنبطوها من فقه أهل البيت عليهم السلام.

١٥ - حجية فتوى الفقيه الجامع لشرائط التقليد بالنسبة إلى نفسه وإلى مقلديه، ولكن هذا لا يعني أن فتواه ورأيه يمثل حكم الله الواقعي، بل هو من نوع الحكم الظاهري - حسب المصطلح الأصولي للفقه الإمامي - الذي قد يكون غير مطابق مع الحكم الشرعي الواقعي، فلا تصويب لآراء الفقهاء والمجتهدين في فقه الإمامية. وحجيتها في حقهم وحق مقلّديهم لا تعني أكثر من المعذريّة لهم في مقام العمل، وهذا يختلف عن التصويب في حقيقته وفي آثاره كما نقحه علماؤنا في أصول الفقه.

وهذا كله من بركات انفتاح باب الاجتهاد الذي أدى إلى تطور هذا الفقه - الذي سوف ندرس مراحله بشيء من التفصيل - وسعة معطياته ودقة مناهجه وأدى إلى تنامي الخبرات العملية والفقهية للفقهاء جيلاً بعد جيل وتفوقهم على من سبقهم - حيث يبدأ اللاحق من حيث انتهى السابق - تدريجياً. وأدى إلى حيوية الفقه وقدرته على استخراج واستنباط حكم كل مسألة مستجدة أو نظرية حديثة معتمداً على نفس المنهج لأصول الفقه وأصول الاستنباط والاجتهاد المقررة في هذا الفقه، وهذه امتيازات توجب تفوق الفقه الإمامي وتطوره يوماً بعد يوم كما أنها توجب تعين الرجوع في التقليد إلى الفقهاء الأحياء من هذه المدرسة، لأن الواجب في التقليد الرجوع إلى الأعلم والأفضل دائماً.



الفصل الأول

مرحلة صدور البيان الشرعي

المبحث الأول: عصر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

المبحث الثاني: عصر الإمام علي عليه السلام

المبحث الثالث: عصر الأئمة الحسن والحسين والسجاد عليهم السلام

المبحث الرابع: عصر الإمامين الباقر والصادق عليهم السلام

المبحث الخامس: عصر الإمامين الكاظم والرضا عليه السلام

المبحث السادس: عصر الأئمة الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام

المبحث السابع: عصر الغيبة الصغرى (العصر البرزخي)

المبحث الثامن: نتائج المرحلة وخصائصها

المبحث الأول: عصر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

ويبدأ هذا العصر من حين نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويستمر إلى حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويعتبر هذا العصر هو عصر التشريع الإسلامي ونزول القرآن الكريم وتثبيت أصل الاعتقاد والتوحيد والنبوة وجميع العقائد القرآنية وكذلك أحكام الدين وبقيت التشريعات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تباعاً وبالتدريج واستمرت ثلاثاً وعشرين سنة قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها بتثبيت أسس التشريع الإسلامي في المجتمع الإسلامي وقام بوظيفته التبليغية، وبمهمة الرسالة ودور النبوة على أكمل وجه وأحسن دور وأعظم رسول، حيث بلّغ القرآن الكريم تبليغاً كاملاً وتاماً حتى شهد بذلك الوحي وبينه القرآن نفسه حيث قال الله تبارك وتعالى في سورة المائدة: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا }[1]. وذلك واضح من خلال ما قام به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغه القرآن والأمر بكتابته وتدوينه وجمعه وضبطه والأمر بحفظه في صدور الرجال والحث الكثير على تداوله وقراءته والتدبر فيه والعمل بمضمونه

(١) المائدة: ٣.

وتعاليمه وتبيين فضل ذلك وثوابه الجزيل.

إذن المسلمون جميعاً متفقون على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بلّغ القرآن كاملاً في حياته وأنهم - أي المسلمون - متفقون أيضاً على أن ما بين الدفتين والمتداول بين جميع المسلمين هو القرآن كاملاً منذ عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا وقد جاءنا بالتواتر ولم يزد فيه ولم ينقص منه شيء[١].

والأمر الآخر الذي قام به النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو تبليغه السنة الشريفة وتعليمه للمسلمين أحكام الدين من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وقام النبي بتفسير القرآن وتوضيح مفاده ومراده على أحسن وجه وأكمله وهذه السنة عند أهل البيت عليهم السلام بلاكم الوافي الكافي والمتكامل مع القرآن في الوفاء بالتزويد بما يحتاجه المسلم في التشريع من قواعد الأحكام وموادها، وبالقرآن والسنة تكتمل مجموعة نصوص الأحكام التشريعية، حيث قام النبي في عصره بتدوين القرآن وجمعه وكذلك قام بتدوين السنة النبوية وكتابتها والأمر بحفظها والعمل على طبقها، والفضل يرجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام حيث دوّن السنة النبوية الشريفة وكان قد دوّن القرآن الكريم وذلك على عهد النبي تدويناً كاملاً.

وقد أشارت إلى ذلك العديد من الروايات وكتب التأريخ، كما ينقل الشيخ الكليني رضي الله عنه في الكافي بسند معتبر عن علي عليه السلام نفسه حيث يقول في حديث طويل:

---

(١) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي ـ العلامة الدكتور الفضلي، ص٢٨.

(وقد كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل يوم دخلة وكل ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيثما دار، وقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد بنيّ، وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكتُّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامّها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً. فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه. أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل)[1].

وقد عبر عن هذه المدونات التي يشير إليها الإمام علي عليه السلام في الأحاديث الصادرة بعد ذلك عن الأئمة عليهم السلام بـ(كتاب علي)، وهو أوّل كتاب جمع فيه العلم على عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد انتقل إلى الأئمة من ولده من بعده واحداً واحداً كما تنص على ذلك روايات

(١) أصول الكافي ـ للكليني ـ ج١ ـ ٦٤ ح١.

مستفيضة[١]، ففي رواية ينقلها النجاشي في فهرسته بسنده إلى عذافر الصيرفي قال: كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي جعفر عليه السلام فجعل يسأله - وكان أبو جعفر عليه السلام له مكرماً - فاختلفا في شيء، فقال أبو جعفر:

(يا بني قم فأخرج كتاب علي عليه السلام، فأخرج كتاباً مدروجاً عظيماً ففتحه وجعل ينظر حتى أخرج المسألة، فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا خطّ علي عليه السلام وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبل على الحكم وقال: يا أبا محمّد اذهب أنت وسلمة وأبو المقداد حيث شئتم يميناً وشمالاً فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل عليه السلام)[٢].

وهناك روايات كثيرة عنهم (صلوات الله عليهم) ورد فيها ذكر كتاب علي وكتاب الجامعة، وورد ذكر الصحيفة ويبدو أنها كتاب واحد اختلف التعبير عنه كما يرى كثير من الباحثين[٣] وقول آخر يقول إنها تختلف فهناك كتاب علي وهناك الجامعة والصحيفة[٤].

وعلى العموم فهو كتاب كبير أو صحيفة طويلة طولها سبعون ذراعاً

(١) انظر: أدوار الفقه الإمامي: الشيخ السبحاني ص٢٣.

(٢) الرجال ـ للنجاشي ـ الترجمة ٩٦٧. وانظر: الموسوعة الفقهية (المقدمة)، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي (عهد الرسول).

(٣) انظر: مقدمة موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت.

(٤) انظر: أدوار الفقه الإمامي: للشيخ جعفر السبحاني. ص٢٢. وانظر: كتاب تاريخ التشريع الإسلامي. للعلامة عبد الهادي الفضلي، عهد الرسول.

وانظر: كتاب حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ـ عدنان فرحان ـ بحث عصر النبوة ـ وكذلك انظر: إلى شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي: ج١، ص٩.

وحجمها كفخذ البعير، فيه كل حلال وحرام وكل ما يحتاج إليه الناس حتى أرش الخدش، وأنها بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ علي عليه السلام[١].

ورد في مقدمة موسوعة الفقه الإسلامي:

«وقد حفظت قطعة من هذه الأمالي بعينها اليوم - وذلك بفضل الله تعالى - أوردها الشيخ أبو جعفر الصدوق في المجلس السادس والستين من كتاب أماليه وهي مشتملة على كثير من الآداب والسنن والأحكام، أحكام الحلال والحرام يقرب من ثلاثمئة بيت (= سطر) رواها بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام بروايته عن آبائه الكرام. وقد قال الصادق عليه السلام في آخره: أنه جمعه من الكتاب الذي هو إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ علي بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

إذن إن عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان عصر تأسيس التشريع الإسلامي واكتمال الشريعة وكمالها، وأنه فيه قد تمّ تبليغ القرآن وتدوينه وجمعه وصدور السنة النبوية الشريفة وتدوينها وجمعها، وفي هذا العصر الشريف بدأ التأليف الإسلامي في مجال التشريع وكان عمدة ذلك وأساسه من قِبل الإمام علي عليه السلام وقد كتب كتاب علي والجامعة أو الصحيفة أو كلّها كتاب واحد حسب الاختلاف في الروايات.

وروايات أخرى وردت تؤيد ما ذكرناه وتدلل على ما جرى في عصر الرسول

(١) بصائر الدرجات الكبرى: الحسن بن فروخ الصفار، باب ١٢، ص ١٦.

(٢) موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت، المقدمة، وانظر: أمالي الشيخ الصدوق: ٥١٨.

صلى الله عليه وآله وسلم فمنها مثلاً ما روى عبد الله بن عمر قال: «قلنا يا رسول الله إنّا نسمع منك أشياء لا نحفظها، أفنكتبها؟ قال: بلى، فاكتبوها»(١).

وعنه أيضاً أنه قال: «قلت يا رسول الله، أقيّد العلم؟ قال: نعم»(٢).

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قام خطيباً في الناس وقال: «نضّر الله أمرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وبلّغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٣).

وأيضاً أمر بعض الصحابة بالكتابة وعلى رأسهم علي عليه السلام كما قدمنا حيث روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: «يا علي اكتب ما أملي عليك. فقال علي عليه السلام: قلت: يا رسول الله أتخاف عليّ النسيان؟! قال: لست أخاف عليك النسيان، وقد دعوت الله عزّوجلّ أن يحفّظك ولا ينسيك، ولكن أكتب لشركائك. قال: قلت: ومن شركائي يا نبي الله؟ قال: الأئمة من ولدك عليهم السلام»(٤).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إضافة إلى ما ذكر أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بإملاء رسائله إلى الملوك وعظماء زمانه، وأثبت الاتفاقيات والمعاهدات بخاتمه الشريف، وكانت مبادرته صلى الله عليه وآله وسلم هذه تدل على جواز الكتابة وإجازة منه صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين.

وقد أكد ذلك عملياً في غزوة بدر الكبرى عندما أسر المسلمون عدداً من

(١) مسند أحمد بن حنبل: الشيباني، ٢ ـ ٢١٥.

(٢) بحار الأنوار: المجلسي، ج٢، ١٤٧.

(٣) مجمع الزوائد: ج١، ١٣٩.

(٤) اكمال الدين: ص٢٠٦ ـ وكذلك انظر: إلى مقدمة الوسائل: الحر العاملي.

المشركين كان فيهم من يعرف الكتابة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكاك أسرهم لقاء تعليم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[١]، وبذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل من حث على الكتابة في الإسلام وقد كتبت في عصره صلى الله عليه وآله وسلم عدّة صحائف، نذكرها كالتالي:

١ - كتاب علي عليه السلام: وقد مر الحديث عنه وهو مما أملاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على علي عليه السلام وكتبه بخطه الشريف.

وقد ذكر باسم (كتاب علي) في عدّة من كتب الحديث وكتب الفقه، وعنونه الشيخ الطهراني بـ (أمالي سيدنا ونبينا أبي القاسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[٢].

وهو - كما جاء في وصفه - من نوع الكتب المدرجة التي تطوى وتلف، وإذا أريد قراءتها تفتح ثم تقرأ. وقد ذكر رجوع الأئمة من أبناء علي عليه السلام إليه والنقل عنه أكثر من كتاب وقد ذكرنا بعضاً من ذلك.

ونذكر لك رواية أخرى لتعضيد ما سبق وهي ما رواه الشيخ الطوسي في التهذيب - باب ميراث الأعمام والعمات والأخوال والخالات - حيث قال: عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه

---

(١) انظر: كتاب تاريخ الإسلام: لجنة تأليف الكتب الدراسية، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس العلمية. ط ثانية. ط پرسش، ج١، نتائج معركة بدر.

وانظر: إلى كتاب مصادر السنة الشريفة ـ لجنة العلوم النقلية ـ منظمة الحوزات العلمية تحت عنوان ـ كيف نشأ علم الحديث. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي: الفضلي. ص٣٠.

(٢) الذريعة: ٢ /٣٠.

السلام عن شيء من الفرائض، فقال لي: ألا أخرج لك كتاب علي عليه السلام؟ فقلت: كتاب علي عليه السلام لم يدرس؟! فقال: يا أبا محمد، إن كتاب علي عليه السلام لا يندرس. فأخرجه، فإذا كتاب جليل، فإذا فيه: رجل مات وترك عمه وخاله؟... قال: للعم الثلثان، وللخال الثلث»[١].

ورواية أخرى ينقلها السيد الأمين في (أعيان الشيعة) عن كتاب (بصائر الدرجات) تبين لنا محتوى كتاب علي عليه السلام: «عن إبراهيم بن هشام عن جعفر بن محمد عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: في كتاب علي كل شيء يحتاج إليه حتى أرش الخدش»[٢].

والذي يبدو بعد التتبع للمصادر وتشابه الروايات والأوصاف أن كتاب علي هو الذي يسمى بالصحيفة والجامعة وهو كتاب واحد، وقد أورد محمد بن الحسن الصفار في كتابه (بصائر الدرجات) أربعة وعشرين حديثاً حول الجامعة والصحيفة وكتاب علي عليه السلام [٣] فقد روى عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير، قال: أخرج إلينا أبو جعفر عليه السلام صحيفة فيها الحلال والحرام والفرائض. قلت: ما هذه؟ قال: هذه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخط علي بيده إلى أن قال: هي الجامعة أو من الجامعة[٤].

وينقل أن في كتاب علي أو صحيفة علي عليه السلام العقل ومقدرات

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي: ٣١، نقلاً عن تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي.

(٢) بصائر الدرجات الكبرى: أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، منشورات الأعلمي، طهران، باب١٢، ص١٦٢.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

الديات وأحكام فكاك الأسير[١]. وكما بينا ما يسمى بالصحيفة أو كتاب علي أو الجامعة هو شيء واحد وهذا كما استظهره السيد الأمين، حيث قال في كتابه أعيان الشيعة: «من مؤلفات أمير المؤمنين عليه السلام: الجامعة، وهي كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطّ علي عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق، - وكان غالب الكتابة عليه في ذلك العصر لقلة الورق في عرض الجلد - جمعتُ الجلود بعضها إلى بعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعاً بذراع اليد - الذي هو من المرفق إلى رؤوس الأصابع»[٢]. وعدها من مؤلفات علي عليه السلام باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإملائه.

وهي أول كتاب جمع فيه العلم على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وتكرر ذكرها في أخبار الأئمة عليهم السلام كما ذكر فقط في بصائر الدرجات حولها أربعة وعشرون حديثاً[٣].

وذكرت في أخبار المواريث وكانت عند الإمام الباقر وابنه الصادق عليهما السلام رآها عندهم الثقات من أصحابهم، وتوارثوها الأئمة من بعدهما. وكما قلنا سميت بعدة أسماء منها كتاب علي والكتاب الذي أملاه رسول الله، وكتاب علي الذي هو سبعون ذراعاً، والصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً، والصحيفة التي فيها ما يحتاج

---

(١) انظر: كتاب مصادر السنة الشريفة ـ لجنة العلوم النقلية ـ منظمة الحوزات والمدارس الدينية ـ ط ـ معراج، سنة ١٤٢٥هـ. ص١٦.

(٢) أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين، تحقيق. حسن الأمين، بيروت، دار التعارف ١٤٠٦ ج١، ص٩٣.

(٣) بصائر الدرجات، ص١٦٢ ـ ١٦٧. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، للفضلي، ص٣٤.

إليه حتى أرش الخدش، والصحيفة العتيقة من صحف علي عليه السلام وشبهه.

٢ - صحيفة أبي رافع المدني الصحابي مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وهو من شيعة علي الذي اعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ما بشر بإسلام العباس، يقول النجاشي: ولأبي رافع كتاب السنن والأحكام والقضايا[١]. ويظهر من النجاشي أن الكتاب كان مشتملاً على أبواب الصلاة والصيام والحج والزكاة والقضايا[٢].

٣ - صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري: ذكرها ابن سعد في طبقاته والذهبي في تذكره الحفّاظ[٣].

بحث حول اجتهاد الصحابة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

من الوقائع التي ينبغي أن نبحثها في دراستنا لتأريخ الفقه الإمامي هي مسألة اجتهاد الصحابة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لما تسلّطه من أضواء على موضوع اجتهاد الرأي سلباً أو إيجاباً، وكذلك على موضوع اجتهاد مقابل النص. اختلف علماء الجمهور مع علماء الإمامية في ذلك، حيث ذهبت الإمامية إلى جواز ذلك بل وقوعه من الصحابة، وأما علماء الجمهور فقد اختلفوا فيما بينهم فمنهم من جوز ومنهم من منع وخلاصة أقوالهم قولان[٤]:

---

(١) رجال النجاشي: النجاشي: ١م٦٥، الترجمة١.

(٢) مصادر السنة الشريفة ص١٦.

(٣) طبقات بن سعد ٧، ٢٢٩. وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٢٣:١.

(٤) انظر اجتهاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للدكتورة العمري ص ١٧١ ـ ١٧٢ نقلاً عن كتاب تاريخ التشريع الإسلامي للفضلي ص ٤٧.

القول الأول: عدم جواز ذلك عقلاً مطلقاً، وهو قول قليل من العلماء.

القول الثاني: الجواز عقلاً، وهو قول معظم علمائهم، وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم في أمرين:

الأمر الأول: وهو دائرة اتساع هذا الجواز حيث كان منهم من يرى جواز الاجتهاد للصحابة مطلقاً قاضياً كان أو غير قاضٍ، بعيداً عن الرسول أو قريباً منه.

الأمر الثاني: وهو ضيق دائرة هذا الجواز حيث يرون جوازه لغير الرسول في زمانه بشرط أن يأذن له الرسول أو لوجود ضرورة كغيابه عن الرسول(١).

وإذا رجعنا إلى الوقائع التاريخية التي حدثت في عصر الرسول وكان للصحابة فيها اجتهاد سنجد أن اجتهادهم كان على نوعين:

النوع الأول: اجتهاد مقابل النص: وهو أن يرجع الصحابي إلى النص الشرعي ويتفهم معناه وفق ما يفهم. ومن أمثلته التي وقعت عندما أمر رسول الله أصحابه بالتوجه إلى بني قريظة بعد معركة الخندق حيث قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»(٢).

فلما كانوا في الطريق حضر وقت العصر، فقال بعضهم: يجب أن نصليها في وقتها، لأن الذي أراده منا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سرعة النهوض إلى بني قريظة، ولم يرد منا تأخير الصلاة.

وقال فريق آخر: لا نصليها إلا عند ما نصل إلى بني قريظة، لأن الرسول

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامي: ص ٤٩ نقلاً عن تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور عمر الأشقر في بحثه عن اجتهاد الصحابة.

أمرنا بذلك.

النوع الثاني: اجتهاد الرأي: وهو أن يتعرف الصحابي المصلحة في الفعل أو المفسدة فيفتي وفق ما يرى. ومن أمثلته التي وقعت في عصر الرسول ما يرويه البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم مرضه الذي مات فيه، قال: «أئتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غلبه الوجع - في بعض الروايات يهجر - حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع»[١].

قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والاجتهاد في هذه المسألة كان من عمر وتبعه نفر من الحاضرين وذلك أن عمر قدّر أن المصلحة أن لا يكتب الكتاب ويكتفى بالقرآن. وهذا - كما هو واضح - اجتهاد رأي يقوم على تقدير المصلحة وفق ما يراه المجتهد شخصياً، ولكنه - كما هو واضح - اجتهاد في مقابلة النص الصادر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر بإتيانه الدواة والقرطاس ليكتب لهم الكتاب الذي يعصمهم من الضلال.

ومثال آخر على اجتهاد الرأي لما مرض النبي وقال: جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه، فقال قوم يجب علينا امتثال أمره، وأسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتد مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره، وتكلم قوم وقالوا

(١) النص والاجتهاد: عبد الحسين شرف الدين: ص ١٦٩.

يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار(١).

فلما سمع النبي غضب وخرج عاصباً رأسه فصعد المنبر وأمرهم باتباعه وإنه لخليق بالإمارة وقال لهم إنه من خيارهم وجعل يقول أنفذوا جيش أسامة وينهى عن التخلف عنه، وهذا المثال أيضاً من اجتهاد الرأي في مقابلة النص الصادر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر بتنفيذ جيش أسامة.

فالاجتهاد إذن وقع من الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكل أنواعه ويكفي في التدليل على ذلك إضافة لما تقدم ما ورد في كتاب (النص والاجتهاد) أو (الاجتهاد في مقابل النص) للسيد شرف الدين العاملي، فإنه فيه الكثير من الأمثلة والموارد(٢).

دور أهل البيت عليهم السلام في الحفاظ على السنة النبوية ونشرها

لا شك في أن الخلاف قد وقع بين المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه وجد اتجاه للمسلمين يحول دون انتشار السنة النبوية بل عمد بعض الصحابة على منع التحدث بالأحاديث النبوية وأحرقوا ما كان موجوداً ومدوناً عند بعض الصحابة وكان ذلك بحجة عدم اختلاطه بالقرآن(٣). ولا شك

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١ ص ٥٣.

(٢) راجع ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج١ ص٥٣، والفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي (تحت عنوان اجتهاد الصحابة)، وكذلك عدنان فرحان، حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، والعسكري، معالم المدرستين (تحت عنوان اجتهاد الصحابة) وكتاب النص والاجتهاد للسيد شرف الدين العاملي.

(٣) انظر: مقدمة الوسائل: جواد الشهرستاني، ص٩. وانظر: إلى معالم المدرستين ـ مرتضى العسكري ج١ ص٤٣١.

أن هذا المبرر غير معقول وغير كافٍ وأنّ من راجع التأريخ وكتب السير يُدرك أن وراء ذلك أهداف سياسية وأغراض شخصية دعت إلى هذا الفعل فهذا أبو بكر أجمع على تدوين الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجمع خمسمائة حديث وكتبها.

ولكنه - كما تروي عائشة ابنته - بات ليلته يتقلب، قالت: فغمني تقلبه، فلما أصبح قال لي: أي بنيه هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها فأحرقها[١]. ثم منعهم من التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء.

فعن مراسيل بن أبي مليكة أن أبا بكر جمع الناس وقال: إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه[٢]. ولم تطل أيام أبي بكر، ولذلك لم يصدر منه كلام كثير حول تدوين الحديث في عصره، ولكن هناك إشارات إلى أن الصحابة لم يبالوا بنهيه واستمروا على الكتابة.

وعندما استخلف عمر فكر في أول أمره أن يكتب السنن كما فعل أبو بكر من قبله لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه، فعن عروة بن الزبير أن عمر قال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وأني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وأني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً[٣].

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: إنّ الأحاديث كثرت على عهد عمر

(١) تذكرة الحفاظ١: ٥.

(٢) معالم المدرستين. مرتضى العسكري ج١ ـ ص٤٣٢.

(٣) انظر: مقدمة الوسائل: جواد الشهرستاني، مؤسسة آل البيت، ص١٠.

ابن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بحرقها[١].

ولم يكتف عمر بذلك بل شدد أكثر فأكثر على منع انتشار السنة وساعد على ذلك طول المدة ودقة الخطة في المنع وشدة الأمر حتى وصل الأمر لمعاقبة كل من يخالف ذلك ووصل الحال أن يسجن ثلاثة من أصحاب رسول الله. حيث روى الذهبي أن عمر حبس ثلاثة: ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصاري، وقال لهم: أكثرتم الحديث عن رسول الله. فيا للعجب كل العجب أيحبس من يتحدث عن نبيّه بما قال[٢]؟!. واستمرت الحالة إلى عصر عثمان والأمويين والعباسيين وظهرت الروايات الكاذبة المختلقة والموضوعة بدلاً من الروايات والأخبار الصحيحة وقد واجه أهل البيت كل هذا بحزم وتصدوا له من أول الأمر، وذلك من خلال:

أولاً: مواجهة الإمام علي عليه السلام لهذا الأمر ورفضه له وبإصرار وتبعه أبناؤه الطاهرون وأتباعهم بعد ذلك وعانوا ما عانوا من المواجهة والجفاء من قبل الحكام من جراء هذا الموقف.

ثانياً: قاموا بنشر ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتبارهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت أدرى بالذي فيه.

ثالثاً: أخذوا يتوارثون كتاب الجامعة أو كتاب علي عليه السلام الذي أملاه رسول الله على علي عليه السلام وأعطاه الإمام علي إلى ولده الحسن والحسن إلى الحسين والحسين إلى السجاد وهكذا فكان فيه كل ما يحتاج إليه الناس وكل حلال

(١) المصدر السابق.

(٢)المصدر السابق، ص١٢.

وحرام إلى يوم القيامة، وكانوا يحتجون به على الناس وينشرون ما فيه بين النـاس ويأمرون أتباعهم وشيعتهم بنشر أحاديث النبي والسنة، وقد كان في زمن الصادقين ما وقع بين الدولتين الأموية والعباسية فانشغلوا عنهم، وانشغل أهل البيـت بنـشر الـسنة وعلـوم آل محمـد وهكـذا انتـشرت سـنة الرسـول وآثـار النبـوة مـن خـلال المنتديات العلمية والتي كان للأئمة دورٌ كبيرٌ فيه.

وكما قلنا بالخصوص عصر الصادقين حيث أسسوا الجامعة العلمية الكبرى الـتي تربى فيهـا آلاف الطـلاب والعلمـاء وأخـذوا ينـشرون الروايـات الـتي تـرد عـن الإمـام الصادق وهو يذكر السلسلة الذهبية لسند الروايـة حيـث يخبرهم عـن أبيـه البـاقر عـن جده السجاد زين العابدين عن الإمام الحسين عن الحسن عن الإمام علي عن رسـول الله عن جبرئيل عن الله فكان لهذا السند أثر كـبير في نفـوس النـاس حـتى في الأوسـاط غير الموالية لأهل البيت علـيهم الـسلام وببركـة إصـرار أهـل البيـت وسـعيهم الحثيـث والجاد في الحفاظ على السنة النبوية من التحريف والاندثار ظهرت الأحاديث وانتشرت في أرجاء الدنيا حيث انتشر أتباع أهل البيت وأصحابهم الذين يأخذون عنهم.

رابعاً: ما قام به أهل البيت مـن حـث أصـحابهم وتلاميـذهم علـى تـدوين الحديث ونقله وكتابته فصارت الكتب والمدونات التي منها الأصول وغير الأصـول كثيرة جداً حتى أن الحر العاملي يصفها بأنها بلغت في عصور الأئمة عليهم الـسلام ستة آلاف كتاب وستمائة، منها أربعمائة أصول وقد ساعد هـذا الأمـر في الحفـاظ على السنة ونقلها للأجيال اللاحقة، وقد ظهر من خلال ذلك منـهج أهـل البيـت ومدرستهم بصورة واضحة وجلية تميـزت عـن بـاقي المـذاهب والمـدارس الأخـرى كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق(١).

---

(١) راجع: الموسوعة الفقهية المجلد الأول: ص٢٥.

خلاصة عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

١ - إن عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان عصر تأسيس التشريع الإسلامي وعصر اكتمال الشريعة وكمالها وأنه في هذا العصر قد تم تبليغ القرآن تبليغاً كاملاً وعلى أحسن وجه من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - إن القرآن قد جمع ودوّن في زمن حياة النبي وبأمرٍ منه وتحت إشرافه وقد كتبه ودونه وجمعه الإمام علي بأمر من النبي.

٣ - تم في هذا العصر صدور السنة الشريفة من قول النبي وفعله وتقريره وتم تدوين هذه السنة وجمعها والحفاظ عليها وذلك بأمر من النبي.

٤ - في هذا العصر الشريف بدأ التأليف الإسلامي في مجال التشريع وكان عمدة ذلك وأساسه من قبل أمير المؤمنين عليه السلام حيث كتب كتاب الجامعة الذي يسمى بكتاب علي وكان بإملاء رسول الله وخطّ علي.

٥ - تم تدوين بعض الكتب والصحائف التي فيها من السنة الشريفة كصحيفة أبي رافع المدني وكذلك صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري وصحيفة سعد بن عبادة الأنصاري.

٦ - إن النبي لم يجتهد اجتهاد رأي وإنما كان يعمل بما يوحى إليه.

٧ - إن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وقع منه الاجتهاد بكلا نوعيه سواء اجتهاد النص أو اجتهاد الرأي.

٨ - يعد هذا العصر أول عصور المرحلة الأساسية الأولى وهي مرحلة الصدور والبيان الشرعي.

المبحث الثاني: عصر الإمام علي عليه السلام

وهو العصر الثاني من عصور المرحلة الأساسية الأولى مرحلة الصدور ويبدأ من حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين وفاة الإمام علي عليه السلام أي من سنة ١١هـ وحتى سنة ٤٠هـ.

والثابت في التأريخ أن الاختلاف وقع بين المسلمين في أمر من يخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونتيجة هذا الخلاف انقسم المسلمون إلى مدرستين، مدرسة النص، ومدرسة الرأي، وترسخ مفهومان آنذاك وهما مفهوم، اجتهاد النص، ومفهوم اجتهاد الرأي، واتضحت معالم هذين المفهومين أكثر فأكثر مما جعلهما يأخذان شكل المنهج العلمي في مجال التشريع الإسلامي، وتبنى الإمام علي عليه السلام منهج النص وتبنى الخليفة عمر منهج الرأي والتف حول كل واحد منهما نفر من الصحابة، بما حوّل المنهجين إلى مدرستين كما قلنا ترأس الإمام علي إحداهما، وترأس عمر الأخرى.

ويمكن أن تسمى مدرسة الإمام علي بـ(مدرسة أهل البيت) والتي يتبعها الفقه الإمامي والمدرسة الأخرى بـ(مدرسة الصحابة)[1] وباعتبار أن هذا سوف يتضح في

(١) انظر: كتاب تاريخ التشريع الإسلامي: العلامة الفضلي، ص٥٤.

مجال التشريع الإسلامي حيث انقسمت سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى (سنة أهل البيت) و(سنة الصحابة)، واتّسمت كل منهما بمنهجية خاصة وضوابط محددة وتبع بعدذلك جمهور المسلمين من العامة مدرسة الصحابة في فقههم.

وقد سماهما السيد عبد الحسين شرف الدين بمدرستي (النص والاجتهاد) في كتابه (النص والاجتهاد)(١).

وسماهما السيد مرتضى العسكري في كتابه (معالم المدرستين): مدرسة أهل البيت، ومدرسة العامة(٢)، وعلل ذلك بالتزام مدرسة العامة بشرعية حكومة الحكام بعد النبي.

ومن أقدم من أشار - من ناحية تاريخية - إلى الفرق بين هاتين المدرستين هو ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة): فقد جاء في معرض حديثه عن سيرة الإمام علي أمير المؤمنين، قوله:

«وأمّا الرأي والتدبيرفكان من أسدى الناس رأياً، وأصحهم تدبيراً، وهو الذي أشار على عمر لما عزم على أن يتوجه بنفسه إلى حرب الروم والفرس بما أشار، وهو الذي أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث. وإنما قال أعداؤه لا رأي له، لأنه كان مقيّداً بالشريعة، لا يرى خلافها ولا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه. وقد قال عليه السلام: (لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب). وغيره من الحكام كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه، ويستوقفه، سواء كان مطابقاً للشرع أو لم يكن. ولا ريب أن من يعمل بما

---

(١) راجع: كتاب النص والاجتهاد.

وانظر: كتاب المرجعات للمؤلف نفسه.

(٢) معالم المدرستين: العسكري، ص١٩١.

يؤدي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب. ومن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الإنتثار أقرب»[١].

وقال - ابن أبي الحديد في الشرح - في عرض موازنة بين سياستي علي وعمر، وسياستي علي ومعاوية: «اعلم أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلاّ إذا كان يعمل برأيه وبما يرى فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها. ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها، ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زائدين على عمر بن الخطاب ولا ناسبين إليه ما هو منزه عنه، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدب بالدرة والسوط من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب، كل ذلك بقوة إجتهاده وما يؤديه إليه نظره. ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر، ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبق أمور الدنيا على الدين، ويسوق الكل مساقاً واحداً، ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص. فاختلفت طريقتهما في الخلافة والسياسة»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد مجلد الأول، ج١ ص٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: المجلد الثاني، ج١٠، ص٥٧٢.

بيان حول أهم المدوّنات والوثائق في هذا العصر

من أهم الكتب والمدونات والوثائق والأحاديث المدونة في عصر أمير المؤمنين من هذه المرحلة التأسيسة الأولى لعصر الصدور والنص هي كالتالي:

١ - كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر عندما أناط به إدارة ولاية مصر، وهو المعروف بـ(عهد الأشتر).

ويتضمن العهد المشار إليه تشريعاً شاملاً ووافياً لما يعرف الآن بـ(الإدارة المحلية)، والتي يراد بها السلطة لولاية من الولايات بتطبيق النظام وتيسير المصالح العامة في الولاية. وهذا العهد موجود بكامله في (نهج البلاغة) و(بحار الأنوار).

٢ - كتابا سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري في الحديث.

وقد ذكرها السيد الأمين في أعيان الشيعة تحت عنوان (مؤلفي الشيعة في الحديث والفقه من الصحابة)، وقال فيهما: «وهما (يعني سلمان وأباذر) أول من جمع حديثاً إلى مثله في عنوان واحد»[١].

٣ - كتاب سليم بن قيس الهلالي (المتوفى حدود ٩٠هـ)[٢] والمعروف بكتاب: (السقيفة) وقد ألف كتابه ممّا سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين علي والمقداد وسلمان وأبي ذر وغيرهم من أعاظم صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاعتبر كتابه من أصول الكتب، بل عدّه بعض المؤرخين من أوّل كتب الشيعة[٣]. وقد مدحه الإمام الصادق عليه السلام وأثنى

(١) اعيان الشيعة: ١/١٣٩ وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي: العلامة الفضلي ص٧٦.
(٢) كتاب سليم بن قيس الكوفي الهلالي، لسليم بن قيس، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف، ص١.
(٣) مصادر السنة الشريفة ص٢٠.

عليه الأئمة حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام مدح لهذا الكتاب حيث قال: (من لم يكن عنده من شيعتنا ومحبينا كتاب سليم بن قيس الهلالي فليس عنده من أمرنا شيء ولا يعلم من أسبابنا شيئاً وهو أبجد الشيعة وهو سر من أسرار آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

٤ - كتاب الأصبغ بن نباتة (المتوفى بعد ١٠١هـ) وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وكان له كتاب فيه عهد الإمام علي إلى مالك الأشتر وفيه وصية الإمام عليه السلام إلى محمد ابن الحنفية[٢] ومطالب أخرى نقلها مباشرة من الإمام علي عليه السلام.

٥ - كتاب أبي رافع الأنصاري المتوفى سنة ٤٠هـ. ذكره النجاشي في فهرسته رجال النجاشي قال: «أسلم أبو رافع قديماً بمكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبي مشاهده، ولزم أمير المؤمنين عليه السلام من بعده وكان من خيار الشيعة وشهد معه حروبه، وكان صاحب بيت ماله بالكوفة. ولأبي رافع كتاب السنن والأحكام والقضايا»[٣]:

٦ - كتاب قضايا أمير المؤمنين، لعبيد الله بن أبي رافع. ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، قال: «عبيد الله بن أبي رافع (رض) كاتب أمير المؤمنين عليه السلام له: كتاب قضايا أمير المؤمنين»[٤].

٥ - كتاب في فنون الفقه لعلي بن أبي رافع التابعي. ذكره النجاشي بقوله:

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي، لسليم بن قيس، ص١.

(٢) مصادر السنة الشريفة، ص٢١.

(٣) رجال النجاشي: ١/٦١ ـ ٦٥.

(٤) الفهرست: ١٣٧.

«ولابن أبي رافع كتاب آخر، وهو علي بن أبي رافع تابعي، من خيار الشيعة، كانت له صحبة من أمير المؤمنين، وكان كاتباً له، وحفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون الفقه: كالوضوء والصلاة وسائر الأبواب»[١].

٧ - كتاب ميثم التمّار المتوفى سنة ٦٠ هـ. كتب فيه الحديث الذي استفاده من أمير المؤمنين حيث كان من خواص أمير المؤمنين وحظي برعاية خاصة منه عليه السلام. نقل عنه الشيخ الطوسي في الأمالي والكشي في الرجال وله أيضاً كتاب في التفسير أملاه عليه الإمام علي عليه السلام [٢].

٨ - كتاب القضايا والأحكام، لبرير بن خضير الهمداني. وكتابه من الأصول المعتبرة عند الأصحاب ذكره الشيخ المامقاني في كتاب تنقيح المقال. واستشهد مع الإمام الحسين يوم عاشوراء سنة ٦٠هـ[٣].

٩ - كتاب في الفقه، لعبيد بن محمد بن قيس البجلي. ذكره الشيخ الطوسي في (الفهرست ١٣٨)[٤].

١٠ - نسخة عبيد الله بن الحر الجحفي، الفارس الفاتك الشاعر التابعي.

قال النجاشي: له نسخة يرويها عن أمير المؤمنين عليه السلام [٥].

١١ - كتاب الديات. كتب به أمير المؤمنين عليه السلام إلى أمرائه ورؤوس

---

(١) النجاشي: ١/٦٥ ـ ٦٧.

(٢) مصادر السنة الشريفة: ص٢١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تاريخ التشريع الإسلامي: ص٧٨، وانظر: أدوار الفقه الإمامي للسبحاني، نقلاً عن الفهرست: ١٣٨.

(٥) نفس المصدر السابق.

أجناده. رواه الأصحاب عن ظريف بن ناصح الكوفي البغدادي. وقال الشيخ الطهراني في كتابه: «هو من الأصول المعتمد عليها غاية الاعتماد ورواه المشايخ عن ظريف. وأدرج كثيراً منه ثقة الإسلام الكليني في أبواب الديات من (الكافي) وأورده بتمامه الشيخ أبو جعفر بن بابويه الصدّوق في كتاب الديات من (من لا يحضره الفقيه) من أوله إلى آخره الذي هو (صداقها مثل نساء قومها) وزاد قوله بعد ذلك (وأكثر رواية أصحابنا في ذلك الدية كاملة). وكذا أورده جميعه بعين ترتيبه الشيخ الطوسي في (التهذيب)»[1].

هذه الآثار وغيرها مما لم نذكرها أو لم نحظَ بها وبالاطلاع عليها أسهمت إسهاماً عظيماً في حركة الفقه الإسلامي بصورة عامة والفقه الإمامي بصورة خاصة فدفعت الحركة إلى الأمام وتقدمت بمستوى أكثر وبالخصوص مدرسة أهل البيت وأتباعهم باعتبار أن مدرسة الاجتهاد أو مدرسة الصحابة أو مدرسة الرأي حسب كل المسميات التي سماها بها العلماء كانت تمنع من الحديث وتدوينه وأحرقت كثيراً من السنة النبوية والأحاديث النبوية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[2].

من منع أبي بكر وعمر من تدوين السنة وكان على العكس والخلاف أتباع مدرسة أهل البيت حسب ما تقدم من اهتمامهم بالتدوين والحفظ والتأليف وحفظ السنة والآثار الفكرية والاعتناء بها أشد العناية وذلك كله بتوجيه من الإمام علي عليه السلام ومن خلال تعليماته ومنها ما قاله عليه السلام في فهم الرواية: «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية، لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل».

---

(١) الذريعة: ٢/١٦٠.

(٢) انظر: مقدمة الوسائل: جواد الشهرستاني. ص٩.

وذات يوم خطب خطبة عظيمة بين فيها العلماء الحقيقيين فقال عليه السلام:

«أما بعد، فذمتي رهينة وأنا به زعيم، لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظمأ على التقوى سنخ أصل، وأن الحق والخير فيمن عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وأن من أبغض الخلق إلى الله تبارك وتعالى رجلين: رجل وكله الله إلى نفسه، جائر عن قصد السبيل، مشغوف ببدعه، قد لهج فيها بالصوم والصلاة، فهو فتنة لمن افتتن بعبادته، ضال عن هدي من كان قبله، مضلّ (لمن) اقتدى به من بعده حمّال خطايا غيره ممن اضل بخطيئته. ورجل قَمَشَ جهلاً في أوباش الناس، غار بأغباش الفتنة، قد سماه الناس عالماً، ولم يغن في العلم يوماً سالماً، بكر فاستكثر، ما قلّ منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من آجنٍ، وجمع من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً، ضامناً لتخليص ما اشتبه على غيره، إن خالف قاضياً سبقه، لم يأمن في حكمه، وإن نزلت به إحدى المعضلات هيأ لها حشواً من رأيه، ثم قطع به، فهو على لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ، إن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وأن اخطأ رجا أن يكون قد أصاب، لا يحسب العلم في شيء مما أنكر، ولا يرى أن وراء ما بلغ فيه مذهباً، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذّب نظره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلمُ من جهله، لئلا يقال لا يعلم، ثم جَسَرَ فأمضى، فهو مفتاح عشوات، ركّاب شبهات، خبّاط جهالات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعض بضرس قاطع في العلم فيغنم، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم، تبكي منه المواريث، وتصرخ منه الدماء، وتحرّم بقضاءه الفروج الحلال، وتحلّل الفروج الحرام، لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض إليه، أيها الناس، أبصروا عيب معادن الجور، وعليكم بطاعة من لا تعذرون بجهالته، فإن العلم الذي نزل به آدم عليه

السلام، وجميع ما فُضّل به النبيون عليهم السلام في محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وفي عترته الطاهرين. فأين يتاه بكم، بل أين تذهبون؟!»[١].

إلى غير ذلك من تعاليم وأحاديث كثيرة تجدها في كتب الكافي ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار ونهج البلاغة وغيره من الكتب وكل هذه الأحاديث والخطب بالكتب والمدونات ساعدت في دفع عجلة الفقه الإمامي في هذه الفترة المهمة من عصور المرحلة الأساسية الأولى (مرحلة الصدور).

خلاصة العصر

في هذا العصر وبعد رحيل النبي العظيم افترق المسلمون في من خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبناء على هذا الافتراق والاختلاف اجتهد أصحاب النبي بآرائهم فترسخ مفهوم الاجتهاد ومفهوم النص وبدأ تكون مدرستين في المجتمع الإسلامي مدرسة أهل البيت التي يرأسها علي عليه السلام ومدرسة يرأسها عمر والتف حول كل واحد منهم أتباع وقد تم في عصر أمير المؤمنين التأكيد على التقيد بالنص والتأكيد على استعمال المصطلحات الشرعية القرآنية وتصنيف رواة الحديث وبيان أقسامهم من قبل أمير المؤمنين، وكذلك نشطت حركة التدوين والتأليف الإسلامي بالخصوص شيعة أمير المؤمنين الذين لم يعتنوا بالمنع الحاصل واتبعوا أمير المؤمنين في ذلك، فظهر تأليف الحديث والفقه وتدوينه بكتب وصحائف وتم أيضاً وضع الخطوط العامة للبحث الروائي وللفقه الروائي، وكل ذلك ببركات أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام.

---

(١) انظر مقدمة موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

المبحث الثالث: عصر الأئمة الحسن والحسين والسجاد عليهم السلام

ويبدأ هذا العصر من استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام حتى وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام سنة٩٥هـ.

وكانت هذه المرحلة من أشد المراحل عنفاً على مدرسة أهل البيت حيث عاصر فيها الأئمة الثلاثة الحكم الأموي حيث التضييق عليهم وعلى شيعتهم بالقتل والسجن والتعذيب، وذلك بغية القضاء على مدرسة أهل البيت وأتباعها نهائياً، وذلك لتبنّي مدرسة أهل البيت النص، ورفضها وبشدة لمدرسة اجتهاد الرأي ومنهج القياس ومخالفة سنة الرسول، ولمّا كان هذا المنهج قائم عليه حكم الأمويين، وكان يفيدهم في تبرير كثير من تصرفاتهم المخالفة للقرآن والسنة، ومن خلال دعم الفقهاء الذين تحت عروشهم والمتنعمين في عطائهم بوضع الآراء الشخصية والاجتهادات الخارجة عن النص لتؤيد تصرفاتهم وتدعم مواقفهم وتضفي عليها صبغة شرعية[1] كان ذلك التصرف منهم. ومن الشواهد على ذلك: إعلان معاوية وجوب سب أمير المؤمنين عليه السلام رسميّاً وعلى المنابر في بلاد المسلمين حتى جاء في شروط صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية رفع

(١) معالم المدرستين، العسكري ج٢، ص٣٧٩، وكذلك ج٣ ص٣٧٦.

هذا السب، وكما يقول العلامة العسكري في كتابه (معالم المدرستين): «كان معاوية جاداً كل الجد في إحياء سنن أبي بكر وعمر وعثمان، وخاصّة في ما كان فيها إرغام لأهل البيت ومخالفة لمدرستهم لاسيما الإمام علي عليه السلام، كانت هذه سياسته على العموم»(١).

حتى بلغت هذه الضغوط أوجها وأوصلت معاوية إلى قتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسن وذلك من خلال دس السم إليه عن طريق زوجته جعدة وزاد أكثر عندما أمر ابنه يزيد بقتل الحسين وسبي ذراريه وتسييرهم من بلاد إلى بلاد أُسارى واشتد الضغط على كل من يخالف أو يتآمر حتى وصل إلى وقعة الحرة بالمدينة حيث قتل منها أناس كثيرون من الصحابة والتابعين ومن المؤمنين وأخذ يزيد منهم البيعة على أنهم عبيد أرقاء له.

هذا بالرغم من مكانة الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام في نفوس المسلمين ومقامهما عند الله وعند رسوله ومنزلتهما الشريفة وبالرغم من تأكيد الرسول على مكانتهما، حيث أنزل الله في حقهما بل في حق أهل البيت عامة آيات كثيرة منها قول الله تبارك وتعالى لما أنزله على رسوله حيث قال: **{ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى }**. فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القربى بعلي وفاطمة والحسن والحسين (٢).

ولما أراد الله سبحانه أن ينزل آية التطهير، ورأى رسول الله أن الرحمة هابطة، دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وضمّهم إلى نفسه تحت الكساء، فأنزل الله

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٢٢٠. وانظر: مصادر السنة الشريفة، ص٢٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري والزمخشري والسيوطي في تفسير الآية.

تعالى: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } . فقال رسول الله: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي...، وبقي طول حياته بعد ذلك يقف على باب دارهم يومياً خمس مرّات أوقات الصلاة اليومية ويقول: السلام عليكم يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

ولما نزلت الآية الكريمة: { فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ }[1]. وأراد أن يباهل نصارى نجران؛ دعا رسول الله علياً وفاطمة والحسن والحسين[2]. وفي رواية: وقد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها، وقال لهم النبي: إذا دعوت فأمّنوا، فلما رآهم أسقف نجران، قال: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، فصالحهم على دفع الجزية[3]. هذا بعض ما تلته الأمة في قرآنها وسمعته في تفسيره عن رسول الله له وشاهدته يفسره بعمله، وأيضاً سمعت الأمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من صلى صلاة لم يصلِّ فيها عليّ ولا على أهل بيتي لم تقبل منه، ولما سألوه كيف يصلون عليه قال: قولوا (اللهم صلِّ على محمد وآل محمد) كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)[4].

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) تاريخ الإسلام: ج١، ص٥٥٦.

(٣) معالم المدرستين، ج٣، ص٣٧١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الدعوات في باب الصلاة على النبي، ومسند أحمد بن حنبل ٤٧/٢.

وسمعت الأمة أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي وفاطمة والحسن والحسين: أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم[١]. وفي رواية: أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم. وأخذ بيد حسن وحسين فقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأُمهما كان معي في درجتي يوم القيامة. ويقول: الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا. ويقول: ألا أخبركم بخبر خير الناس جداً وجدّة؟ ألا أخبركم بخير الناس عمّاً وعمّة؟ ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالةً؟ ألا أخبركم بخير الناس أباً وأمّاً: الحسن والحسين. ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما. ويقول: من أحب الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني. ويقول كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإنّي أنا أبوهم وأنا عصبتهم. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى في مسجده فإذا سجد وثب الحسن والحسين عليهما السلام على ظهره، وإذا رفع رأسه أخذهما فوضعهما وضعاً رقيقاً فإذا عاد عادا. وكان إذا خطب في مسجده فإذا جاء الحسن والحسين يمشيان ويعثران، فينزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فيحملهما ويضعهما بين يديه[٢]. وعلى الرغم من كل هذا الذي قدمناه في حقهما فقد كان فعل الأمويين بالأئمة مما لا نظير له في التأريخ. من ظلم وجور وتمادٍ في مخالفة القرآن والسنة وإكثار من اجتهاد الرأي.

وفي هذا العصر من عصور المرحلة كان التأليف قليلاً ومنحسراً مما أدى إلى ضياع الكثير من التراث الإسلامي في صدور القوم أو لم ينشروه في هذا العصر خوفاً من سطوة السلاطين والولاة آنذاك.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، ومستدرك الصحيحين، ٣/٣٥٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ٤/٣٨٩، ومستدرك الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ١/٢٨٧.

ولكن الأئمة تداولوا العلم وحفظوه وتناقلوه كابراً عن كابر كما جاء في كتاب بصائر الدرجات عن معلّى بن خنيس عن أبي عبد الله - الإمام الصادق عليه السلام - قال: إنّ الكتب كانت عند علي عليه السلام فلما سار إلى العراق استودع الكتب أم سلمة فلما مضى علي كانت عند الحسن عليه السلام فلما مضى الحسن كانت عند الحسين فلما مضى الحسين كانت عند علي بن الحسين، ثم كانت عند أبي الباقر[١]. وفي بصائر الدرجات ثلاث روايات أخرى اثنتان منها عن أم سلمة قالت: إن رسول الله استودعها كتاباً فسلّمته الإمام عليّاً بعد رسول الله وثالثة عن ابن عباس أيضاً بالمعنى نفسه[٢].

ويروي الكافي عن سليم بن قيس، قال: شهدت وصية أمير المؤمنين حتى أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال لابنه الحسن: يا بني؟ أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفع إليّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين ثم أقبل على ابنه الحسين فقال له: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي واقرأه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومني السلام[٣].

(١) بصائر الدجات: الصفار، ص١٨٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) معالم المدرستين: العسكري، ج٢، ص٢٢٩.

ولما حضر علي بن الحسين عليه السلام الوفاة أخرج صندوقاً عنده، فقال: يا محمد! احمل هذا الصندوق. فحمل بين أربعة، فلما توفّي جاء إخوته يدّعون في الصندوق، فقال لهم: والله ما لكم فيه شيء، ولو كان لكم فيه شيء ما دفعه إليّ. وكان في الصندوق سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ونظر الإمام السّجاد إلى ولده، وهو يجود بنفسه وهم مجتمعون عنده، ثم نظر إلى ابنه محمد فقال: يا محمّد خذ هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك وقال: أما إنّه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكن كان مملوّاً علماً.

وهذه الظاهرة في تسليم الكتب اختص بها الإمام السجاد عليه السلام ولم يفعل نظيرها من الأئمة سواء السابقين أو اللاحقين عدا أمير المؤمنين فكان شبيه له في الوصية. وكانت الحكمة تهيئة الأجواء للإمام الباقر كي ينقل للناس أحكام الإسلام وعقائده[١].

وينقل الدكتور الفضلي قول السيد الأميني في الجزء الأول من كتاب (دعائم الإسلام في كتابه تاريخ التشريع الإسلامي): «وجاء من بعد الحسين ولده زين العابدين عليهم السلام، فأسدى إلى الإسلام منافع جلّى في مدة تقرّب من ٣٥ سنة، من سنة ٦١هـ إلى سنة ٩٥هـ، عاصر فيها خمسة من ملوك بني أمية: يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، بما كان قدوة للمسلمين في زهده وورعه وعبادته حتى لُقِّبَ (زين العابدين) و(السجاد)، وحلمه، وجميل صفاته. روى عنه فقهاء الإسلام من العلوم ما لا يحصى كثرة، وحفظ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ما هو مشهور بين العلماء، وقلّما يوجد كتاب زهد وموعظة لم ينقل فيه عنه. وقد

(١) معالم المدرستين: السيد العسكري ج٣، ص٤٠٣.

كان لزين العابدين عليه السلام بعض السعة لنشر علومه التي ورثها عن أبيه عن أجداده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان في دولة الملك العضوض ملك بني أمية ألد الأعداء لبني هاشم عامة ولآل علي خاصة، إلا أن بني أمية بعد قتل الحسين عليه السلام لما رأوا نقمة الناس عليهم كفوا عن المجاهرة بظلم أهل البيت عليهم السلام شيئاً ما، ففسح لهم المجال في نشر علومهم، وقد أمنوا أيضاً بعض الأمن من مطالبتهم بالخلافة والخروج عليهم، ويدل على ذلك أيضاً أن أهل المدينة وفدوا على يزيد بن معاوية بعد ما بويع بالخلافة وقتل الحسين، فبالغ في إكرامهم، لكنهم لما رأوا فسقه وسمعوا عن قبيح أعماله مقتوه، ولما عادوا إلى المدينة قالوا: (جئناكم من عند أكفر الناس)، وخرجوا عليه، وأخرجوا بني أمية من المدنية، فكانت وقعة الحرة التي بايع مسلم بن عقبة أهل المدينة على أنهم عبيد رق ليزيد بن معاوية إلا علي بن الحسين فإنه بايعه على أنه أخوه وابن عمه بوصية من يزيد. وساعدت بعض الظروف الإمام زين العابدين على نشر علوم أجداده فكثرت تلاميذ زين العابدين عليه السلام، والآخذون عنه في أنواع العلوم وكانت مدرسته في داره وفي المسجد. وأخذ عنه فقهاء الحجاز وعلماؤه، ومن يأتي من الآفاق للحج، ودوّنوا ما أخذوه عنه، ورواه الناس ومن الذين كانوا يترددون عليه من الصحابة والتابعين جابر بن عبد الله الأنصاري، وعامر بن راثلة الكناني، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جهان الكناني مولى أم هانئ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسعيد ابن جبير، ومحمد بن جبير بن مطعم، وأبو خالد الكابلي، والقاسم بن عوف الشيباني، وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وإبراهيم بن محمد ابن الحنفية، وحبيب بن أبي ثابت، ويحيى ابن أم الطويل، وسلمة بن دينار المدني»(١).

(١) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي: ص٩٠.

وروى عنه ابن شهاب الزهري وقال فيه: «ما رأيت أفقه من زين العابدين» وقال أيضاً: «ما رأيت قرشياً أفضل منه» وقال أيضاً: «ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ولا أفقه منه».

وربى الإمام السجاد آخرين أمثال جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبي عبد الله المتوفى (١٢٨هـ) وكذلك زياد بن المنذر وكان مستقيماً ثمّ انحرف له أصل وكتاب في التفسير[١]. ولوط بن يحيى بن سعيد شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، له كتب كثيرة ذكر أسماءها النجاشي في (رجاله)[٢] وجارود بن المنذر الثقة أورده الشيخ الطوسي في أصحاب الباقر والصادق عليه السلام له كتب[٣].

ومع هذا الضغط الذي كان عليهم من قبل الأمويين، فقد ذكر الشيخ الطوسي أصحاباً للإمام الحسن عليه السلام الذين صاحبوه ورووا عنه فبلغوا - ٥٢ - بين صحابي وتابعي ارتووا من معين علمه الفياض. كما ذكر أصحاب الإمام الحسين بن علي عليهما السلام وفق الحروف الهجائية، فبلغوا - ١٠٩ - بين صحابي وتابعي وقد رووا في مختلف المجالات من العقائد والفقه والتفسير. وذكر الطوسي في رجاله أيضاً الرواة عن الإمام السجاد عليه السلام ورتبها على حروف المعجم فبلغ ١٧٥ شخصاً، وهم بين صحابي وتابعي وقد ذكرنا بعضهم فيما سبق[٤].

---

(١) راجع: أدوار الفقه الإمامي: الشيخ السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق، قم، ص٤١.

(٢) كتاب الرجال للنجاشي، ١٩١، برقم ٨٧٣. والشيخ في فهرسته برقم ٥٨٤.

(٣) رجال الشيخ الطوسي، ١١٢، في أصحاب الباقر.

(٤) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي: ص٩٢. نقلاً عن رجال الطوسي.

وانظر: تحف العقول: ١٨٤ ـ ١٩٥ وكذلك الخصال، للصدوق ٥٦٤ ـ ٥٧٠ في أبواب الخمسين.

آثار الإمام السجاد عليه السلام العلمية

١ - الصحيفة الكاملة وتعرف (الصحيفة الأولى) وبـ(الصحيفة السجادية).

وتحتوي أربعة وخمسين دعاء في موضوعات شتى، وهي من المتواترات عند الأصحاب لاختصاصها بالإجازة والرواية في كل طبقة وعصر. وينتهي سند روايتها إلى الإمام الباقر أبي جعفر عليه السلام وزيد الشهيد (رض) ابني علي بن الحسين عليهم السلام عن أبيهما علي بن الحسين. كما يصفها الشيخ الطهراني[١].

٢ - رسالة الحقوق: رواها عنه عليه السلام تلميذه أبو حمزة الثمالي ثابت ابن أبي صفية الكوفي المتوفى سنة ١٥٠هـ.

وكذا رواها الحسن بن شعبة في «تحف العقول» كما رواها الصدوق في «الخصال» وهي من جلائل الرسائل في أنواع الحقوق يذكر الإمام فيها ٥٠ حقاً[٢].

وقد استفاد من هذين الأثرين العلماء فيما بعد في كثير من الأمور التي تتعلق بالتوحيد والعقائد والفقه.

خلاصة النتائج في عصر الأئمة عليهم السلام الثلاثة

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نلخص أهم أحداث ونتائج هذا العصر كالتالي:

١ - تشديد الخناق على مدرسة أهل البيت وأتباعهم من قبل معاوية ويزيد وآلهما لئلا تنشر شيئاً من فكرها وفقهها المستمد من علي ومن رسول الله.

---

(١) الذريعة: ١٥/١٨.

(٢) أدوار الفقه الإمامي: السبحاني، ص٢٦، ٢٧. ومصادر السنة الشريفة: ص٢٥.

٢ - بروز ظاهره خطرة جداً أشد من خطر منع الحديث وأكثر تأثيراً في مستقبل الإسلام حاضره ومستقبله وهي (ظاهرة وضع الأحاديث) المزورة عن لسان كبار الصحابة وحتى عن لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم نفسه في فضائل بني أمية وفضائل أبي بكر وعمر وعثمان وشاع سوق الأحاديث الموضوع بترويج الحكام والمتآمرين على مستقبل الإسلام.

٣ - انحراف الأمة انحرافاً شديداً حتى أخذوا يسبون علياً على المنابر وقتلوا ذرية الرسول وسيد شباب أهل الجنة.

٤ - سلك الحسين قبل شهادته سلوكاً لإيقاف هذا الانحراف عن منهج النص والسنة وذلك بأن قدم نفسه في سبيل الحق والوقف أمام هذا الانحراف والحد من اجتهاد الرأي وإيقاظ الأمة.

٥ - توالي الثورات بعد الإمام الحسين حتى أطاحت بعرش الأمويين.

٦ - الانفراج القليل أمام مدرسة أهل البيت في عصر الإمام السجاد مما ساعده على العطاء والتربية والتعليم وبأساليب جديدة للتمهيد أمام مدرسة الإمام الباقر الكبرى.

٧ - توارث الأئمة الكتب والصحائف والعلم واحداً من واحد وكلها كانت من رسول الله وفيها سنة رسول الله وبإملائه وخط علي.

المبحث الرابع: عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام

ويبدأ هذا العصر من وفاة الإمام السجاد سنة (٩٥هـ) حتى وفاة الإمام الصادق عليه السلام سنة(١٤٨هـ).

وكانت هذه الفترة هي فترة الانتقال بين الدولتين الأموية والعباسية، حيث كانت بدايات نهاية الدولة الأموية واستمرار اتجاهها نحو السقوط والانهيار وكانت بداية الدولة العباسية وعدم سيطرتها على كل الأمور وزمامها لأنها كانت تطارد فلول الدولة المبادة.

ويعتبر هذا العصر عصر الانفراج والفسحة للنشاط الفكري لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وسماه الشيخ الطهراني (عصر انتشار علوم آل محمد)، لأنه - كما يعلل - «عصر ضعف الدولتين واشتغال أهل الدولة بأمور الملك عن أهل الدين»، ويؤرخه بالفترة الممتدة «من أواخر ملك بني أمية بعد هلاك الحجاج بن يوسف سنة (٩٥هـ) إلى انقراضهم بموت مروان سنة ١٣٢هـ، ثم أوائل ملك بني العباس إلى أوائل أيام هارون الرشيد الذي ولي سنة ١٧٠هـ، وهو المطابق لأوائل عصر الإمام الباقر عليه السلام المتوفى سنة ١١٤هـ، وتمام عصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام المتوفى سنة ١٤٨هـ، وبعض عصر الإمام الكاظم عليه السلام المتوفى في حبس هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ، إذ كان قد قبض عليه الرشيد من المدينة في سفر حجه.

فكانت فضلاء الشيعة ورواهم في تلك السنين آمنين على أنفسهم، مطمئنين، متجاهرين بولاء أهل البيت عليهم السلام، معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمة عليهم السلام مزاحم لنشر الأحكام، فيحضر شيعتهم مجالسهم العامة والخاصة للاستفادة من علومهم عليهم السلام. في تلك المدة القليلة كتبوا عن أئمتهم أكثر ما ألفوه، وبسعيهم نشرت علوم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

وعوامل أخرى ساعدت الإمامين الصادقين على القيام بمهامهما الفكرية والعلمية، منها ابتعادهما عن الطموح إلى تولي السلطة لعلمهما بأنها لا تصل إليهما وأنهما لا يصلان إليها، لأسباب كانوا على اطلاع بها، ولمعرفتهما بواقع المستويات الاجتماعية والسياسية لابناء الأمة الإسلامية آنذاك، فلم يقتربا من سلطان، ولم يتصلا بسلطة، ولم يتدخلا بشأن سياسي يمتّ إلى النظام الأموي أو النظام العباسي بوجه من الوجوه.

مجالات نشاط الإمامين الصادقين عليهما السلام

المجال الأول: التعليم

فقد ذكر - تاريخياً - أن كلاً من الإمامين الصادقين عليهما السلام قام بدور التعليم، فكان لكل منهما رواته في المسجد النبوي الشريف، وكان لكل منهما في بيته مجلس عامر بالرواة وطلبة العلم، المستفتين الوافدين من مختلف أنحاء المعمورة، وبخاصة في أيام الحج، حيث كانوا - الشيعة بالخصوص - يدونون كل ما لديهم من أسئلة، ويتقدمون بها إلى مقام الإمام عند تشرفهم بلقياه.

---

(١) الذريعة: ٢/١٣١ ـ ١٣٢.

ومن الوقائع التاريخية التي تشير إلى هذا المعنى: عن (حلية الأولياء) لأبي نعيم الاصفهاني: قال «قال عبد الله بن عطاء المكي: ما رأينا العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر - يعني الباقر عليه السلام -، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة[١] مع جلالته وسنه، عنده كأنه صبي بين يدي معلم يتعلم منه»[٢].

وعن أبي القاسم اللالكائي في (شرح حجج أهل السنة): قال: «قال أبو حنيفة لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام: أأجلس؟، وكان أبو جعفر قاعداً في المسجد فقال أبو جعفر: أنت رجل مشهور ولا أحب أن تجلس إلي. قال فلم يلتفت إلى أبي جعفر، وجلس».

وعن الشهرستاني في «الملل والنحل» :«جعفر بن محمد الصادق ذو علم غزير وأدب كامل، في الحكمة، وزهد في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع في الخلافة أحداً ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط».

ومن خلال مراجعة التأريخ نعرف أن الإمامين الصادقين قد تفرغا التفرغ الكامل لتشييد بناء مدرسة أهل البيت عليهم السلام على أسسها التي أسسها جدهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبخاصة بعد أن تبين لهما جلياً أن الزمان - سياسياً - ليس زمانهما، وأن رجال السياسة فيه ليس من رجالهما. وهذا عامل وعامل آخر ساعد مساعدة فاعلة في تفريغهما وهو غزو الحضارات الوافدة كاليونانية والهندية

(١) الحكم بن عتيبة الكوفي، المتوفى سنة ١١٤هـ مولى الشموس بن عمر الكندي، كان من فقهاء أهل الخلاف.

(٢) تاريخ الإسلام: ج٢، تحت عنوان عصر الباقر.

والفارسية والعبرية والسريانية بما تحمل من فلسفات وأيديولوجيات، فيها من النظريات حول الكون والحياة والإنسان ما لا يلتقي ووجهة نظر الإسلام، وكان عامل الترجمة قد ساعد على انتشار ذلك، فلابد - والحالة هذه - من أن تكون للمسلمين فلسفة تستخلص من واقع النظرة الإسلامية الأصيلة، حتى لا تتوزعهم الفلسفات الوافدة وتتقاسمهم حضاراتها اللاإسلامية.

فبدأ الإمام الباقر بتأسيس جامعته الكبرى وأكملها وطورها الإمام الصادق عليه السلام ودرس فيها أسس الفلسفة الإسلامية الصحيحة وكل العلوم الإسلامية والطبيعية. وكتاب (الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب) يوضح الكثير من هذا القبيل. يقول السيد محمد صادق نشأت: «كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري»[1]. وقد كثر تلامذة الإمامين الصادقين الذين تخرجوا من مدرستهما، سواء من مركزها الأصل (المدينة المنورة) أو من (الكوفة) عندما كان الإمام الصادق عليه السلام يستدعى من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

ونحن إذا رجعنا إلى تأريخ الكوفة منذ عصر أمير المؤمنين حتى عصر الغيبة - باعتبار أن الكوفة كانت موطن الشيعة الرئيس والمركز العلمي المهم لهم، وأن قمة

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. ص٦٢.

عطاء مدرسة أهل البيت كان في عهد الصادقين - نتعرف على مدى تأثير مدرسة أهل البيت في تعليم شيعتهم وتربيتهم ليكونوا حملة رسالتهم والامتداد الشرعي لهم، فإننا سنجد أن العطاء الذي قامت به مدرسة أهل البيت عليهم السلام - هنا - كان فاعلاً في تأثيره، وعاملاً قوياً في تحقيق الهدف وقد ذكر السيد بحر العلوم في (رجاله)، وهو يُعرِّف الأسر العلمية في الكوفة خلال المدة المشار إليها ويعدد رجالاتها في الحديث والفقه وسائر العلوم الشرعية ويبين مدى إسهامهم في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام. فقد ذكر السيد بحر العلوم هذه البيوتات:

١ - آل أبي رافع.
٢ - آل أبي شعبة الحلبيين.
٣ - آل أعين.
٤ - آل أبي صفية.
٥ - آل أبي أراكة.
٦ - آل أبي الجعد.
٧ - آل أبي الجهم اللخميين.
٨ - آل أبي سارة.
٩ - آل تميم الغامديين.
١٠ - آل حيان.
١١ - بني الحر الجعفي.
١٢ - بني الياس البجلي.
١٣ - بني خالد.
١٤ - بني عبد ربه.
١٥ - بني ياسر.
١٦ - بني ميمون.
١٧ - بني سوقة.
١٨ - بني نعيم الصحاف.
١٩ - بني فرق.
٢٠ - بني الهيثم.
٢١ - بني عمار البجلي الدهني.
٢٢ - بني حكيم.
٢٣ - بني موسى.

وسنذكر آل أعين كنموذج لهذه الأسر العلمية ونذكر أهم شخصية علمية فيها وهو زرارة بن أعين ونذكر بعض الشخصيات الأخرى كنماذج فقط:

الأنموذج الأول: آل أعين (وزرارة بن أعين)

آل أعين أكبر بيت في الكوفة من شيعة أهل البيت، وأعظمهم شأناً وأكثرهم

رجالاً وأعياناً، وأطولهم مدة وزماناً. أدرك أوائلهم السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، وبقي أواخرهم إلى أوائل الغيبة الكبرى، وكان فيهم العلماء الفقهاء والقراء والأدباء ورواة الحديث. ومن مشاهيرهم: حمران وزرارة وعبد الملك وبكير بنو أعين، وحمزة بن حمران، وعبيدة بن زرارة، وخريس بن عبد الملك، وعبد الله بن بكير، ومحمد بن عبد الله بن زرارة والحسن بن الجهم بن بكير، وسليمان بن الحسن بن الجهم، وأبو طاهر محمد بن سليمان بن الحسن وأبو غالب أحمد بن محمد بن محمد بن سليمان.

وكان أبو غالب شيخ علماء عصره وبقية آل أعين وله في بيان أحوالهم ورجالهم رسالة (رسالة أبي غالب الزراري).

وأشهرهم زرارة وهو أحد الفقهاء الستة من تلاميذ الإمامين الصادقين الذين أجمع الأصحاب على توثيقهم، وقالوا: إنه - زرارة - أفقههم، وقال الشيخ الكشي: «أجمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام وأنقادوا لهم بالفقه، فقالوا: أفقه الأولين ستة: زرارة ومعروف ابن خربوذ، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، وقالوا: وأفقه الستة زرارة»[1] وروى الكشي أيضاً بإسناده عن جميل بن دراج، قال: «سمعت أبا عبد الله يقول: أوتاد الأرض وأعلام الدين أربعة: محمد بن مسلم وبريد بن معاوية وليث بن البختري المرادي وزرارة بن أعين، أربعة نجباء الله على حلاله وحرامه لو لا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست» وقال أيضاً «ما أحد أحيى ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: بحوث حول زرارة ـ الطبعة الثانية ـ العدد ١٧ ـ سنة ٥ ـ ٢٠٠٠م ص٢٢٤.

العجلي، ولولا هؤلاء ما كان يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين، وأمناء أبي على حلاله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة»[(١)].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله أنه قال «رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي».

الدور العلمي لزرارة ومنهجه الفقهي

لا شك في أن مدرسة الكوفة كانت تمثل امتداداً لإشعاع مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة المنورة. وقد تألّقت في هذه المدرسة شخصيات عرفت في العالم الإسلامي بمكانتها العلمية والفقهية، فكانت تمثّل - بحقّ - دور المرجعية الدينية، والوسائط التي تربط بين الأئمة عليهم السلام وقواعدهم.

وقد نالت تلك الشخصيات - من أضراب محمد بن مسلم، وأبان بن تغلب، وزرارة بن أعين - تأييد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، الأمر الذي عزّز مكانتها الاجتماعية ومهد لتصديها للمرجعية في الفتيا والحديث.

وأمّا الدور الذي نهض به - زرارة بن أعين - ضمن أطار مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فيمكن استيحاء أبعاده من خلال الكلمات العديدة الصادرة في حقّه من قبل الأئمة عليهم السلام المعصومين والتي لم تصدر لغرض التشريف والإطراء فحسب، بل لتحديد دوره العلمي والتعريف به، فقد ورد في بعضها عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لولا زرارة لظننت أن أحاديث أبي عليه السلام ستذهب»[(٢)].

---

(١) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص١٠٩.

(٢) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١٨، ص ١٩٨، نقلاً عن اختيار معرفة الرجال: ←

وعدّه عليه السلام في حديث آخر من حفاظ الدين، وأهل الاستنباط والأمانة على الحلال والحرام - كما تقدم بعضها - وفي خبر آخر أشاد بدوره في إبطال البدع، والرد على الشبهات والدفاع عن الحقّ.

ومما يجدر الإشارة إليه هو روايته لجملة من الأحاديث التي تتضمن قواعد علميّة هامة، كقاعدة «لا ضرر»، والاستصحاب وغيرها.

وأما منهجه في الفقه فهو منهج الفقهاء الرواة في اعتماد الخبر لبيان الرأي الفقهي، وربما كان يفتي بمضامين الخبر أيضاً، كما أنّه قد نجد فتاوى تستند إلى استنباطه واجتهاده الخاص، كما يشهد له ما رواه ابن مسكان قال: «تدارأنا - أي تناظرنا - عند زرارة في شيء من أمور الحلال والحرام، فقال قولاً برأيه، فقلت: أبرأيك هذا أم برواية؟ فقال: إنّي أعرف، أوّليس رُب رأي خير من أثر؟!»[1].

وكان إلى جانب ذلك ملماً بأقوال العامة، مطلعاً على آرائهم، مناقشاً لها، راداً عليها بالحجة والدليل.

وليس بأيدينا معلومات كاملة عن حياته وآثاره الفقهية، ولكن حسب تتبع الروايات توجد رواياته وآراؤه المتناثرة في شتات أبواب الفقه، فله فتاوى في أبواب الحج والجعالة والمباراة والظهار والإرث وغيرها[2].

وبصورة عامة آل أعين وكل أبنائهم كانوا ممن أسهم في نشر فكر أهل البيت

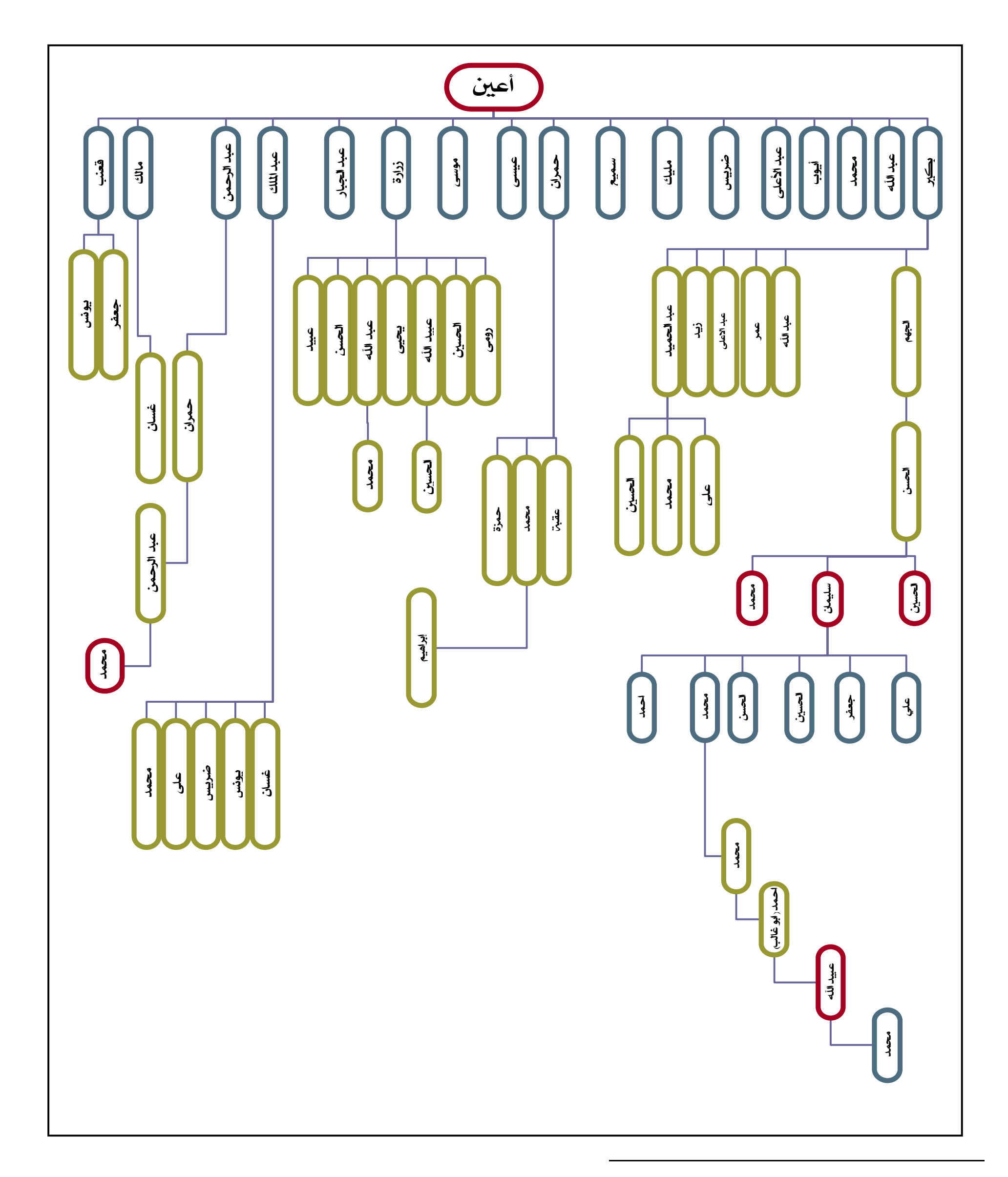
→ ٣٤٥/١.

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١٨، ص ١٩٨، نقلاً عن اختيار معرفة الرجال: ٣٧٣/١.

(٢) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١٨، ص ١٩٨، نقلاً عن الوسائل: ٤٧٥/١.

ومدرستهم وفي ما يلي مشجر لأسماء آل أعين في كتب الأنساب والرجال(١):

مشجر لأسماء آل أعين مذكور في كتب الأنساب والرجال.



(١) أنظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامي ص ١١٢.

الأنموذج الثاني: محمد بن مسلم (ت/١٥٠هـ)

وهو من أعاظم فقهاء الشيعة، وقد حفظ عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام آلاف الأحاديث وكان ذا فكر ثاقب ولسان سؤول، فقد روى الكشي في رجاله عنه قوله: «ما شجر في رأيي شيء قط إلا سألت عنه أبا جعفر حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت أبا عبد الله عن ستة عشر ألف حديث»[(١)]. وذكر له النجاشي كتاباً باسم الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام.

دوره العلمي والفقهي

لا يشك أحد في أنّ كثيراً من أصحاب الأئمة عليهم السلام سيما المبرزين منهم لم تتلخص وظيفتهم في نقل الأخبار والآثار فحسب، وإن كانت تلك المسؤولية بمكانة من الخطورة والأهمية، بل إنّ ثمّة مسؤولية علمية أكبر قد أُنيطت بهم، وهي عبارة عن عملية الاجتهاد والاستنباط، وقد كان الأئمة عليهم السلام يولون أهمية خاصة لهذا الجانب باعتباره الضمان الوحيد لديمومة حركة الفقه ونموّها في المنظور القريب والبعيد، ولذا تصدّوا للقيام بإعداد أصحابهم وتدريبهم على مبادئ الاستنباط لإتقانها أولاً وإعمالها بالإفادة منها فيما لو أعوزهم النص وقصروا عن الوصول إلى المعصوم عليه السلام، وقد رسموا عليهم السلام خطوطاً عريضة ومحاور رئيسة مثّلت دورهم في ترشيد حركة الاجتهاد وتنمية الخبرة لدى أصحابهم وذلك عبر:

١ - بيان القواعد العامة.

٢ - تقنين عملية الاستنباط وضبط أدلّتها.

---

(١) مصادر السنة الشريفة: ص٢٧،. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١١٧.

٣ - تبني المنهج التطبيقي للممارسة الاجتهادية.

٤ - تحصين حركة الفقه من الأخطار والمزالق المحدقة بها على أرض الواقع.

٥ - رفد الساحة العلمية بالعطاء العلمي بمختلف أشكاله.

وقد أثمر هذا المنهج العلمي الذي أرسى اُسّه الأئمة الطاهرون عليهم السلام في تلك المدرسة العملاقة التي احتضنت أولئك الصفوة من الفقهاء الذين ساروا طبقاً للمنهج المرسوم ولم يعدلوا عنه قيد أُنملة.. ومن أُولئك الصفوة بل هو صفوة الصفوة فقيهنا الكبير محمد بن مسلم وقد نما دوره العلمي والفقهي من خلال الأمور التالية:

أ - ملازمته للإمامين الصادقين عليهما السلام

لقد استمرت صلته بهما عليهما السلام عدّة عقود من الزمن كان ملازماً فيها أو متردداً عليهما عليهما السلام قاصداً لهما في الكوفة، وقد أشارت بعض النصوص إلى إقامته في بعض أسفاره في المدينة أربع سنوات متتابعة، ملازماً فيها للإمام الباقر عليه السلام يسأله، ثمّ كان يدخل على ولده الصادق عليه السلام يسأله. تلك المدّة قد أهلته للأخذ بقسط وافر من العلم ووفّرت له فرصة تحمّل كماً هائماً من الأخبار والروايات.

ب - رعاية الأئمة عليهم السلام لشخصه

إنّ لتعاهد الأئمة عليهم السلام لأمره ورعايتهم العلمية والعاطفية والتربوية أثراً بالغاً في إعداده العلمي.

والأهم من ذلك هو رعايته العلمية بتفقيهه في الدين وكان لذلك صور وحالات:

١ - المبادرة إلى تحديثه وتعليمه من دون ابتداء في المسألة.

٢ - تدريبه على الاستدلال وكيفية الاستنباط.

٣ - اطلاعه على كتبهم الخاصة التي كانوا يطلعون عليها الخواص من أصحابهم، ككتاب علي عليه السلام.

٤ - حثهم له على طلب العلم وعدم التفريط بذلك.

ج - كثرة مراجعاته وأسئلته منهم عليهم السلام

لقد اعتمد محمد بن مسلم السؤال طريقاً ومنهجاً لتنمية قابلياته العلمية وتطويرها، وكان لهذا الأمر أثره في إثراء معلوماته وتعميقها.

وكان له روايات في جميع أبواب الكتب الفقهية حيث إنّه له ما يزيد على (٤٦) ألف حديث ومسألة في الفقه[١].

مما يعني استيعابه لجميع الأبواب الفقهية بكل فروعها وتشققاتها.

الأنموذج الثالث: أبان بن تغلب (ت/١٤٧هـ)

وهو ممن أخذ الفقه عن الأئمة: السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام، وقال له الإمام الباقر: «اجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس؟ فإني أُحبّ أن يرى في شيعتي مثلك»، وهو أول من صنف في غريب القرآن[٢].

---

(١) انظر بحث محمد بن مسلم: للخزرجي، مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢٤، ص٢٣٣.

(٢) المصدر السابق.

دور أبان بن تغلب العلمي والفقهي

لقد تركز الدور العلمي لأبان بن تغلب بين التأليف والتدريس وإعداد الكادر العلمي وعقد جلسات المناظرة والبحث العلمي المنفتح على المذاهب والمدارس الإسلامية الأُخرى؛ ولذا أطبقت كلمة العلماء الذين تعرضوا لشخصية أبان وحياته في جامعيتها وتعدد أبعادها ومشاركتها في جملة من العلوم، بل وتصدّرها في تلك العلوم.

قال النجاشي: «وكان أبان رحمه الله مقدماً في كلّ فنّ من العلم في القرآن والفقه والحديث والأدب واللغة والنحو» (١).

إنّ من مفاصل النشاط العلمي لأبان بن تغلب هو التأليف والتصنيف، والواصل إلينا من عناوين كتبه التي نستبعد أن تكون على وجه الحصر سيما من فقيه وعالم مثله هو(٣٣) مصنفاً منها (٢):

١ - كتاب معاني القرآن، وصفه ابن النديم وغيره أنّه لطيف.

٢ - كتاب غريب القرآن.

٣ - كتاب القراءات.

٤ - كتاب الفضائل.

٥ - كتاب صفين.

٦ - أصل له، وهو في الحديث، قال عنه ابن النديم: «كتاب من الأصول في الرواية على مذهب الشيعة».

---

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣٠، ص ٢٦٩، نقلاً عن رجال النجاشي: ١١.

(٢) المصدر السابق.

وإنّ الفترة التي أدرك من خلالها أبان بن تغلب الأئمة الثلاثة من أهل البيت عليهم السلام قد أهّلته وبأعلى المستويات للتتلمذ على أيديهم وتحمّل علومهم وأداء رسالته على أكمل وجه. وكان أوّل من لقيه منهم عليهم السلام هو الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام ثم ولده الإمام الباقر وحفيده الإمام الصادق عليهما السلام وقد كانت تلك الفترة - سيّما في عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فترة متميّزة وفريدة في مجمل التأريخ الإسلامي وخاصة في تاريخ مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث دبّت الحركة العلمية في الحواضر الإسلامية الكبرى وراج للعلم سوق كبير وكان العلم هو الأساس في التفاضل والترجيح، وقد انبرى في هذا الميدان كوكبة كبيرة من روّاد العلم في شتى المجالات والفنون يأتي في مقدمتها أبان بن تغلب الذي استوعب كثيراً من علوم الأئمة عليهم السلام في الفقه والحديث والتفسير.

ويعتبر الدور الفقهي من أبرز وأجلى المعالم في شخصية أبان العلمية، حيث برع في هذا المجال إلى حدّ التصدّي للإفتاء في أكثر المراكز العلمية أهمية وحساسية وهو المدينة المنوّرة وخاصة في المسجد النبوي الشريف وبأمر من الإمام الباقر عليه السلام عندما قال له: «اجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس؛ فإنّي أُحب أن يرى في شيعتي مثلك»[1].

وكان الإمام الصادق عليه السلام يحثه على مجالسة أهل المدينة والحضور في أنديتهم العلمية قائلاً له: «جالس أهل المدينة، فإنّي أُحب أن يروا في شيعتنا مثلك»[2]. وقوله عليه السلام له: «يا أبان، ناظر أهل المدينة؛ فإني أُحب أن يكون

(١) الفهرست: ١٧ نقلاً عن مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣٠، ص ٢٧٠.

(٢) اختيار معرفة الرجال٦٢٢ : ٢ نقلاً عن مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد٣٠، ص٢٧١.

مثلك من رواتي ورجالي»(١).

وتستوقفنا هذه الأوامر والتوصيات الصادرة عنهم عليهم السلام للإشارة إلى أمور عدّة:

١ - الاعتراف الواضح والصريح بجدارة أبان العلمية وأهليته للتصدي العلمي سيما على مستوى الإفتاء الخطير.

٢ - التأكيد على هذا التصدي في مثل المدينة المنوّرة؛ الأمر الذي يستبطن دلالة قوية على أهمية المدينة وثقلها العلمي، حيث كان فيها بقايا الصحابة وجملة التابعين والفقهاء وأئمة المذاهب وأرباب الحديث، ومنها انتشر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت موضع اهتمام أهل البيت عليهم السلام قبل أي مركز آخر حتى الكوفة، ولعلّ في أمرهم عليهم السلام لأبان بالتصدي في المدينة وعدم طلبهم منه ذلك في الكوفة ما يشير إلى شخصيته العلمية والفقهية، ومن ذلك يظهر خطورة التصدي في مثل هذا المركز الحسّاس.

٣ - إنّ الأمر بالتصدي للإفتاء في المسجد النبوي مما لم يرد نقله بشأن أي واحد من أصحاب الأئمة عليهم السلام وتلامذتهم مع كثرتهم وتقدمهم في كثير من العلوم؛ مما يدلّ على المكانة الخاصة لأبان عندهم عليهم السلام.

ولم تقتصر براعة أبان في الفقه على مذهب أهل البيت عليهم السلام فحسب بل تخطّته إلى سائر المذاهب الأخرى، فقد كان فقيهاً مطلعاً على المذاهب والآراء وكان يُرجع إليه في ذلك مما يدلّ على موقعه العلمي الرفيع والمعترف به لدى المسلمين كافّة.

---

(١) خلاصة الأقوال: ٢١ نقلاً عن مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣٠، ص ٢٧١.

وهذا مما يعكسه قوله للإمام الصادق عليه السلام: «إني أقعد في المسجد فيجيؤني الناس يسألوني، فإن لم أُجبهم لم يقبلوا منّي... فقال له: «انظر ما علمت أنّه من قولهم فأخبرهم بذلك»[١].

ومن هنا فقد كان الكيان العلمي للمجتمع المدني ينظر نظرة خاصة ومتميزّة لأبان، سيّما عند قومه إليها، فقد نقل مترجموه أنّه كان إذا قدم المدينة تقوّضت (أي تفرّقت) إليه الحَلَق وأُخليت له سارية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي اسطوانته التي كان يعتمد عليها صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحقيقة فإنّ مثل هذه الموقعية العلمية المتميّزة نالها أبان كنتيجة طبيعية لتعاطيه وتفاعله مع الجو العلمي العام الذي كان سائداً آنذاك؛ حيث أمره الإمام الصادق عليه السلام بالتجاذب والتعاطي معه من خلال المشاركة في أنديته ومجالسه العلمية التي كانت تعقد، وعدم الانطواء والعزلة عن الناس؛ لأنّ مثل ذلك كفيل بتطويق الحركة العلمية وتحديدها، سيّما وأنّ مذهباً كمذهب الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام جدير بالنشر والأخذ به والاطلاع عليه لما يمثّله من الأصالة والعمق؛ باعتبار أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم العلماء الصادقون فيما ينقلونه من سنّة جدهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا نجد أنّ أبان بن تغلب قد امتثل هذه التوصية وطبقها في مجمل نشاطه العلمي المنفتح على الآخرين فيما يرويه عنهم ويروونه عنه، فقد روى عن كثير من التابعين وبعض الصحابة وغيرهم كمالك بن أنس وإبراهيم النخعي

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٦٢٢ نقلاً عن مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣٠، ص٢٧٢.

وعكرمة وغيرهم؛ ولذا فإنّ روايته جاءت لتدخل الكثير من الصحاح والسنن وكتب الرواية لدى جمهور المسلمين، وترجم له أرباب السير والتراجم وأثنوا عليه.

ومن جهة أخرى فقد دعم الإمام الباقر والصادق عليهما السلام الموقع العلمي الذي اضطلع به أبان في المدينة، كما دعموا مرجعيته العلمية في مجتمعه في الكوفة، حيث كانوا يرجعون إليه كبار الرواة والفقهاء أمثال أبان بن عثمان الذي عدّ من الفقهاء الستّة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم والإقرار لهم بالفقه من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام [١].

روى أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «إنّ أبان بن تغلب روى عنّي ثلاثين ألف حديث فاروِها عنه»[٢].

وغير هؤلاء النماذج آلاف مؤلفة من أصحاب الإمامين فيمن تتلمذ وتعلم منهم وتربى على أيديهم.

المجال الثاني: التربية

لقد دأبت مدرسة الإمامين الصادقين عليهما السلام منذ نشوئها في المدينة على تربية تلاميذ وإعداد شخصيات مؤهلة تمتاز بنضجها العلمي، وتتمتع بالقابليات العلمية التي تؤهلها لتمثيل هذه المدرسة في شتى أقطار العالم الإسلامي. وإثراء المدرسة بالمتخصصين في حقول المعرفة، وقد نبغ من تلك المدرسة نفر من أعلامها وروّادها في علوم متعددة ومجالات متفاوتة كل حسب اختصاصه واهتمامه؛ فبرز في التفسير وعلوم القرآن حُمران بن أعين، وفي الإمامة هشام بن الحكم، وفي التوحيد هشام بن

(١) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣٠، ص ٢٧٣.

(٢) رجال النجاشي: ١٢.

سالم، وفي الفقه والحديث محمد بن مسلم وبريد العجلي وأبان بن تغلب وزرارة بن أعين وغيرهم، وفي العلوم الطبيعية جابر بن حيان.

ويدل على هذا التقسيم ما رواه الكشي في مناظرة الرجل الشامي الذي قصد الإمام الصادق عليه السلام للمناظرة فلم يناظره الإمام، وإنما أمر تلامذته وأصحابه بذلك؛ فناظره حمران بن أعين في القرآن، وأبان بن تغلب في العربية، وزرارة في الفقه، وهشام بن الحكم في الإمامة، ومؤمن الطاق في الكلام، وهشام ابن سالم في التوحيد، والطيار في الاستطاعة، وقد كانت المناظرة بإشراف الإمام عليه السلام في انتخاب الأفراد لكل علم أراد الشامي المناظرة فيه[(١)].

فكرة موجزة عن طرق الصادقين عليهما السلام في إعداد الشخصيات العلمية

كانت طرق الصادقين عليهما السلام في إعداد الشخصيات العلمية تتلخص بالتالي:

١ - التمرين: سواء في الرواية أو الفقه أو أصول الفقه وغيرها.

٢ - التأليف: في مختلف الأبواب والكتب.

٣ - التوثيق: سواء في توثيق الراوي أو توثيق الفقيه.

الطريق الأول: التمرين

وهو التدريب على خلق القدرة العلمية على الاستقراء والاستنتاج ففي مجال الفقه كانا عليهما السلام يزودان من يريان إعداده لهذا بالقواعد العامة ويأمرانه بالتفريع على القاعدة، وبتطبيقها على مواردها.

---

(١) مجلة فقه أهل البيت، العدد١٧، الطبعة الثانية، السنة ١٤٢١هـ، ص٢٣٦.

وقد ذكر الأميني ما روى ابن إدريس الحلي في أواخر (السرائر) نقلاً عن كتاب هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنما علينا أن نلقي إليكم الأصول، وعليكم التفرع»(١).

ومن هذه الأصول أو القواعد العامة:

الأول: في الرواية

١ - عن محمد بن مسلم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك، فأزيد، وأنقص. قال: إن كنت تريد معانيه فلا بأس.

٢ - عن زرارة، قال: يأتي عنكم الخبر والخبران - أو الحديثان - المتعارضان فبأيهما نأخذ؟ قال: خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر. قلت: فإنهما معاً مشهوران. قال: خذ بأعدلهما عندك، وأورثهما في نفسك. فاستفاد الفقهاء من الرواية الأولى جواز نقل الحديث بالمعنى ومن الرواية الثانية المرجحات بين الخبرين المتعارضين(٢).

الثاني: في الفقه

١ - عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: لا تعاد الصلاة إلا من خمس: الطهور والوقت والقبلة والركوع والسجود. ثم قال: القراءة سنة، والتشهد سنة ولا تنقض السنةُ الفريضة.

٢ - عن إسماعيل بن جابر، قال: «قال أبو جعفر عليه السلام: إن شك في

---

(١) أعيان الشيعة: ١/١٠٤.

(٢) قواعد أصول الفقه على مذهب الإمامية ـ لجنة تأليف القواعد الفقهية والأصولية ـ المجمع العالمي لأهل البيت ـ ط١، سنة الطبع ١٤٢٣، القاعدة ٧٥، ص٤٤٢.

الركوع بعد ما سجد فليمض، وإن شك في السجود بعد ما قام فليمضِ. كل شيء فيه مما قد جاوزه ودخل في غيره فليمضِ عليه».

٣ - عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال عليه السلام: كل ما شككت فيه مما قد مضى فامضه كما هو.

٤ - عن عمار، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا عمار أجمعُ لك السهو كله في كلمتين: متى شككت فخذ بالأكثر، فإذا سلمت فأتمّ ما ظننت أنّك نقصت.

٥ - عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن الأحكام. قال عليه السلام يجوز على أهل كل ذي دين ما يستحلون.

٦ - عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كل شيء فيه حلال وحرام، فهو لك حلال حتى تعرف الحرام منه بعينه، فتدعه».

٧ - عن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، قال: المسلمون عند شروطهم، ألا كل شرط خالف كتاب الله عزّوجلّ فلا يجوز.

فمن الرواية الأولى أفاد الفقهاء (قاعدة لا تعاد). ومن الرواية الثانية والثالثة (قاعدة التجاوز)، ومن الرابعة(قاعدة البناء على الأكثر) عند الشك في عدد الركعات لمن كان شكه في الرباعية الواجبة بعد إكمال السجدتين من الركعة الثانية. ومن الخامسة (قاعدة الإلزام)، ومن السادسة (قاعدة الحل) في المشتبه مع عدم العلم. ومن السابعة (قاعدة المؤمنون عند شروطهم) [١].

---

(١) القواعد الفقهية، وحدة تأليف الكتب الدراسية ـ المنظمة العالمية للحوزات والمدارس العلمية، ط٢، م باقري، سنة ١٤٢٥هـ، ص،٥١، ٨٥، ٨٩، ١١١، ٢٣١.

الثالث: في أصول الفقه

عن زرارة قال: قلت له: الرجل ينام، وهو على وضوء، أتوجب الخفقة والخفقتان عليه الوضوء؟ فقال: يا زرارة قد تنام العين ولا ينام القلب والأذن، فإذا نامت العين والأذن والقلب وجب الوضوء. قلت: فإن حرّك على جنبه شيء، ولم يعلم به؟ قال: لا، حتى يستيقن أنه قد نام، حتى يجيء من ذلك أمر بيّن، وإلا، فإنه على يقين من وضوئه.. ولا تنقض اليقين أبداً بالشك، وإنما تنقضه بيقين آخر.

أفاد الفقهاء من هذه الرواية وأمثالها (قاعدة الاستصحاب)[1].

وأما في مجال (الفلسفة وعلم الكلام) فقد كان الإمام الصادق مؤسس مدرسة الفلسفة الإسلامية وقد تخرج من مدرسته عظماء الفلسفة والكلام الإسلاميين، وكبراء المنظرين وذوي الرأي أمثال: هشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم وكان لهم مؤلفات كثيرة يذكرها الأصحاب في كتبهم. وفي العلوم الطبيعية فقد اشتهر (جابر بن حيان الكوفي) الذي دون محاضرات الإمام الصادق عليه السلام في علمي الكيمياء والطب في خمسمائة رسالة. وغيرهم أيضاً كثير.

الطريق الثاني: التأليف

فقد نشطت حركة التأليف في هذا العصر نشاطاً كبيراً بفضل تربية وتشجيع الإمامين الصادقين عليهما السلام، وشمل ما كتب في هذا العصر من مؤلفات كافة حقول المعرفة الإنسانية من الفقه وعلوم لغوية وشرعية وطبيعية وغيرها كما كان معروفاً آنذاك ونلمس هذا في ما ذكره المفهرسون لكتب الشيعة كالشيخ الطوسي

---

(١) قواعد أصول الفقه على مذهب الإمامية قاعدة ٧١، ص٢٣١.

والشيخ النجاشي اللذين تجاوز في قوائمهما ذكر وعناوين الكتب الشيعية في هذا العصر المئات وقد ذكرنا قليلاً جداً منها في ما مر.

الطريق الثالث: التوثيق

الأول: توثيق الراوي: الذي يعني الشهادة له بأنه في المستوى الموثوق به تديناً وعلماً فينبغي الرجوع إليه. وهذا كما هو معلوم حافز تربوي قوي يدفع وباعتزاز إلى الإهتمام في مجال الرواية للأخذ من الإمام وإيصال الفائدة لأتباعه وشيعته.

ومن الوثائق التي تؤيد ذلك ما جاء في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي، من أن مسلمة بن أبي حبيبة قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، في خدمته، فلما أردت أن أفارقه، ودعته، وقلت: أحب أن تزودني، قال: (إئتِ أبان بن تغلب، فإنه قد سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك عني فاروه عني).

الثاني: توثيق الفقيه: الذي يعني الشهادة له بالفقاهة وجواز الإفتاء. وهذا بدوره عامل قوي أيضاً في التحفيز على الاهتمام بالفقه والاجتهاد به، وأفادة الناس منه، ومن الشواهد عليه ما جاء في ترجمة - أبان بن تغلب الكوفي - من أن الإمام الباقر عليه السلام قال له: «**اجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس، فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك**».

وقد اتضح كيف أن الإمامين الصادقين عليهما السلام عملا وبكل جدية واستمرارية على تكوين جيل من الفقهاء يحمل الرسالة ويقوم بالدعوة، ويجتهد ليفتي. فكان من هذا أن انبثقت في الوسط العلمي والاجتماعي الشيعي ما سمي بالفقهاء الرواة، وذلك لاعتمادهم على الرواية وقد انقسم منهجهم في مجال

الاجتهاد والإفتاء كالتالي:

١ - فهم دلالة النص فيما روي فيه نص خاص.

٢ - الإفتاء بالمروي الذي استفيد منه الحكم بنفس صيغته وألفاظه.

٣ - تطبيق القاعدة على موردها فيما لا نص خاصاً فيه.

أبرز الفقهاء من أصحاب الأئمة عليهم السلام في هذا العصر

ذكر أبو عمرو الكشي اثني عشر فقيهاً من فقهاء هذا العصر، وهم:

١ - زرارة بن أعين الكوفي.

٢ - معروف بن خربوذ العجلي.

٣ - بريد بن معاوية العجلي.

٤ - أبو بصير يحيى بن أبي القاسم الأسدي.

٥ - الفضيل بن يسار النهدي البصري.

٦ - محمد بن مسلم الثقفي الطائفي الكوفي.

٧ - جميل بن دراج النخعي.

٨ - عبد الله بن مسكان الكوفي.

٩ - عبد الله بن بكير الكوفي.

١٠ - حماد بن عيسى الجهني البصري.

١١ - حماد بن عثمان الرؤاسي الكوفي المعروف بـ(حماد الناب).

١٢ - أبان بن عثمان الأحمر البجلي.

قال (الكشي فيما نقله عنه الأمين في أعيان الشيعة ١٤٣/١): «تسمية الفقهاء من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: أجمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، وانقادوا لهم بالفقه، فقالوا: أفقه الأولين ستة: زرارة ومعروف بن خربوذ وبريد وأبو بصير الأسدي والفضيل بن يسار ومحمد بن مسلم الطائفي. قالوا: وأفقه الستة زرارة. وقال بعضهم: مكان أبي بصير الأسدي أبو بصير المرادي وهو ليث ابن البختري. ثم قال: تسمية الفقهاء من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام: أجمعت العصابة على تصحيح ما صح عن هؤلاء، وتصديقهم بما يقولون، وأقروا لهم بالفقه من دون أولئك الستة الذين عددناهم وسميناهم، وهم ستة نفر: جميل ابن دراج وعبد الله بن مُسكان وعبد الله بن بكير وحماد بن عيسى وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان. قالوا: وزعم أبو إسحاق الفقيه - وهو ثعلبة بن ميمون - أن أفقه هؤلاء جميل بن دراج، وهم أصحاب أبي عبد الله»(١).

وهناك فقهاء رواة كثيرون من هذه المدرسة غير هؤلاء الذين ذكرناهم، أمثال أبان بن تغلب وغيرهم.

تصدي أهل البيت عليهم السلام لمدرسة اجتهاد الرأي والقياس:

لقد تصدى فقهاء الإمامية لمدرسة اجتهاد الرأي والقياس وتصدوا للاجتهاد بالمعنى الأول - أي اجتهاد الرأي - وذلك تبعاً لموقف أئمة أهل البيت فقد وردت أحاديث كثيرة ومستفيضة تؤكد على تحريم أعمال الرأي والترجيح الشخصي، وتقول إنّ المصالح والمفاسد وملاكات الأحكام لا تصاب بالعقول وإن الدين إذا

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة: ١ /١٤٣.

قيس محق، فتجد أهل البيت عليهم السلام أوّل من تصدى لهذه الظاهرة وذلك من خلال الأمور التالية:

الأمر الأول: نقلوا عن جدهم روايات تؤكد النهي عن ذلك، ومنها روايات تحرم الرجوع إلى الرأي سواء في الأحكام أو في التفسير للقرآن، وأن من يفعل ذلك فليتبوأ مقعده من النار[١]، ومنها أن دين الله لا يُصاب بالعقول[٢]، ومنها أن السنّة إذا قيست محق الدين[٣]. وقد وردت مناقشات متعددة بهذا الخصوص من قبل الأئمة مع زعماء باقي المدارس أمثال أبي حنيفة النعمان، ومنها مناقشة الإمام الصادق عليه السلام له حيث قال في يوم لأبي حنيفة: «أيّما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟ قال: بل القتل فقال عليه السلام: فكيف رضي في القتل بشاهدين ولم يرض في الزنا إلاّ بأربعة؟ قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل، قال عليه السلام فيجب على قياسك قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام وقد أوجب الله عليها قضاء الصوم دون الصلاة.

ثم قال له: البول أقذر أم المني؟ فقال: البول أقذر فقال: يجب على قياسك أن يجب الغَسل من البول دون المني وقد أوجب الله تعالى الغُسل من المني دون البول... إلى أن قال عليه السلام: تزعم أنّك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه وتزعم أنّك صاحب قياس وأوّل من قاس إبليس ولم يبنَ دين الله على القياس»[٤].

---

(١) انظر: من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق ٤: ٣٦٤.

(٢) المستدرك ١٧، ٢٦٢، ب٦ من صفاة القاضي، ح٢٥.

(٣) وسائل الشيعة ١٩: ٣٥٢، ب٤٤ من ديات الأعضاء، ح١.

(٤) راجع: دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي: باقر الايرواني، ج١، ص١٨. ونفس المصدر ←

وقال في حق الحكم بن عتيبة: «فليشرق الحكمُ وليغرِّب، أما والله لا يصيب العلم إلاّ من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل»[١].

الأمر الثاني: قام أهل البيت بالنكير والطعن على من كان يتهم الشريعة بالنقص أو يرى تصويب آراء القضاة والمفتين وذلك لأن الله أنزل القرآن الكريم وفيه تبيان لكل شيء حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } [٢] وقوله: { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ } [٣] وكذلك قوله تعالى الصريح باكتمال الشريعة: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا } [٤]، وقول الإمام الصادق عليه السلام: **(ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة)**[٥] وكان الصادق يصف كتاب الجامعة لجده أمير المؤمنين الذي كان بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول عليه السلام: **«فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخدش»**[٦]. وأيضاً صرح أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الثامنة عشرة في نهج البلاغة وذم اختلاف العلماء وتصويب كل مجتهد حيث قال: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك

←

السابق باب٦ من أبواب صفات القاضي، حديث ٢٨.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) الأنعام: ٣٨.

(٤) المائدة: ٣.

(٥) الكافي١: ٥٩.

(٦) الكافي١: ٦٢.

القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه؟! أم نهاهم عنه فعصوه؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟! أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه؟! والله سبحانه يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وفيه تبيان كل شيء وذكر أنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }[1]، وأنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلاّ به»[2].

وكان في عصر الإمامين الصادقين فقهاء الرأي ومدرسة اجتهاد الرأي والتي تصدى لها أئمة أهل البيت بصورة عامة والإمامان الصادقان بصورة خاصة وأكثر ما تجلى هذا التصدي الذي جعل هذه المدرسة تتراجع كثيراً عن أصولها أو جعل كثيراً منهم يخففون من اجتهاد الرأي ويرجعون إلى الحديث عندما كان الإمام يناظرهم في قياساتهم واجتهاداتهم لأنهم كانوا يعتمدون في استنباطهم الكتاب والسنة وآثار الصحابة من أقوال وأفعال والقياس والعرف فكانت مناظرات الأئمة والإمام الصادق خاصة مما حدّت وقلّلت من قياساتهم واجتهادات آرائهم ومنها ما نقله صاحب (كتاب الاحتجاج)[3] لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب

(١) النساء: ٨٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٨.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج: ٢ /٢٦٦.

الطبرسي: عن بشير بن يحيى العامري عن أبي ليلى، قال: دخلت أنا والنعمان أبو حنيفة على جعفر بن محمد عليه السلام، فرحب بنا.. فقال: يا ابن أبي ليلى من هذا الرجل؟

فقلت: جعلت فداك هذا رجل من أهل الكوفة، له رأي وبصيرة ونفاذ عقل. قال: فلعله الذي يقيس الأشياء برأيه. ثم قال: يا نعمان، هل تحسن أن تقيس رأسك: قال: لا. قال: ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً، ولا تهتدي إلا من عند غيرك، فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم؟ قال: لا.

قال: فهل عرفت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟ قال: لا.

قال: ابن أبي ليلى: فقلت: - جعلت فداك - لا تدعنا في عمياء مما وضعت لنا. قال: نعم، حدثني أبي، عن آبائي عليهم السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله خلق عيني ابن آدم شحمتين، فجعل فيهما الملوحة، فلو لا ذلك لذابتا، ولم يقع فيهما شيء من القذى إلاّ أذابهما، والملوحة تلفظ ما يقع في العينين من القذى. وجعل المرارة في الأذنين حجاباً للدماغ وليس من دابة تقع في الأذن إلا التسمت الخروج، ولو لا ذلك لوصلت إلى الدماغ. وجعل البرودة في المنخرين حجاباً للدماغ، ولولا ذلك لسال الدماغ. وجعل العذوبة في الفم مناً من الله تعالى على ابن آدم، ليجد لذة الطعام والشراب. وأما كلمة أولها كفر وآخرها إيمان فقول: (لا إله إلا الله)، أولها كفر، وآخرها إيمان. ثم قال: يا نعمان إياك والقياس، فإن أبي حدثني عن آبائه عليهم السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك

وتعالى مع إبليس في النار، فإنه أول من قاس، حيث قال: خلقتني من نار، وخلقته من طين. فدعو الرأي والقياس، إن دين الله لم يوضع على قياس[١].

ويبدو أن مراد الإمام الصادق عليه السلام من (القياس) القياس بمعناه العام وهو اجتهاد الرأي فيشمل القياس الفقهي، والاستحسان وكل ما تفرع من الرأي من قواعد[٢].

خلاصة النتائج في هذا العصر

١ - يعتبر هذا العصر عصر الانفراج والفسحة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وللفقه الإمامي التابع لمدرستهم. وعصر انتشار علومهم، واطلاع الناس على روايات عن النبي لم تكن معروفة من قبل أحد إلا لديهم.

٢ - ازداد في هذا العصر نسبة الرواة والرواية ارتفاعاً ملحوظاً لم يكن في كل العصور.

٣ - شهد هذا العصر توسعاً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مواد التعليم حيث أضافت مدرسة أهل البيت إلى العلوم الشرعية علوماً أخرى كالمعارف العقلية والطبيعيات والطب والعلوم الإنسانية وغيرها.

٤ - ازدياد نسبة المؤلفين ونسبة التوسع في محتويات المؤلفات وازداد أيضاً عدد الوافدين والتلاميذ من العلماء على أيدي الإمامين الصادقين بما لم يتهيأ لآبائهم ولا أبنائهم مثل ذلك.

٥ - بروز المناقشات والمناظرات بحرية تامة وعلى أعلى المستويات في طرح

---

(١) الاحتجاج: الطبرسي، ج٢ ص٢٦٦.

(٢) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، للفضلي، ص١٥٠.

الآراء ونقدها علمياً ووصل البحث إلى الاستقراء والاستظهار والاستنباط والعمق أكثر من ذي قبل وكان الطرح دائماً يؤكد على رفض اجتهاد الرأي والقياس والأخذ من آثار الصحابة إذا تعارضت مع سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٦ - وضعت أسس علمية رصينة في هذا العصر من قواعد سواء أصولية أو فقهية.

٧ - بروز رجال علماء شكلوا في الواقع اتجاهاً أو مدرسة للفقهاء الرواة، كزرارة ومحمد بن مسلم وأبان بن تغلب.

٨ - برزت الفلسفات الإسلامية والمدارس الكلامية.

٩ - بروز شخصيات علمية متخصصة بالفقه واللغة والكلام والطب والكيمياء والقرآن وغيرها.

١٠ - بروز مجتمع الكوفة - بعوائله العلمية وأسره الفقهية التي ساهمت بانتشار مدرسة أهل البيت وانتشار السنة النبوية.

١١ - تطور الفقه الإمامي وارتقاؤه من المرحلة السابقة إلى هذه المرحلة المزدهرة.

المبحث الخامس: عصر الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام

ويمتد هذا العصر من سنة وفاة الإمام الصادق عليه السلام سنة ١٤٨هـ، إلى سنة وفاة الإمام الرضا عليه السلام سنة (٢٠٣هـ)[١].

وإن في هذا العصر جاء دور الإمامين الكاظمين استمراراً للمسيرة التي بدأت من زمن الرسول وتأكدت بعد انحراف الأمة عن خط الرسول بعد وفاته ونمت وتكامل بناء أسسها وقواعدها ومنهجها - أي مدرسة أهل البيت - القويم في زمن الإمامين الصادقين وإلى هذا العصر، عصر الكاظمين فهما أكدا على مواصلة الطريق، حيث تخرج من تحت منبريهما عدد من الفقهاء والعلماء بما مثّل المواصلة للفقهاء الرواة، كما أنهما أعطيا في النظرية والتطبيق ما ساعد في صياغة الكثير من القواعد العملية في مجال الاجتهاد الفقهي مما ساعد على دفع عجلة الفقه الإمامي بصورة عامة.

وبما أن عصر الصادقين كان عصر الانفراج والفسحة لمدرسة أهل البيت في

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ص١٦١.

أن تخرّج وتعطي وتنشر وتبث وتربي، توسع التشيع في انتشاره أرضاً ونفوساً بما تطلب أن تتوسع قيادة الأئمة في رعاية شؤون الشيعة واستمرار الطائفة والمذهب، فكثر السؤال الشرعي في قضايا الأصول والفروع أو العقيدة والنظام والسياسة وذلك عن طريق الإيفاد والمكاتبة، وذهب الشيعة في هذا العصر يجمعون الأموال والحقوق الشرعية واجبة كانت أو مستحبة وتبرعات، ويرسلونها إلى مقر القيادة المتمثلة بأئمتهم، وذلك مما أثار حفيظة الحكام العباسيين، وجعل هارون الرشيد يشخص الإمام الكاظم عليه السلام من المدينة المنورة إلى العراق ويحبسه في البصرة عند واليها عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي، وذلك في سنة ١٧٩هـ، ثم ينقله إلى سجن السندي بن شاهك في بغداد[١]، وبقي فيه حتى توفي مسموماً من قبل ابن شاهك سنة ١٨٣هـ[٢]. ومع هذا كان الشيعة علماء ووجهاء على اتصال مستمر بالإمام الكاظم عليه السلام، وهو في الحبس مواجهة ومكاتبة. وكذلك جعل هذا النشاط الشيعي المأمون العباسي يستدعي الإمام الرضا عليه السلام من المدينة المنورة إلى خراسان، وينصبه ولياً لعهده من غير رغبة منه في هذه الولاية، وذلك كي يجعله تحت رقابته ونصب عينه[٣].

ومع هذا التحجيم الذي قام به هارون ومن بعده ابنه المأمون بقي نشاط الإمامين الكاظمين في دعم مدرسة أهل البيت بمواصلة مسيرتها في مجال التشريع الإسلامي والفقه الإمامي مستمراً ومعطاءً، وإن كان عطاؤه يمد حيناً ويجزر حيناً آخر.

---

(١) تاريخ الإسلام: ج٣ ص٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص٨٨.

(٣) المصدر السابق: ١٦٩، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ١٦.

دراسة موجزة عن عطاء الإمامين عليهما السلام العلمي

تمثل هذا العطاء الزاخر بما يأتي:

الأوّل: الرواية.

الثاني: التدريس والمناظرة.

الثالث: التربية العلمية.

الرابع: التأليف.

الأول: الرواية

فقد روي عنهما أكثر مما روي عن الأئمة الثلاثة بعد عصر الإمام علي عليه السلام، وأكثر من الأئمة الثلاثة بعد عصرهما، يعني أن الرواية عنهما من حيث عدد المرويات وعدد الرواة تأتي بعد عصر الإمام علي والإمامين الصادقين عليهم السلام، فقد بلغ عدد الرواة عنهما ٥٨٩ راوياً.

الثاني: التدريس والمناظرة

كان كل واحد من الإمامين الكاظمين عليهما السلام عندما كانا في المدينة المنورة يتخذ من المسجد النبوي الشريف مركزاً لتدريسه، وكذلك من بيته، تماماً كما كان الأمر في العصور السابقة على عصرهما. روي عن الحاكم النيسابوري أنه قال في كتابه (تاريخ نيسابور): إنّ الإمام الرضا عليه السلام: «كان يفتي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن نيف وعشرين سنة»[١].

وفي مرو عاصمة خراسان كانت مدرسة الإمام الرضا في بيته، وفي المجالس

(١) أعيان الشيعة: ١/١٠١.

التي يعقدها له المأمون لمناظرة العلماء، فعن أبي الصلت الهروي، قال: «ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي. ولقد جمع المأمون في مجلس له عدداً من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلاّ أقرّ له بالفضل، وأقرّ على نفسه بالقصور»[١].

الثالث: التربية العلمية

وقد سجل تاريخ الرجال عدداً كبيراً من أسمائهم - العلماء الفقهاء الذين تخرجوا على يدي الإمامين الكاظمين - ومن أبرزهم: الرواة الذين أجمع الأصحاب على فقاهتهم وتوثيقهم وهم الذين ذكرهم الكشي في رجاله حيث قال: «تسمية الفقهاء من أصحاب أبي إبراهيم (الكاظم عليه السلام) وأبي الحسن (الرضا عليه السلام): اجتمع (أو أجمع) أصحابنا على تصحيح ما يصح عن هؤلاء وتصديقهم، وأقروا لهم بالفقه والعلم، وهم ستة نفر آخر، دون الستة النفر الذين ذكرناهم في أصحاب أبي عبد الله (الصادق عليه السلام). منهم يونس بن عبد الرحمن، وصفوان بن يحيى بيّاع السابري ومحمد بن أبي عمير وعبد الله بن المغيرة والحسن بن محبوب، وأحمد بن محمد بن أبي نصير، وقال بعضهم: مكان الحسن ابن محبوب الحسن بن علي بن فضال وقال بعضهم: مكان فضالة: عثمان بن عيسى. وأفقه هؤلاء: يونس بن عبد الرحمن وصفوان بن يحيى»[٢]. وقال المامقاني في تنقيح المقال (٧٥٧/٣): إنّه (يونس بن عبد الرحمن) خاصة الخاصة، أجمعت

---

(١) تاريخ الإسلام: ج٣، ص١٠٧، ١٨٢.

(٢) انظر: معالم المدرستين، العسكري، ج٣، ص٢٩٨، وأدوار الفقه الإمامي للسبحاني، ص٤٧، ٥ ومصادر السنة الشريفة، ص٣١، وتاريخ التشريع الإسلامي للفضلي، ص١٦٠.

العصابة على تصحيح ما يصح عنه، والإقرار له بالفقه في آخرين». وهؤلاء هم أهم أعلام الفقهاء الرواة في هذا العصر الشريف ويونس بن عبد الرحمن مولى لعلي بن يقطين (تـ٢٠٨هـ). قال النجاشي في (الرجال ٢/٤٢٠): «كان وجهاً في أصحابنا، مقدماً عظيم المنزلة، ولد في أيام هشام بن عبد الملك، ورأى جعفر بن محمد عليه السلام بين الصفا والمروة، ولم يروِ عنه. وروى عن أبي الحسن موسى، والرضا عليهما السلام وكان الرضا يشير إليه في العلم والفتيا».

وقد سأل عبد العزيز بن المهتدي الرضا فقال: إني لا أقدر على لقائك في كل وقت فعمن آخذ معالم ديني؟ (فقال): «خذ عن يونس بن عبد الرحمن» هذه منزلة عظيمة وغيرهم كثيرون.

الدور العلمي والفقهي ليونس بن عبد الرحمن كنموذج

إنّ الملاحظ للأخبار الواردة في شأن يونس بن عبد الرحمن يدرك بوضوح ما كان يتمتع به من منزلة علمية رفيعة ومرموقة ميّزته عن باقي أقرانه من أصحاب الأئمة عليهم السلام على ما تشير إليه عبارة الكشي الآتية.

وتشير بعض النصوص إلى أنّه كان صاحب مدرسة وله أتباع عرفوا بمتابعته والتتلمذ عليه حتى أنهم نسبوا إلى اسمه فيقال لبعضهم اليونسي كما في محمد بن عيسى ويحيى بن عمران الهمداني والعباس بن محمد الوراق، أو أنه من أصحاب يونس كما ورد في الخليل والد الفضل بن شاذان.

قال السمعاني: وأمّا اليونسيّة فطائفة من غلاة الشيعة نسبوا إلى يونس بن عبد الرحمن[1].

(١) أنظر اختيار معرفة الرجال ٢: ٧٧٩ ورجال الطوسي: ٤٣٥ ورجال النجاشي ٣٠٦ نقلاً عن ←

وقد كان الأئمة عليهم السلام يشيرون إلى فضله ومنزلته ويرجعون أصحابهم إليه تعويلاً على مقامه وقدرته العلمية.

فقد روى عبد العزيز بن المهتدي - وكان وكيلاً للرضا عليه السلام - وخاصته - أنّه سأل الإمام عليه السلام عمّن يأخذ معالم دينه إذا لم يقدر على لقائه، فقال: خذ عن يونس بن عبد الرحمن[1]، وهذه منزلة عظيمة كما يصفها النجاشي، وهي تستدعي التأمل من جهات:

الأولى: كون السائل من وكلاء الأئمة عليهم السلام وخاصتهم، ولم يكن شخصاً عادياً.

الثانية: إنّ السؤال لم يكن عن خصوص مسائل الحرام والحلال في الشريعة بل عن مطلق معالم الدين.

الثالثة: إنّ التعبير بـ(معالم الدين) له دلالته الخاصة، فليس السؤال عن مسائل متفرقة عن أمر الدين؛ بل عن معالمه؛ والخطير من مسائله فروعاً وأصولاً، مما لا يسوغ لكل أحد الخوض فيه والحديث عنه، سيما في تلك الفترة التي انتشرت فيها المذاهب والآراء.

لا شك أنّ هذه المنزلة إن لم نقل إنّها منقطعة النظير في أصحاب الأئمة عليهم السلام فهي نادرة وعزيزة لأنّها تعبّر عن مرجعية مطلقة منحها الإمام ليونس بن عبد الرحمن.

ولم تكن المنزلة لتخفى على أحد في الأوساط العلمية آنذاك، بل كانت

← مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢١، ص ٢١٦.

(١) المصدر السابق.

معروفة بين أصحاب الأئمة عليهم السلام، حتى أنّ الفضل بن شاذان - وهو من أصحاب الإمام الهادي والعسكري عليهما السلام - ارتفع به حيث جعله أفقه من نشأ في الإسلام في الناس بعد سلمان الفارسي، علماً بأنّ الفضل لم يرو عن يونس وإنّما روى والده عنه، والظاهر أنّ ذلك كان تأثراً بجلالة قدر يونس وآثاره العلمية. ويقال: انتهى علم الأئمة عليهم السلام إلى أربعة نفر وعدّ منهم يونس ابن عبد الرحمن. بل يكفينا ويغنينا عن ذلك كلّه قول الإمام الرضا عليه السلام في حقه: «يونس بن عبد الرحمن في زمانه كسلمان الفارسي في زمانه»[١].

وعدّه الكشي - على ما تقدم عنه - أفقه الستة من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام وفيهم من أمثال صفوان بن يحيى ومحمد بن أبي عمير.

وقد روى الكشي أنّه ألّف ألف جلد في الرد على المخالفين مما يعكس نشاطه العلمي وبخاصة الفقهي منه.

وعلى أي حال فإنّ الذي يظهر من مجموع هذه الشهادات والكلمات هو أنّ ليونس باعاً طويلاً وقدماً راسخة في الفقه حتى وإن كنّا لا نمتلك الكثير من الدلائل والتفاصيل المرتبطة بهذا البعد المهم من شخصيته، ومما يشهد على جلالة يونس ومكانته من الفقه أنّ محمد بن يعقوب الكليني عقد في الكافي بابين لكلام يونس، الأول في تفسير ما يحل من النكاح وما يحرم والفرق بين النكاح والسفاح والزنا. والثاني: باب العلة في أنّ السهام لا تكون أكثر من ستة.

وأمّا منهجه في الاستدلال والأدلة التي يعتمدها في ذلك فهي عبارة عن:

---

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٧٨١، ح ٩١٧ نقلاً عن مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢١، ص ٢١٧.

١ - اعتماد الكتاب والسنة مصدرين أساسيين في الاستدلال.

٢ - التحري والدقة في الأخذ بالأخبار، وعرضها على الكتاب فما وافقه منها أخذ به، وقد عُرف عنه التشدد في قبول الرواية مستنداً إلى ما رواه عن هشام ابن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام من عرض الأخبار على الكتاب، ولعلّ طعن القميّين عليه كان لأجل اجتهاده في الأخبار وقد كانوا لا يجيزونه كما استظهره المجلسي.

ولا شك أنّ يونس بن عبد الرحمن قد خلّف ثروة فقهية ضخمة من خلال تأليفاته الكثيرة وآرائه وفتاواه المبثوثة في لسان الأخبار وعند نقله الآثار، وقد كان قدماء الأصحاب في القرن الثالث يتداولون تراثه الفقهي ويعرضون بعض كتبه على الأئمة عليهم السلام، حتى وصلت كتبه إلى علماء القرن الرابع والخامس، فنقل عنها الشيخ الكليني في الكافي والشيخ الطوسي في التهذيب، وسوف نذكر كتبه في البحث التالي.

الرابع: التأليف

واستمراراً للنهضة التي قادها الإمامان الصادقان عليهما السلام نشطت حركت التأليف في أيام (الكاظمين) نشاطاً واسعاً وكثيراً وكانت في هذا العصر أوسع رقعة وأكثر عدداً ويرجع ذلك للحث والتأكيد الشديد من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام على تدوين العلم والكتابة والاهتمام بالعلم والتعلم بصورة عامة وكانت دوافع المؤلفين في هذا العصر مختلفة منها.

١ - الدافع الشرعي: وذلك إيماناً منهم بوجوب التفقه في الدين ونشره بين الناس، فكان التأليف والكتب من أهم الوسائل.

٢ - الدافع الحضاري: وهو اعتقادهم بلزوم نقل هذه الحضارة والثروة العلمية العظيمة إلى الأجيال المقبلة لمشاركتهم لهم فيها والحفاظ على الكيان العقائدي.

٣ - الدافع الاجتماعي: وهو الثبات وسط معترك الصراع الفكري المتمثل بصراع الحضارات الوافدة نتيجة كثرة الترجمة والتي أثرت في المذاهب الإسلامية الأخرى.

وكان أبرز المؤلفات في هذا العصر في مجال التشريع والفقه الإمامي هو كالتالي:

١ - مسند الإمام موسى بن جعفر: وقد ذكره الشيخ الطوسي في (الفهرست/١٩٥) راوي المسند وهو موسى بن إبراهيم المرزوي بعنوان (روايات يرويها عن الإمام موسى بن جعفر).

٢ - الجعفريات: وسمي بالجعفريات لاتصال سند روايته بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ويسمى (بالاشعثيات) لأنه برواية محمد بن محمد بن الأشعث الكوفي عن موسى بن إسماعيل عن أبيه إسماعيل بن موسى عن أبيه موسى بن جعفر الكاظم عن أبيه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ويشتمل على ألف حديث مبوبة بتبويب كتب الفقه وهو أكثر من سابقه الذي كان يشمل (٥٩) حديثاً رواها الإمام موسى الكاظم. والجعفريات في أصله مجموعة كتب جمعها في كتاب السيد الأجل إسماعيل بن الإمام الكاظم المتوفى سنة ٢١٠هـ وكلها يرويها عن أبيه الكاظم عليه السلام.

٣ - مسائل علي بن جعفر: التي رواها السيد الأجل علي بن الإمام جعفر

الصادق عليه السلام المعروف في كتب الحديث والرجال والفقه بـ(علي بن جعفر)، عن أخيه الإمام موسى الكاظم عليه السلام وكان من خواص أصحابه، وثقات رواة حديثه، ومن فقهاء الطائفة ومحدثيها الأجلاء.

وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست (١١٧ - ١١٨) قائلاً: «جليل القدر، ثقة، وله كتاب المناسك لأخيه موسى الكاظم عليه السلام سأله عنها». وقد طبع حديثاً بتحقيق وجمع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

٤ - مسند الإمام الرضا: ويعرف بـ(صحيفة الرضا) وبـ(الرضويات)، و(صحيفة أهل البيت) ويشتمل على ٢٤٠ حديثاً رواها عنه عليه السلام عبد الله ابن أحمد بن عامر الطائي، ورويت بعدة أسانيد. وطبع مستقلاً في إيران.

٥ - فقه الرضا: قال عنه الميرزا النوري في المستدرك (٣/٣٣٦): «وقف عليه الأصحاب في عصر المجلسيين، واختلفوا في صحته واعتباره وحجيته غاية الاختلاف، وصار معركة لآراء الناظرين وإنكار المتبحرين الناقدين فمنهم من صححه وجعله حجة، ومنهم من عده من الأخبار الضعاف المفتقرة إلى جابر ذي قوة وثالث، أخرجه من صنوف الأخبار وأدرجه في مؤلفات أصحابنا الأخيار ولهم في تحقيق الحق كلمات في رسائل منفردة وغيره منفردة».

٦ - حديث سلسلة الذهب: وهو الحديث الشريف الذي رواه الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن أجداده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كتبه من كان حاضراً من أهل الدوي والمحابر (وهم العلماء والفقهاء) ما يزيد على عشرين ألفاً وقيل أربعة وعشرون ألفاً.

ومن مؤلفات العلماء من أصحاب الإمامين الكاظمين في الفقه والحديث غير

ما ذكرناه سابقاً مؤلفات (يونس بن عبد الرحمن) وهي كثيرة منها: (كتاب الشرائع، وكتاب جوامع الآثار، الجامع الكبير في الفقه، كتاب الصلاة، وكتاب الوضوء، كتاب يوم وليلة، وكتاب السهو، كتاب الزكاة، كتاب اختلاف الحج، كتاب العلل الكبير، علل الحديث، الفرائض، الفرائض الصغير، الاحتجاج في الطلاق، كتاب التجارات، المزارعات، كتاب الآداب والدلالة على الخبر، علل النكاح وتحليل المتعة، كتاب البيوع، الديات، كتاب الحدود) وغيرها من الكتب وروى الشيخ المفيد من كتابه (مصابيح النور) بإسناده عن داود بن القاسم الجعفري، قال: «عرضت على أبي محمد صاحب العسكر عليه السلام كتاب يوم وليلة ليونس: فقال لي تصنيف من هذا؟ فقلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين. فقال: أعطاه الله بكل حرف نوراً يوم القيامة»[1].

وصفوان بن يحيى، صنف ثلاثين كتاباً كما ذكر الأصحاب منها (كتاب الوضوء، وكتاب الصلاة، والصوم، الحج، الزكاة، النكاح، الطلاق، وكتاب الفرائض، والوصايا، الشراء والبيع، العتق والتدبير، وكتاب البشارات، النوادر) وهذا ما ذكره النجاشي. والحسن بن محبوب قال الشيخ الطوسي في (الفهرست ٧٦): وله كتب كثيرة منها: (كتاب المشيخة، والحدود، والديات، كتاب الفرائض، النكاح، الطلاق، وكتاب النوادر نحو ألف ورقة). وعثمان بن عيسى الرؤاسي وله كتب كثيرة منها (كتاب المياه، وكتاب القضايا والأحكام وكتاب الوصايا وكتاب الصلاة). وزكريا بن آدم له كتاب مسائل الرضا. وعلي بن يقطين له كتاب باسم (كتاب المسائل). ومحمد بن أبي عمير: قال النجاشي «صنف محمد بن أبي عمير

(١) مجمع الرجال: ٦/٢٩٩.

أربعة وتسعين كتاباً»، منها (كتاب الحج، والمتعة ويوم وليلة، والصلاة، الصيام، وكتاب اختلاف الحديث، النكاح، الطلاق، الرضاع وكتاب مناسك الحج). ومحمد ابن عيسى اليقطيني روي عنه قال: (جمعت من مسائل أبي الحسن الرضا مما سئل عنه وأجاب فيه ثمانية عشر ألف مسألة أو خمسة عشر ألف مسألة).

خلاصة نتائج هذا العصر

١ - رجوع الاضطهاد والضغط في هذا العصر على أئمة أهل البيت وأتباعهم وشيعتهم وبخاصة أيام الإمام الكاظم عليه السلام.

٢ - ازدياد انتشار التشيع وازدياد عدد الشيعة وتوسعهم أرضاً وكياناً.

٣ - استمرار النشاط العلمي وفي كافة الحقول وعلى كافة الأصعدة من تربية وتعليم وتأليف ومناظرات.

٤ - استمرار الفقهاء الرواة في أتباع مدرسة أهل البيت في التدوين والتأليف وازدياد أعدادهم وتوفر كم هائل من التأليف في الفقه والحديث مما أدى إلى دعم حركة التطور الفقهي ودفع عجلته نحو الأمام وبصورة أكبر من ذي قبل.

المبحث السادس: عصر الأئمة الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام

وامتد هذا العصر من سنة ٢٠٣هـ إلى سنة ٢٦٠هـ، أي من حين وفاة الإمام الرضا إلى حين وفاة الإمام العسكري، وهو ابتداء الغيبة الصغرى آنذاك.

حيث كان مركز الإمام الجواد في المدينة المنورة حتى السنة التي توفي فيها أبوه الإمام الرضا عليه السلام وهي سنة ٢٠٣هـ حيث انتقل إلى بغداد بطلب من المأمون العباسي. فكان يمارس نشاطه في (المدينة) وفي (بغداد) تعليماً وإفتاء ورعاية لشؤون الشيعة، ولكن بين مد وجزر، بسبب ما فرضته عليه الخلافة العباسية من رقابة تشتد حيناً وتخف حيناً آخر.

وباعتبار أنّ مركز الأئمة عليهم السلام انتقل إلى العراق فصلنا عصر الأئمة عن عصر الإمام الكاظم والرضا عليهما السلام حتى تتضح الأمور أكثر.

وأما الإمام الهادي عليه السلام فكان مركزه في المدينة المنورة حتى سنة ٢٤٣ هـ حيث أشخصه المتوكل العباسي إلى سامراء.

وكان مركز الإمام العسكري عليه السلام في سامراء، وذلك لأنه ولد في المدينة المنورة ونقل مع أبيه منها إلى سامراء، وهو صغير السن. وكان عطاؤهم في التعليم والتحديث والإفتاء والتربية يختلف باختلاف الظروف السياسية التي كانت

تحيط بكل واحد منهم. ومن خلال المقارنة لعدد رواة كل واحد منهم حسبما جاء من إعداد في (رجال الطوسي) يأتي عدد رواة الإمام الهادي الأكثر، ومن بعده الإمام الجواد، فالإمام العسكري. وبالمقارنة مع عدد رواة آبائهم، يأتي عدد رواتهم جميعاً، أكثر من رواة الأئمة الحسنين وزين العابدين. والذي يبدو من الوقائع والحوادث التأريخية المختلفة والمتعددة[1]، أن الحكام العباسيين منذ عصر الرشيد حتى عصر الخليفة المعتمد قد ضاقوا ذرعاً مما كان ينقله لهم ولاتهم وعيونهم في الأمصار التي يكثر فيها الشيعة من أنباء عن نشاط الشيعة في الدعوة لمذهب أهل البيت عليهم السلام، وفي نقل الأموال لأئمة أهل البيت ليستعينوا بها على إدارة شؤون الشيعة، وفي كثرة الولاة والفقهاء من أتباع مدرسة أهل البيت وانتشارهم في شتى البلاد، ووفرة نتاجهم العلمي في التعليم والتأليف، فحاولوا، بشتى الوسائل أن يصمتوا شخصيات الأئمة بما يشوه سمعتهم فلم يفلحوا في ذلك. ولما رأى الحكام العباسيون ذلك اتجهوا إلى أسلوب آخر وهو عقد مجالس المناظرة والمساءلة للأئمة علّهم بهذا يثبتون نقصاً لهم من الناحية العلمية، فيصلوا إلى هدفهم من إسقاطهم عن الاعتبار والحط من منزلتهم، وهذا لعله لصغر سنهم، فقد قام الإمام الجواد بأعباء الإمامة وهو ابن ثماني سنوات، وتولاها الإمام الهادي وهو ابن ست عشرة سنة ونهض بها الإمام العسكري وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ومن بعده الإمام المنتظر وهو ابن خمس سنوات. فكانت ظاهرة الإمامة المبكرة ظاهرة غريبة على المجتمع ولكن بالرغم من كل ذلك كان الأئمة يسجلون في مناظراتهم ومجالسهم ما يدهش المجتمع وما يثبت قلوب شيعتهم ويزيدهم إيماناً وعلماً ويقيناً فإن الإمام الجواد قد أجاب في مجلس واحد بمحضر من المأمون

(١) راجع: تاريخ الإسلام: ج٣، عصر الأئمة.

العباسي عن ستة عشر ألف مسألة[١]، وهذا ما يزيد في رسوخ العقيدة وبمنزلة دليلٍ حسيٍّ على حقانية أهل البيت عليهم السلام وأنهم ممّن ورث علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واستمرت مدرسة الفقهاء الرواة التابعة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام تسير على الخط الذي رسمه لها الإمامان الصادقان لتتكامل في عطائها وتكتمل في هذا العصر كل متطلبات المدرسة العلمية من حيث المنهج العلمي والمصدر والمادة لتمهد لعصر الغيبة والتي سوف نتحدث عنه فيما بعد.

وكان في عصر الأئمة الثلاثة لكل واحد منهم ثقاة وأصحاب ممن ينتسبون إلى مدرستهم أساتذة وطلاباً وقد أوردهم العلامة المجلسي في بحاره في الجزء(٥٠) تحت عناوين من ثقاته ومن أصحابه ونذكر نماذج للمثال وليس على سبيل العد والحصر مثلاً كان من ثقات الإمام الجواد، أيوب بن نوح بن دراج الكوفي ومن أصحابه، شاذان بن الخليل النيسابوري، ومن ثقات الإمام الهادي أحمد بن حمزة اليسع ومن أصحابه، داود بن زيد، ومن ثقات الإمام العسكري علي بن جعفر الهماني ومن أصحابه محمد بن الحسن الصفار والحسين بن روح النوبختي وغيرهم الكثير الكثير يذكرهم المجلسي وغيره[٢].

أهم المؤلفات في عصر الأئمة (الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام)

فقد ذكر المؤرخون ما يلي من مؤلفاتهم:

١ - التفسير المعروف بـ(تفسير الإمام الحسن العسكري). يرويه الشيخ

(١) المصدر السابق: ج٣، عصر الجواد. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ١٩٦.

(٢) انظر: المصدر السابق والبحار، للمجلسي: ج٥٠، تحت عنوان من ثقاته ومن أصحابه.

الصدوق عن محمد بن القاسم الأسترابادي الخطيب عن أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد وأبي الحسن علي بن محمد بن يسار.

٢ - رسالة المنقبة: قال المجلسي في البحار (٥٠/٣١٠): «وخرج من عند أبي محمد عليه السلام في سنة خمس وخمسين ومائتين كتاب ترجمته (رسالة المنقبة) يشتمل على أكثر علم الحلال والحرام. وأوله: أخبرني علي بن محمد بن علي بن موسى».

٣ - مكاتبات الرجال عن العسكريين: ذكر قطعة منها في أحكام الدين الشيخ ابن شهر آشوب في (المناقب) رواها عن الخيبري أو الحميري.

وأما مؤلفات أصحابهم فكثيرة جداً فذكر منها: مؤلفات الحسين بن سعيد وهي كما يذكرها الشيخ الطوسي في (الفهرست): «الحسين بن سعيد بن حماد ابن سعيد بن مهران الأهوازي من موالي علي بن الحسين عليه السلام، ثقة، روى عن الرضا وأبي جعفر الثاني وأبي الحسن الثالث عليه السلام، وأصله كوفي، وانتقل مع أخيه الحسن (رض) إلى الأهواز ثم تحول إلى قم، فنزل على الحسن ابن أبان وتوفي بقم وله ثلاثون كتاباً...».

(روي في الفهرست/٤٤): «أيوب بن نوح بن دراج، ثقة، له كتاب وروايات ومسائل عن أبي الحسن الثالث». وأيضاً في (الفهرست/ ٥٤): «أحمد بن إسحاق بن عبد الله بن سعد بن الأحوص الأشعري أبو علي كبير القدر، وكان من خواص أبي محمد عليه السلام، ورأى صاحب الزمان عليه السلام، وهو شيخ القميين ووافدهم، وله كتب، منها كتاب علل الصلاة كبير، ومسائل الرجال لأبي الحسن الثالث عليه السلام».

وأيضاً محمد بن الحسن بن فروخ الصفار المتوفى سنة ٢٩٠هـ: وهو من

أصحاب الإمام العسكري له كتب كثيرة منها كتاب (بصائر الدرجات) الذي يعتبر من التراث الشيعي وغيره كثير.

وقد أُحصي ما كتبه أصحاب الإمام الجواد عليه السلام من كتب فبلغت (٧٨) كتاباً وأحصيت الكتب التي كتبها أصحاب الإمام الهادي عليه السلام بـ(٤١٤) كتاباً. ومجموع ما كتبه أصحاب الإمام العسكري هو (١١٨)[١] كتاباً وعلى هذا فمجموع ما كتبه أصحاب الأئمة (٦١٠) كتاب. وأما ما دوّنه الشيعة من الحديث الشريف والكتب منذ عصر الإمام علي إلى عصر الإمام الحسن العسكري فبلغت ستة آلاف كتاب تقريباً[٢].

خلاصة نتائج هذا العصر

١ - انتشرت مساحة التشيع في هذا العصر وزاد عددهم، وكثر فيهم الدعاة والعلماء والرواة والمبلغون لمذهب أهل البيت.

٢ - اكتملت معالم مدرسة الفقهاء الرواة خريجي مدرسة أهل البيت في المنهج والمادة العلمية بحيث صار عندهم كم هائل من الكتب والروايات والقواعد والأصول.

٣ - بروز ظاهرة جديدة في تاريخ التشيع وهي مناظرات الأئمة ومساءلتهم أمام الناس وفي العلن وفي محضر الحكام والقادة والعلماء فكانت تلكم المناظرات تأتي بنتائج طيبة ومثمرة وفرت الكثير من المادة العلمية في مجال التشريع الإسلامي بصورة عامة وفي مجال الفقه الإمامي بصورة خاصة مما طوّر ودفع عجلة النمو والتكامل في الفقه الإمامي التابع لمدرسة أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) انظر: مصادر السنة الشريفة، ص٣٢.

(٢) انظر: مقدمة وسائل الشيعة، ص٦٤. وانظر: مصادر السنة الشريفة ٣٢.

المبحث السابع: عصر الغيبة الصغرى

ويمتد هذا العصر من سنة ٢٦٠هـ إلى سنة ٣٢٩هـ، أي من حين وفاة الإمام العسكري إلى حين وفاة آخر وكلاء - سفراء - الإمام المهدي المعروف بـ(أبو الحسن علي بن محمد السمري).

وتجدر الإشارة هنا أنّنا سوف نشير إلى هذا العصر إشارة عابرة وسوف نذكر فقهاء الحقبة المتأخرة في هذا العصر بشيء من التفصيل في مرحلة التأسيس اللاحقة.

وقد مهد الأئمة المتأخرون - الجواد والهادي والعسكري - لإمامة الإمام المهدي وبالخصوص الإمام العسكري عليه السلام وكان شديد الحرص على هذا الأمر ولكي يُطمئن الشيعة والمسلمين حيث كانت السلطات آنذاك تعرف بحقيقة المهدي الموعود الذي يقضي على عروشهم، فكان الإمام يبشر المخلصين منهم بولادته ويأمرهم بكتمان أمره حتى لا يصل الخبر إلى السلطان، وذلك كما في (أعيان الشيعة ٤٧/٢) وكذلك في (الغيبة/٢١٧) «أن وفداً من أربعين شخصاً من الموالين لآل البيت قدموا إلى سامراء وحضروا في بيت الإمام العسكري عليه السلام ليسألوه عن الحجة من بعده فقال الإمام عليه السلام بعد ما أشار إلى غلام كأنه قطعة قمر، أشبه الناس بأبي محمد، هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم، أطيعوه

ولا تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم، إلا وإنكم لا ترونه بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر، فاقبلوا من عثمان بن سعيد ما يقوله، وانتهوا إلى أمره، واقبلوا قوله، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه»[١].

وبعد وفاة الإمام العسكري عليه السلام انتقلت أسرته إلى بغداد، وفيها كان اتصال وكلاء الإمام المهدي به. والذين عرفوا فيما بعد بالسفراء لقيامهم بالسفارة بين الإمام والشيعة وهم:

١ - أبو عمرو عثمان بن سعيد العمري المتوفى (٢٦٥هـ)

كان قبل سفارته عن الإمام المهدي وكيلاً لأبيه الإمام العسكري ومن قبله لأبيه الإمام الهادي وكان خادماً وبواباً خدم الإمام الجواد أيضاً[٢].

قال الإمام الهادي في توثيقه: «هذا أبو عمرو، الثقة الأمين، ما قاله لكم فعني يقوله، وما أداه إليكم فعني يؤديه».

وقال الإمام العسكري عليه السلام: «هذا أبو عمرو، الثقة الأمين، ثقة الماضين وثقتي في المحيا والممات، فما قاله لكم فعني يقوله، وما أداه إليكم فعني يؤديه».

وقد عينه الإمام العسكري سفيراً للإمام المهدي كما تقدم حيث قال «...فاقبلوا من عثمان بن سعيد ما يقوله، وانتهوا إلى أمره، واقبلوا قوله، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه».

---

(١) الغيبة: للطوسي، ص٢٥٧، ح٣١٩. وتاريخ الإسلام: ج٣، ص٤٣٣. والسفراء في الغيبة الصغرى: ص١١.

(٢) انظر: السفراء في الغيبة الصغرى - حسين الشاكري ص٥. وتاريخ التشريع: الفضلي ص٢٢٠.

٢ - أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري المتوفى سنة ٣٠٥هـ

فقد روى الشيخ الطوسي في كتاب (الغيبة) عن هبة الله بن محمد عن شيوخه: «قالوا: لم تزل الشيعة مجمعة على عدالته وثقته وأمانته للنص عليه بالأمانة والعدالة، والأمر بالرجوع إليه في حياة الحسن العسكري عليه السلام وبعد موته في حياة أبيه عثمان بن سعيد، لا يختلف في عدالته، ولا يرتاب بأمانته، والتوقيعات تخرج على يده إلى الشيعة في المهمات طول حياته بالخط الذي كانت تخرج به في حياة أبيه عثمان».

والنص عن الإمام العسكري هو قوله في حق العمريين الأب والابن: «العمري وابنه ثقتان، فما أديا إليك فعني يؤديان، وما قالا لك فعني يقولان، فاسمع لهما، وأطعهما، فإنهما الثقتان المأمونان».

ولأبي جعفر محمد بن عثمان كتب في الفقه مما سمعه من أبي محمد الحسن عليه السلام والصاحب عليه السلام ومن أبيه عثمان عن أبي محمد وعن أبيه علي ابن محمد منهما كتاب الأشربة(١).

٣ - أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي المتوفى سنة ٣٢٦هـ

فقد روي أن السفير الثاني محمد بن سعيد العمري جمع - قبل وفاته بسنتين أو ثلاث - وجوه الشيعة وشيوخها، وقال لهم: «إن حدث عليّ حدث الموت فالأمر إلى أبي القاسم الحسين بن روح النوبختي، فقد أمرت أن أجعله في موضعي بعدي، فارجعوا إليه، وعوّلوا في أموركم عليه».

---

(١) انظر: الغيبة للشيخ الطوسي، ص٢٢١، وكذلك انظر: المصدر السابق ص٣٣، وتاريخ التشريع الإسلامي ص٢٢٠.

٤ - أبو الحسن علي بن محمد السمري المتوفى سنة ٣٢٩هـ

وقد عينه النوبختي من بعده بأمر من الإمام المهدي عليه السلام، وكان السمري آخر السفراء، وبوفاته انقطعت السفارة بين الإمام والشيعة، وبدأت الغيبة الكبرى بأمر من الإمام المهدي عليه السلام، فقد ذكر المحدث المجلسي في (البحار ٥١/٣٦٠ - ٣٦٢) عن الطوسي في (الغيبة) أنه قال: «أخبرنا جماعة عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه قال: حدثني أبو محمد الحسن بن أحمد المكتّب قال: كنت بمدينة السلام في السنة التي توفي فيها الشيخ أبو الحسن علي بن محمد السمري - قدس الله روحه - فحضرته قبل وفاته بأيام فأخرج إلى الناس توقيعاً، نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم، يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فأجمع أمرك، ولا توصي إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور الا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادعي المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذّاب مفترٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). قال: فنسخنا هذا التوقيع، وخرجنا من عنده، فلما كان اليوم السادس عدنا إليه وهو يجود بنفسه، فقيل له: من وصيك بعدك؟ فقال: (لله أمر هو بالغه). وقضى، فهذا أخر كلام سمع منه، رضي الله عنه وأرضاه»(١).

وكانت وظيفة هؤلاء السفراء الأربعة تلقي الأسئلة من الشيعة مكتوبة، ورفعها إلى مقام الإمام عليه السلام، وكان الإمام يوقع بالإجابة عن السؤال على الورقة المكتوب عليها السؤال.

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج: ج٢ ص٥٥٥؛ الصدوق، إكمال الدين وإتمام النعمة: ج٢ ص٥١٦، الطوسي، الغيبة: ص٢٤٢؛ المجلسي، بحار الأنوار: ج٥١ ص٣٦٢.

ومن هنا سميت هذه الأجوبة بـ(التوقيعات). وكانت الغيبة الصغرى ومن خلال الدور الذي قام به السفراء تمهيداً للغيبة الكبرى، كي يعتمد الشيعة من بعد السفراء على الاستقلال بأنفسهم، وذلك بالرجوع إلى العلماء في أمور الشرع والدين والذين أطلق عليهم فيما بعد بـ(نواب الإمام)، وعبّر عن وظيفتهم الشرعية بـ(النيابة العامة).

وقد تم هذا في هدي التوقيع الشريف الصادر من الإمام المهدي عليه السلام، والذي يقول فيه: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم». رواه المحمدون الثلاثة: الشيخ الكليني في (الكافي) والشيخ الصدوق في (إكمال الدين وإتمام النعمة) والشيخ الطوسي في (الغيبة). ومن بعدهم: الطبرسي في (الاحتجاج) والمجلسي في (بحار الأنوار) والحر العاملي في (وسائل الشيعة).

وتلقاه الأصحاب بالقبول، واتفقوا على دلالته على أبعد من هذا من حيث شموله لولاية الفقيه التي تعني الحكومة الإسلامية، وأفاد بعضهم منه هذا(١).

وفي هذا العصر - عصر الغيبة الصغرى - بدأ تأليف مجموعات الحديث، حيث ألف الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي البغدادي المتوفى ٣٢٩هـ كتابه الموسوم بـ(الكافي)، فتصانيف هذا الشيخ ورواياته كانت في زمن السفراء المذكورين.

أي في مرحلة التأسيس للفقه الإمامي المصطلح لا الفقه الروائي والتي سوف نتحدث عنها بعد هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

---

(١) الحائري، السيد كاظم، المرجعية والقيادة: ص١٤٨، الصدوق. إكمال الدين وإتمام النعمة: ج١ ص٤٨٣.

المبحث الثامن: خصائص مرحلة الصدور ونتائجها بصورة عامة

ومن خلال نظرتنا إلى تاريخ الفقه الإمامي منذ عصر الرسول وإلى عصر الغيبة الكبرى نستطيع أن نخلص التالي:

١ - إن عصر النبي كان عصر تأسيس التشريع الإسلامي واكتمال الشريعة وكمالها، وأنه فيه قد تم تبليغ القرآن وتدوينه وجمعه وصدور السنة النبوية الشريفة وتدوينها وجمعها، وفي هذا العصر بدأ التأليف الإسلامي في مجال التشريع وكان عمدة ذلك وأساسه من قبل الإمام علي عليه السلام.

٢ - كان عصر الأئمة من بعد وفاة النبي إلى عصر الغيبة الكبرى عصر تبيين النص وصيانته، وقد قام الأئمة من أهل البيت عليهم السلام في هذه الفترة بتبيين الدين الحنيف والتشريع الإلهي الذي أنزله الله على نبيه الأكرم وأكمله له، وعلّمه النبي من بعده بصورة كاملة وافية لأخيه ووصيّه علي بن أبي طالب ومنه إلى الأئمة من ولده ليصونوا بذلك الدين عن التحريف وتلاعب المبدعين ويكونوا إلى جانب الكتاب الكريم ميزاناً للحق وأماناً للخلق، وقد صدر عنهم في هذه الفترة الكثير من النصوص والروايات وقاموا بنشر مختلف العلوم الإسلامية وخرجوا العلماء والفقهاء الذين تعلموا منهم وبسعي هؤلاء حفظت الشريعة.

٣ - إنّ كثرة الرواة عن أئمة أهل البيت يعطينا مدى اهتمام مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأمر التشريع والفقه الإسلامي، بحيث بلغ الرواة عنهم عدد الآلاف وبالخصوص في عصر الصادقين عليهما السلام.

حيث روى الشيخ أمين الإسلام الطبري في أعلام الورى: «روى عن الإمام الصادق من مشهوري أهل العلم أربعة آلاف إنسان». وصنف من جواباته في المسائل أربعمائة كتاب تسمى الأصول. ونستطيع أن ندون احصائيات الشيخ الطوسي في رجاله من رواة الأئمة كالتالي:

1- الإمام علي 442 راوياً	7- الإمام الكاظم 272 راوياً
2- الإمام الحسن 41 راوياً	8- الإمام الرضا 317 راوياً
3- الإمام الحسين 109 راوياً	9- الإمام الجواد 113 راوياً
4- الإمام السجاد 173 راوياً	10- الإمام الهادي 182 راوياً
5- الإمام الباقر 446 راوياً	11- الإمام العسكري 103 راوياً
6- الإمام الصادق 3217 راوياً	12- الإمام المهدي 52 راوياً[1]

٤ - بروز ظاهرة التأليف والمصنفات ومنها التأليف في الرجال الذي كان الأساس لما عرف فيما بعد بعلم الرجال حيث ألف عبيد الله بن أبي رافع كتاباً ذكر فيه أسماء الصحابة الذين شايعوا علياً وحضروا حروبه وقاتلوا معه. وظهرت كتب كثيرة مثل كتاب الرجال لعبد الله بن جبلة الكناني، وكتاب مشيخة الحسن بن محبوب، ورجال الحسن بن فضال، ورجال علي بن الحسن بن فضال، ورجال محمد بن خالد البرقي وغيرهم. وأما باقي المصنفات فقد بلغت (٦٦٠٠) كتاب كما

(١) انظر موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ، ج١، ص٤٣ وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي: للفضلي، ص٢٠٦.

نقله صاحب الوسائل في آخر الفائدة الرابعة في كتابه الوسائل وكانت هذه المصنفات نوعين منها أصول وغير أصول.

أ - أما الأصول: وهي التي دوّن فيها مؤلفوها الأحاديث التي سمعوها من الإمام مباشرة ورووها عنه بلا واسطة أو التي سمعوها من راوٍ يرويها عن الإمام مباشرة.

ب - غير الأصول: وهي التي نقل إليها أو فيها مؤلفها محتوياتها من الأحاديث عن كتاب مكتوب، أي أنهم لم يعتمدوا السماع وإنما النقل عن المدون والمكتوب.

وعن هذه الكتب أصولاً وغير أصول نقل أصحاب مجموعات الحديث الإمامية والتي بدأ تأليفها في أواخر عصر الغيبة الصغرى وما بعدها كما سنشير إليها غير (كتاب الكافي) الذي أشرنا إليه.

٥ - في هذه الكتب - أصولاً وغير أصول - الشيء الوافي من قواعد علم الرجال أمثال:

أ - قاعدة التعارض والترجيح بين الخبرين.

ب - قاعدة الجرح والتعديل أو التوثيق والتفسيق للراوي.

ج - قاعدة تصحيح ما يصح عمن أجمعت الطائفة على فقاهتهم ووثاقتهم.

د - صفات الراوي.

و - حجية خبر الواحد... وغيرها الكثير.

٦ - قيام الأئمة بتربية الفقهاء والعلماء والمتخصصين مما أدى إلى كثرة الفقهاء الرواة حتى انتشروا في شرق الأرض وغربها وظهرت عملية الاجتهاد والاستنباط في

بداياها الميسرة البدائية من عصر الأئمة. وظهرت شخصيات بارزة من أمثال زرارة ابن أعين، ومعروف بن خربوذ، وبريدة وأبو بصير الأسدي والفضيل بن ياسر، ومحمد بن مسلم،وأبان بن تغلب وجميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله ابن بكير وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان، ويونس بن عبد الرحمن، وصفوان بن يحيى بياع السابري، ومحمد بن أبي عمير، وعبد الله بن المغيرة، والحسن بن محبوب، وأحمد بن محمد بن أبي نصر، وأمثالهم الكثير مما أدى إلى انتشار الفقهاء التابعين لمدرسة أهل البيت في كل ناحية في البلاد الإسلامية، وكان الأئمة يرشحون بعضهم للإفتاء ويرجعون الناس إليهم.

٧ - اعتماد الفقهاء الرواة على:

أ - الكتاب والسنة فقط مصدراً للتشريع الإسلامي.

ب - الرجوع في تعلم الفتيا وأخذ العلوم من الإمام المعصوم أن أمكن.

ج - إذا لم يمكن الرجوع للإمام يرجعون إلى الراوي الثقة والفقيه العادل لأخذ الأحكام.

د - الإفتاء بنص الرواية أو تطبيق القواعد من الروايات.

٨ - ظهور الموسوعات الحديثة من قبيل تأليف الكافي وبصائر الدرجات وغيرها في عصر الغيبة الصغرى وقبلها بقليل.

٩ - اكتمال المنهج والمادة وتوفر الرجال وكل متطلبات الاستنباط والاجتهاد للفقه الإمامي بصورة خاصة وللفقه الإسلامي عامة.

١٠ - إنّ الغيبة الصغرى كانت تمهيداً لاستقلال الفقهاء واعتمادهم على الاجتهاد الشرعي الذي يعتمد على النص في استنباط الأحكام الشرعية.



الفصل الثاني

المرحلة التأسيسية للفقه الإمامي

المبحث الأول: بيان حول المرحلة

المبحث الثاني: الاتجاهات الفقهية في هذه المرحلة وأبرز فقهائها

المقطع الأول: الاتجاه الروائي أو مدرسة المحدثين

الأول: الصدوق الأب

الثاني: الكليني

الثالث: الصدوق

المقطع الثاني: الإتجاه العقلي

الأول: ابن أبي عقيل العماني

الثاني: ابن أبي الجنيد الإسكافي

المقطع الثالث: الاتجاه الثالث الوسط بين النقل والعقل

الأول: الشيخ المفيد

الثاني: السيد المرتضى

الثالث: سلّار الديلمي

المبحث الثالث: خصائص المرحلة التأسيسية

المبحث الأول: بيان حول المرحلة

والمقصود بالمرحلة التأسيسية هي المرحلة التي أسس فيها لكل ما يحتاجه الفقيه في اجتهاده واستنباطه للأحكام الشرعية في الفقه الاستدلالي ووّفرَ فيها كل أدوات الاجتهاد ووسائله ومواده كما سوف يتضح من خلال تفاصيل المرحلة.

لقد انتهت مرحلة صدور البيان الشرعي (المرحلة التأسيسية لفقه الروايات) بوفاة آخر السفراء وهو الشيخ علي بن محمد السمري سنة ٣٢٩هـ، وذلك بإعلان من قبل الإمام المهدي عليه السلام، بعد أن أناط مسؤولية رعاية شؤون الشيعة الإمامية فكراً وعملاً - خاصة في مجال بيان الأحكام - بفقهاء الطائفة وعلمائهم، ورأينا أن من أولئك الفقهاء في عصر الغيبة الصغرى أمثال الكليني - والذي سوف نشير إلى دوره بالتفصيل في هذه المرحلة - كانوا يدركون هذا، فاندفعوا يستعدون للقيام بهذه المهمة المناطة من قبل الإمام، وذلك بتهيئة الوسائل العلمية التي يحتاجها الفقيه في اجتهاده وقيامه بعملية استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المشروعة، باعتبار أن غيبة الإمام الكبرى - حيث لا لقاء به عليه السلام تفرض النقلة في واقع الاجتهاد والاستنباط، من ذلك الاستنباط الميسر ذي المؤنة الخفيفة إلى الاجتهاد الموسع الذي يتطلب وسائل أكثر وجهداً أكبر.

وهذا تماماً كما حدث للمذاهب الفقهية السنية بعد انقراض آخر جيل من أجيال الصحابة حيث قاموا بوضع أصول الفقه بدءاً من الشافعي، ومروراً بآخرين من المذاهب الأخرى، كما دوّنوا موسوعات الحديث والرجال، وألفوا المدوّنات الفقهية في المتون والشروح، وغير ذلك مما اقتضاه مستقبل التشريع الإسلامي عندهم بعد الصحابة.

وتمثل هذا الأمر عند المذهب الإمامي بالأمور التالية:

١ - إتمام حلقات الحديث الفقهي تأليفاً.

٢ - مواصلة التأليف في رواة الحديث وطبقاتهم.

٣ - وضع الفهارس لمؤلفات الشيعة إحصاءً وبياناً.

٤ - كتابة المتون الفقهية.

٥ - تأليف الكتب الفقهية الاستدلالية.

٦ - استخلاص القواعد الأصولية من معطيات النقل ومدركات العقل.

٧ - بلورة خطط ومناهج البحث في العلوم الشرعية المذكورة من حديث ورجال وفقه وأصول.

٨ - استقراء مصادر الأحكام الشرعية والوظائف الشرعية العقلية.

٩ - تكوين مراكز للبحث والدراسة العلمية.

١٠ - تطوير الفقهاء والمرجعية الدينية.

وهذه المرحلة - المرحلة التأسيسية للفقه الإمامي - والمراحل اللاحقة سوف تحقق هذه الأمور تدريجياً، وقبل البدء بهذه المرحلة لابد من تحديدها كالتالي:

تبدأ هذه المرحلة في الأزمنة الأخيرة من الغيبة الصغرى، وتحديداً بالكليني والشيخ الصدوق الأوّل علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٢٩هـ) وتنتهي بحمزة بن عبد العزيز الديلمي المعروف بسلار (ت ٤٤٨ أو ٤٦٤هـ)[١]، أو تنتهي بانتقال الشيخ الطوسي إلى النجف سنة (٤٤٨هـ). فبداية المرحلة هي بداية القرن الرابع ونهايتها تعتبر منتصف القرن الخامس الهجري، فهي قرن ونصف تقريباً.

وتم في هذه المرحلة تدوين كتب الحديث والكتب الفقهية والكتب الأصولية والعناصر المشتركة في استنباط الأحكام الشرعية.

وهذه المرحلة هي مكملة لما أسسه الأئمة عليهم السلام، ولما قام به أصحابهم ورواة الحديث عنهم والعلماء الذين تربوا في مدارسهم وكتبوا آلاف الكتب كما ينقل الحر العاملي في وسائله حيث عد كتب الأصحاب ستة آلاف كتاب وأربعمائة أصل كما مر في مرحلة الصدور والتشريع، وفي هذه المرحلة التأسيسية تم تدوين موسوعتين حديثتين فقهيتين هما:

١ - الكافي: لثقة الإسلام الكليني (ت: ٣٢٩هـ) وقد استوعبت الأحاديث الفقهية خمسة أجزاء من أجزائه الثمانية.

٢ - من لا يحضره الفقيه: للشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق (ت: ٣٨١هـ)[٢].

---

(١)مجلة فقه أهل البيت: مراحل تطور الاجتهاد: منذر الحكيم، العدد ١٤،ص١٤٥.

(٢) تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره: جعفر السبحاني ص٢٢٤.

المبحث الثاني: الاتجاهات الفقهية في هذه المرحلة وأبرز فقهائها

والملاحظ في هذه المرحلة في الوسط العلمي للفقهاء والعلماء المناط بهم الحفاظ على الدين واستنباط الأحكام في زمن الغيبة الكبرى بروز ثلاثة اتجاهات فقهية تمثلت في جملة من الفقهاء وتجلت بصورة أوضح في بعضهم وهذه الاتجاهات هي:

الاتجاه الأول: الاتجاه الروائي أو مدرسة المحدثين

وهو منهج اعتماد الفقه المأثور والفقه الروائي وإبعاد العقل، وهو طريقة المحدثين، وهذا الاتجاه ينظر إلى الاستدلالات العقلية بأنّها نوع من القياس الذي نهى عنه الأئمة عليهم السلام ويرى هذا الاتجاه أنّ النهي الوارد عن الأئمة عليهم السلام عن العمل بالقياس شامل لتلك الاستدلالات العقلية ومن أبرز معالمه اعتماده أمرين مهمين هما:

أولاً: عدم فصل الفقه عن الحديث.

ثانياً: إبعاد المنهج العقلي الذي يتخطى النص وحرفيته في طريقة التفكير الفقهي.

وهذا خلافاً للمنهج العقلي الذي سوف نبينه، وخلافاً للمنهج الوسط الجامع بين النقل والعقل والذي سوف نذكره أيضاً تباعاً.

ويمثل هذا الاتجاه علماء الفقه الذين يعتمدون الحديث، وقد أثر مسلكهم هذا في كتبهم، فهي كتب فقهية لا تتجاوز الأحاديث والنصوص.

أبرز فقهاء الاتجاه الروائي وآثارهم الفقهية

الأول: الصدوق الأول

وهو علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق الأول) توفي سنة ٣٢٩هـ، فقد عرف عنه التزامه بلفظ الحديث وصيغته فألف لتحقيق هذا المعنى رسالته إلى ابنه محمد الصدوق في الفتوى المعروفة بـ(الرسالة) أو (الشرايع) ملتزماً فيها متن الحديث بلفظه، مع إسقاطه للسند.

ففي (مستدرك الوسائل ٣/ ٥٢٨ -٥٢٩): «وفي مجموعة الشهيد: ذكر الشيخ أبو علي الطوسي - قدس سره - أن أوّل من ابتكر طرح الأسانيد، وجمع بين النظائر، وأتى الخبر مع قرينة علي بن بابويه في رسالته إلى ابنه. قال: ورأيت جميع من تأخر عنه يحمد طريقته فيها ويعول عليه في مسائل لا يوجد النص عليها لثقته وأمانته وموضعه من العلم والدين، وقال في (الذكرى): إن الأصحاب كانوا يأخذون الفتاوى من رسالة علي بن بابويه إذا أعوزهم النص، ثقةً (به) واعتماداً عليه»[1].

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ص٢٣٩. وانظر: أعلام الفقهاء والمحدثين، للنصيراوي، ص٤٩.

كما يترجمه (النجاشي ٨٩/٢) فيقول: «علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، أبو الحسن، شيخ القميين في عصره ومتقدمهم، وفقيههم، وثقتهم، كان قدم العراق، واجتمع مع أبي القاسم الحسين بن روح (رحمه الله) وسأله مسائل، ثم كاتبه بعد ذلك، على يد علي بن جعفر الأسود، يسأله أن يوصل له رقعه إلى الصاحب عليه السلام ويسأله فيها الولد، فكتب إليه: (قد دعونا الله لك بذلك، وسترزق ولدين ذكرين خيّرين، فولد له: (أبو جعفر)[١] و(أبو عبد الله)[٢]، من أم ولد، وكان أبو عبد الله الحسين يقول: سمعت (أبا جعفر) يقول: أنا ولدت بدعوة صاحب الأمر عليه السلام، ويفتخر بذلك، وله كتب - علي بن الحسين الصدوق - منها: (كتاب التوحيد، كتاب الوضوء، كتاب الصلاة، كتاب الجنائز، كتاب الشرايع وهي رسالته إلى ابنه، كتاب التفسير، كتاب النكاح، كتاب مناسك الحج، وكتاب المواريث وكتاب الطب، وكتاب المعراج، وكتاب المنطق، وكتاب الإمامة والتبصرة في الحيرة، وكتاب الأخوان، وكتاب النساء والولدان، وكتاب قرب الإسناد، وكتاب التسليم، وكتاب الإملاء) أخبرنا أبو العباس بن عمر بن محمد بن عبد الملك بن أبي مروان الكلواذني رحمه الله ، قال: أخذت إجازة علي بن الحسين ابن بابويه، لما قدم بغداد، سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، بجميع كتبه، ومات علي بن الحسين عليه السلام سنة تسع وعشرين وثلاثمائة»[٣]. وقال المجلسي رحمه الله: «إن في زمان علي بن الحسين بن موسى كان في قم من المحدثين مائتا ألف رجل»[٤].

---

(١) هو محمد بن علي بن بابويه (الصدوق).

(٢) هو الحسين بن علي بن بابويه (أخو الصدوق).

(٣) أعلام الفقهاء والمحدثين، ص٥٤، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص٢٤٠.

(٤) أعلام الفقهاء والمحدثين، ص٤٣.

موجز حول عصره وبيئته العلميتين

ولا شك أنّ للبيئة بموقعها العلمي ومركزها الثقافي آثاراً مهمّة في تحديد معالم التوجه الفكري للنابغين فيها والبيئة التي استوطنها الشيخ علي بن بابويه قدس سره قد تمتعت بما لم يتمتّع بمثلها إلاّ القليل من حواضر العلم والدين في البلاد الإسلامية فهو قد عاش في مدينة قم المقدسة التي كانت ولا تزال من قلاع التشيع وحيث كانت في أوان عصر الغيبة وعهد نيابة النواب الأربعة (رضوان الله عليهم) حافلة بعلماء الشيعة كما قال المجلسي وكذا كان علماء باقي المذاهب أيضاً ظاهرين حيث في عصره بالذات ألف أصحاب الصحاح الستة - عند أهل السنة - كتبهم وهي صحيح البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، وصحيح مسلم (ت: ٢٦١هـ)، وسنن ابن ماجه (ت: ٢٧٣هـ)، وسنن أبي داود (ت: ٢٧٥هـ)، وجامع الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) ومجتبى النسائي: (ت: ٣٠٣هـ) في الدولة العلوية في طبرستان التي امتد نفوذها إلى قم والري حتى انقرضت (سنة ٣١٦هـ) فكانت قم بيئة الشيخ الصدوق الأب من مراكز العلم والبحث الفقهي بحيث تستقطب الفقهاء والمحدثين في كل بلاد التشيع، ويدل على ذلك ما رواه الشيخ الطوسي قدس سره عن ابن الغضائري عن محمد بن أحمد بن داود القمي قال: حدثنا سلامة بن محمد، قال: «انفذ الشيخ الحسين بن روح رحمه الله كتاب التأديب إلى قم وكتب إلى جماعة الفقهاء بها، وقال لهم: انظروا في هذا الكتاب وانظروا فيه شيء يخالفكم؟ فكتبوا إليه: إنه كله صحيح، وما فيه شيء يخالف إلاّ قوله في الصاع في الفطرة نصف صاع من طعام، والطعام عندنا - مثل الشعير - من كل واحد صاع» (١).

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢، ص ١٦١، نقلاً عن كتاب الغيبة للطوسي ٣٩٠/٣٥٧.

ولا يخفى ما في هذه الرواية من دلالة صريحة على كون قم من مراكز الفقه الشيعي المهمة في عصر الصدوق الأول وأنها كانت منتجع الفقهاء الفحول بحيث يراجعهم من مثل الشيخ العظيم الحسين بن روح (ت: ٣٢٦هـ) سفير الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف الخاص ويطلب منهم مراجعة كتب الحسين بن روح التي كان يبعثها من بغداد إلى فقهائهم على أثر استفساراتهم ورسائلهم ومن هنا تعرف مكانة الصدوق الأول حيث كان يشار له بالبنان من بين فقهاء قم.

رسالة الشرائع وأهميتها الفقهية

ويطلق عليها الشرائع، وهي رسالة فقهية كتبها الصدوق الأب إلى ولده الصدوق وهي كانت وصية إلى الصدوق أيضاً وقد وصفها العلماء في كتب الرجال بكونها رسالة ورد فيها ما يدل على أنها وصية حيث جاء فيها: «أوصيك بما أوصى به إبراهيم بنيه، ويعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ...»[١].

وتظهر أهمية رسالة علي بن بابويه إلى ولده الصدوق من خلال اهتمام الشيخ الصدوق بها من الناحية الفقهية اهتماماً بالغاً، فقد أنزلها منزلة النصّ في كتبه الفقهية، لا سيما في كتابه (من لا يحضره الفقيه) الذي صرّح في مقدمته قائلاً: «ولم أقصد فيه قصد المصنفين في إيراد جميع ما رووه، بل قصدت إلى إيراد ما أفتي به وأحكم بصحتّه، وأعتقد فيه أنّه حجّة فيما بيني وبين ربي تقدس ذكره وتعالت قدرته، وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعول وإليها المرجع»[٢].

---

(١) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣، ص ١٦٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: الصدوق، دار الكتب الإسلامية، النجف، ج ١، ص ٣.

وكان الشيخ الصدوق يعنون أبواباً في الفقيه ولا يذكر فيها غير اقتباساته من الرسالة، وقد يفتي أحياناً على طبق ما في الرسالة من دون التصريح بالاقتباس منها فمثلاً اقتبس في الفقيه في موارد كثيرة منها باب (٧٥) من الجزء الأول صفحة ٣١٤ وليس في الباب غير اقتباس الرسالة، ومثلاً الجزء الثاني الصفحة ٣٠٤ الباب ٢٠٩ وليس في الباب غير الاقتباس من الرسالة وفي كتبه الأخرى فعل كذلك واقتبس في كتاب المقنع مثلاً في أبواب الطهارة وفي ص ٣٦١ باب المكاسب والتجارات.

ومن هنا تظهر أهمية الرسالة فقهياً عند ولده الصدوق، قال المجلسي الأول: «إنّ الصدوق يعتبر رسالة أبيه بمنزلة النصّ؛ لأنه لم ينقل من غير النصوص، ولا يعمل بغيرها، ولهذا وزّع هذه الرسالة في الكتاب [أي كتاب الفقيه] ونقل منها في كل باب سطراً بالرغم من وجود الأخبار المؤيدة» (١).

وقد صرّح الشهيد الأول قدس سره باعتماد الأصحاب على رسالة علي ابن بابويه فقال: «كان الأصحاب يتمسكون بما يجدونه في شرائع الشيخ أبي الحسن ابن بابويه عند إعواز النصوص لحسن ظنهم به، وإنّ فتواه كروايته»(٢).

كما تظهر أهمية الرسالة من الناحية الفقهية من خلال ما أورده المحقق الحلي في كتابه (المعتبر) فقد قال في الفصل الرابع منه: «لما كان فقهاؤنا (رضوان الله عليهم) في الكثرة إلى حد يتعسر ضبط عددهم، ويتعذّر حصر أقوالهم؛ لاتساعها وانتشارها، وكثرة ما صنفوه...» ثم عدّ جماعة من أهل الفتيا ممن اختار النقل من

---

(١) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣، ص ١٦٦.

(٢)مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٣، ص ١٦٣.

كتبهم، وعدّ الشيخ علي بن بابويه من جملتهم[١].

وكما عن الشيخ ابن إدريس الحلي يكثر من بيان موافقة فتاوى كبار الفقهاء - كعلي بن بابويه - لما يفتي به في السرائر مخالفاً لفتاوىي غيره من الفقهاء، ومن ذلك ما أورده في السرائر، فقد قال ما نصّه: «فأما إذا ما ماتت فيها عقرب أو وزغة فلا ينجس، ولا يجب أن ينزح منها شيء بغير خلاف من محصِّل، ولا يلتفت إلى ما يوجد في سواد الكتب» ثم اعتذر عمّن أفتى بخلاف ذلك بأنه إنما أورده على جهة الرواية بحيث لا يشذّ من الأخبار شيء دون تحقيق العمل عليه إلى أن قال: «وابن بابويه في رسالته يذهب إلى ما اخترناه من أنه لا ينزح من موت العقرب في البئر شيء»[٢].

واعتذار ابن إدريس في هذا الكلام - كما مر - يفيد إلى حد ما بأنّ علي بن بابويه كان في نظر ابن إدريس محققاً فيما يفتي به من الأخبار مميزاً بين صحيحها وضعيفها على الأقل فيما يرتبط بالأخبار الواردة في نجاسة البئر وتطهيرها.

على أنّ ما أفتى به ابن بابويه إنما هو على طبق ما ورد في الصحيح عن ابن مسكان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وكل شيء سقط في البئر ليس له دم مثل العقارب والخنافس وأشباه ذلك فلا بأس»[٣].

كما قال ابن إدريس في موضع آخر: «وما اخترناه مذهب الشيخ الصدوق، وعلي بن بابويه في رسالته»[٤].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) السرائر: ج ١ ص ٨٣ في أحكام المياه.

(٣) تهذيب الأحكام: الطوسي، ج ١، أبواب المياه وأحكامها، ب ١٠، ح ٤٩.

(٤) السرائر: ج ١ ص ١٦٩.

ومن راجع مختلف الشيعة، ومنتهى المطلب يجد الكثير من نصوص رسالة الشرائع الموافقة لفتاوى العلامة الحلي مع مناقشته أحياناً أدلتها الفقهية.

مميزات رسالة الشرائع ومنهجها

لا ريب أنّ الشيخ علي بن بابويه رحمه الله حاول أن يجمع مسائل الفقه ويختصرها ويهذبها وينظمها برسالة موجزة إلى ولده الصدوق.

فالبحث الفقهي في الرسالة لم يتجاوز - في الغالب - صدور الفروع الفقهية المقتبسة من أحاديث الأحكام الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام، هذا إلى جانب استعانته بشعر العرب على توضيح بعض المفردات اللغوية الواردة في النصوص، مع الاحتجاج بعموم القرآن الكريم وبعض الأصول العملية، والاجتهاد في تقرير دلالة الألفاظ على نوعية الحكم.

والمهم في ذلك كله أنّه لم يفرّع في الرسالة تفريعات فقهية كثيرة بمعنى أنّها لم تستوعب جميع مسائل الفقه، بل اقتصرت على تطبيق النصوص المختارة على مواردها، كدليل عليه حكم غسل الوجه واليدين في الوضوء للمرّة الثانية، فأكثر العلماء على استحبابه بينما لم يذكره علي بن بابويه كما في مختلف الشيعة.

ومن مميزات الرسالة المهمة ابتكار الصدوق الأول لطرح الأسانيد فيها لئلا يثقل حملها وهو أول من ابتكر الطريقة في رسالته.

وله فتاوى نادرة كما في أحكام السهو في الصلاة وفي نصابي الذهب بالقول بأنّها أربعين أربعين وجواز الصلاة في ثوب أصابه خمر وكلها مخالفة لإجماع المسلمين كما ينقل عن ابن إدريس الحلي[١].

(١) السرائر: ج ١ ص ٤٤٧.

الثاني: الكليني

دراسة إجمالية حول الكليني وكتابه الكافي

والكليني هو الحافظ الكبير والمحدث الجليل أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي البغدادي، ينسب إلى بيت طيب في كلين. تخرج علي يديه عدّة من أفاضل رجالات الفقه والحديث، منهم خاله علاّن الكليني. كان الشيخ الكليني شيخ الشيعة في وقته في الري ووجههم ثم سكن بغداد بباب الكوفة وألف كتابه فيها وتوفي فيها ودفن فيها بباب الكوفة.

وقد أثنى عليه القاصي والداني من الشيعة وغيرهم لجلالته ومكانته العلمية[١].

فقد قال النجاشي في حقه: «شيخ أصحابنا في وقته بالري ووجههم وكان أوثق الناس بالحديث وأثبتهم»[٢].

وقال الشيخ الطوسي عنه: «ثقة جليل القدر عالم بالأخبار».

وقال ابن طاووس: «الشيخ المتفق على ثقته وأمانته»[٣].

وقال المجلسي عنه: «الحق أنه لم يكن مثله فيما رأيناه وكل من يتدبر في أخباره وترتيب كتابه يعرف أنه كان مؤيداً من عند الله تبارك وتعالى، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين أفضل جزاء المحسنين».

وقال الشيخ أسد الله الشوشتري عنه: «ثقة الإسلام، وقدوة الأنام، ومعلم

---

(١) انظر أدوار الفقه الإمامي ـ جعفر السبحاني ص٧٦.

(٢) رجال النجاشي: ص ٣٧٧، رقم الترجمة: ١٠٢٦.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة، السيد ابن طاووس، المطبعة الحيدرية، ص ١٥٨.

الأعلام، المقدم المعظّم عند الخاص والعام»[١]. وقال عنه علماء السنة أمثال ابن حجر «من رؤوس فضلاء الشيعة في أيام المقتدر...كان من فقهاء الشيعة والمصنفين على مذهبهم»[٢]. وقال ابن الأثير: «هو من أئمة الإمامية وعلمائهم»[٣]. وقال الذهبي «شيخ الشيعة وعالم الإمامية، وصاحب التصانيف، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني»[٤].

وقد ألف تصانيف كثيرة (كتعبير الرؤيا، الرجال، الرد على القرامطة، رسائل الأئمة، ما قيل في الأئمة في الشعر وغيرها. وكان أبرز آثاره وأهمها كتابه الكافي وهو من أجلّ الكتب الأربعة المعروفة ويحتوي على (٣٤) كتاباً وعلى (٣٢٦) باباً، ويحتوي على (١٦١٩٩) حديثاً، الصحيح منها (٥٠٧٢) حديثاً، والحسن (١٤٤) حديثاً، والموثق (١٧٨) حديثاً، والقوي (٣٠٢) حديثاً، والضعيف (٩٤٨٥) حديثاً[٥]. وقيل أحاديثه أقل من ذلك بناءً على المتكرر وكتاب الكافي أكبر أثر تركه مؤلفه، وهو بحق موسوعة حديثة كبرى في الأصول والفروع وقد ذكر فيه كل ما يحتاجه الفقيه والمحدث، ويتناول أيضاً وثائق الأمور التي تتعلق بشؤون العقيدة وتهذيب السلوك ومكارم الأخلاق.

---

(١) مقابس الأنوار: ص ٦.

(٢) لسان الميزان: ابن حجر: ج ٥، ص ٤٣٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ابن الاثير: ج ٦، ص ٢٧٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: الذهبي: ج ١٥، ص ٢٨٠، برقم ١٢٥.

(٥) انظر أعلام الفقهاء والمحدثين، ص٣٢، وانظر: تاريخ التشريع الأسلامي: ص٢٢٤، وانظر: كتاب مصادر السنة الشريفة، ص٤٥ تحت عنوان كتاب الكافي، وانظر وسائل الشيعة ج١ في المقدمة ص٦٥.

وهو أول محاولة من نوعه لجمع الحديث وتبويبه وتنظيم أبواب الفقه والأصول، ألفه الشيخ في الغيبة الصغرى في مدة عشرين سنة، وقد نال إعجاب العلماء على مر الزمان لخصائص ومميزات انفرد بها هذا الكتاب عن غيره، حيث أن مجموع رواياته أكثر من روايات الصحاح الستة. وقد أثنى العلماء عليه، مثل الشيخ المفيد حيث قال: «إنه من أجلّ كتب الشيعة وأكثرها فائدة»[١]. وقال الشهيد الأول كما في إجازته لابن الخازن: «كتاب الكافي في الحديث الذي لم يعمل مثله»[٢]. وقال الفيض الكاشاني في الوافي: «الكافي... أشرفها وأوثقها وأتمها وأجمعها لاشتماله على الأصول من بينها وخلوّه من الفضول وشينها»[٣]. وقال المجلسي: «هو أضبط الأصول وأجمعها»[٤].

وقال النوري: «كتاب الكافي بينها كالشمس بين النجوم وامتاز عنها بأمور إذا تأمل فيها المصنف يستغني عن ملاحظة حال آحاد رجال سند الحديث المودعة فيه وتورثه الوثوق ويحصل له الاطمئنان بصدورها وثبوتها وصحتها بالمعنى المعروف عند الأقدمين»[٥]، ويقول السيد الخوئي في معجم رجاله «سمعت شيخنا الأستاذ محمد حسين النائيني قدس سره في مجلس بحثه يقول إن المناقشة في إسناد روايات الكافي حرفة العاجز»[٦]. وبالرغم من كل هذا الإجلال فقد خضع للنقد

---

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية: الشيخ المفيد: ص ٧٠.

(٢) انظر الفوائد الرجالية: السيد بحر العلوم: ج ٣، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) الوافي: الفيض الكاشاني: طبعة طهران، ج١، ص ٦.

(٤) انظر مستدرك الوسائل: ج ١ ص ٢٩.

(٥) خاتمة المستدرك: النووي، ج ٣، ص ٤٦٣.

(٦) معجم رجال الحديث: الخوئي: ج ١، ص ٨١، الطبعة الخامسة.

العلمي والتقويم، ولا يوجد في نظر الفقه الإمامي الشيعي كتاب - سوى القرآن الكريم - يتصف بالصحة فأحاديث الكافي فيها الصحيح والحسن والقوي والضعيف والموثق كما أشار إلى ذلك صاحب الذريعة (١٧/٢٤٥). وقد مر كما قلنا.

ويحتمل قوياً أن سبب تأليف الشيخ الكليني للكافي هو:

أولاً: ضرورة تأسيس مجموعة حديثية إمامية بعد أن دفعت الأنظمة باتجاه تأليف موسوعات حديثية تنتسب لمذاهب إسلامية أخرى.

وثانياً: علمه بالروايات والأحاديث التي تلزم الشيعة بالرجوع إلى الفقهاء والعلماء في عصر الغيبة الكبرى، فأراد أن يجمع شتات الأحاديث المروية في مئات المؤلفات والتي قد يقدر لها الضياع والتلف عن قصد وغير قصد، فيجمعها ويضعها بيد الفقهاء والعلماء حتى تكون المادة الكافية واللازمة من أحاديث التشريع الإسلامي المروية عن الأئمة وأهل البيت عليهم السلام وقد صرح في أول كتابه بأنه إجابة لأحد إخوانه الذين التمسوه فكان كما أراد[1].

وقد أسهم الكافي في الاستفادة منه في مجال الاجتهاد والاستنباط للأحكام الشرعية في المراحل التي أعقبت عصره، وكان من الوفرة في الحديث بحيث يغطي حاجة الفقيه في أكثر الأبواب الفقهية. وبهذا وفر الكليني بكافيه المادة العلمية الكافية للاستدلال الفقهي مما دفع عجلة تطور الفقه الإمامي إلى الإمام وأسهم في بناء أسس الاستنباط.

البعد الفقهي للكليني في كتابه الكافي

لا شك أنّ كتاب الكافي كما تقدم قد ملأ فراغاً مرجعياً كبيراً؛ إذ لم يكن

(١) تاريخ التشريع الإسلامي: ص٢٢٤، ومصادر السنة الشريفة: ص٤٥.

هناك إلى عصر مؤلّفه جامعٌ للأصول والفروع يرجع إليه في الفقه والحديث والكلام وغيرها من العلوم.

وهو - كتاب الكافي - كما هو معلوم يقسم إلى ثلاثة أقسام. الأول في الأصول والثاني في الفروع والثالث عبارة عن الروضة والبعد الفقهي يكون في حدود القسم الثاني في كتاب الكافي، أي قسم الفروع إذ لا سبيل لمعرفة البعد الفقهي غير ما بثه من آراء واستدلالات وبيانات فقهية خلال بحوثه الروائية، وقد أورد الكليني في هذا القسم من كتابه نحو عشرة آلاف حديث من أبواب الفقه كافة، من الطهارة إلى الديات، مبوباً هذه الأحاديث بتقسيم فني مبتكر ودقيق خالٍ من التكرار والتداخل والخلط، وقد ختم بعض الأبواب بالنوادر من الأخبار سالكاً في بيان الأحاديث الفقهية مسلك أهل الحديث في إيراد الأخبار في كل مسألة وباب مع بيان - إذا اقتضى الأمر - لمورد تعارض الأخبار، أو بيان رأيه وفتواه على ضوء الروايات التي ينقلها، أو ببحث فروع الباب ومسائله بحثاً فقهياً استدلالياً قبل إيراد الأخبار الواردة فيها، كما فعل ذلك في أول كتاب الإرث أو بتلخيص عام لمضمون مجموعة من الأبواب وأحاديثها كما فعل ذلك في باب السهو والشك في كتاب الصلاة.

كما ضمّن كتابه - تمشياً مع طريقة الفقهاء في بحوثهم - استشهادات عديدة لكلمات وآراء من سبقه من الفقهاء من أصحاب الأئمة عليهم السلام ؛ من أمثال زرارة بن أعين، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان[(١)].

ونستطيع أن نبين ملامح بعده الفقهي بالأمور التالية:

---

(١)مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢٢، ص ٢٤٦ فقه الكليني دراسة وتحليل.

١ - بيان الفتوى على ضوء الأخبار والاستدلال عليها.

٢ - الجمع بين الأخبار المتعارضة.

٣ - عنايته بالأقوال.

٤ - البحث الاستدلالي في بعض البحوث المهمة.

مثال الأمر الأول: - وهو بيان الفتوى على ضوء الأخبار والاستدلال عليها - قد ذكر الفقهاء أن الغسلة الثانية في الوضوء سنة، بل ادّعي الإجماع عليها وذهب الشيخ الكليني إلى أنه لا يؤجر على الثانية، مستدلاً على ذلك بقول أبي عبد الله عليه السلام: «ما كان وضوء علي عليه السلام إلاّ مرّة مرّة» ولما كان هذا الحديث يحكي فعله عليه السلام فهو من سنخ أحاديث الوضوءات البيانية التي قد يرد عليها أنّه عليه السلام قد اكتفى بالواجب من الغسل، فإنّ الشيخ الكليني - وكأنه يجيب على هذا الإشكال المقدر - ذكر أنّ الإمام - كان إذا ورد عليه أمران كلاهما لله طاعة أخذ بأحوطهما وأشدّهما على بدنه(١).

ثم إنّه تعرض بعد ذلك للروايات المعارضة الدالة على أنّ «الوضوء مرّتان» جامعاً بينهما بأنّ ذلك لمن لم يقنعه مرّة واستزاد.

فالملاحظ من هذه الممارسة الاجتهادية أنه لم يقتصر فيها على إيراد الخبر إيراداً - كما هو دأب المحدثين - بل علل ذلك مبيناً الوجه في هذه العلّة، وهو الحديث المروي عنه عليه السلام، من أنّه كان إذا ورد عليه أمران كلاهما لله طاعة أخذ بأحوطهما وهي التفاتة ظريفة في المقام، وبذلك فأنه يجيب عن إشكال مطوي ومقدر، كما أنّه لم يقف عند أحد طرفي الأدلة في المسألة، بل أورد الروايات

---

(١) فروع الكافي: الكليني: دار الأضواء، ج ٣ ص ٣٦.

المعارضة لها، ثم صار بصدد التوجيه والجمع بينهما.

مثال الأمر الثاني: - وهو الجمع بين الأخبار المتعارضة - المشهور بين الفقهاء - بل هو موضع وفاق بينهم - أنّ الجد وكذا الجدّة، لأب كانا أم لأم، لا يرثان مع وجود الأبوين، فهما بمنزلة الأخ مع وجود الأبوين لا يرثان.

وقد عقد الشيخ الكليني باباً في أرث الجد أورد فيه ما يدل على أن الجد يقاسم الإخوة فهو بمنزلتهم، ثم أورد في باب إرث ابن الأخ والجد أخباراً تدل على أن لهما السدس طعمة، معقباً عليها بأن «هذا قد رويَّ، وهي أخبار صحيحة» ثم قال في مقام علاج التعارض ورفعه: «إلاّ أن إجماع العصابة أن منزلة الجد منزلة الأخ من الأب يرث ميراث الأخ، وإذا كانت منزلة الجد منزلة الأخ من الأب يرث ميراث الأخ يجوز أن تكون هذه أخباراً خاصة، إلاّ أنه أخبرني بعض أصحابنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطعم الجد السدس مع الأب ولم يعطه مع الولد، وليس هذا أيضاً مما يوافق إجماع العصابة أن منزلة الجد والأخ بمنزلة واحدة»(١).

فإنّ الملاحظ لهذا النص يجده أنّه قد انطوى على عملية اجتهادية توازن بين كفّتي الروايات المتعارضة في مسألة إرث الجد لتحسم التنافي بينهما لصالح الأخبار التي قام الإجماع على مدلولها، بمعنى عدم توريثه، ومن هنا فإنّ ما ورد في إطعامهما السدس محمول على الندب، قال في الجواهر: «المحكي عن الكليني رحمه الله - بعد اعترافه بأن إجماع العصابة على تنزيل الجد منزلة الأخ المعلوم عدم مشاركته الأبوين - يقضي بإرادة الندب له»(٢).

(١) فروع الكافي: الكليني: ج ٧ ص ١١٦.

(٢) جواهر الكلام: ج ٣٩، ص ١٤٠.

وكذا في مسألة وجود أب وجد ولم يكن له ولد، حيث ورد بعض الأخبار بإطعامه السدس في هذه الصورة خاصة؛ فإنّه صرح أيضاً بأن: «ليس هذا أيضاً مما يوافق إجماع العصابة أن منزلة الأخ والجد بمنزلة واحدة»[١].

مثال الأمر الثالث: - وهو عنايته بالأقوال - لأن من المسائل المهمة في البحث الفقهي الوقوف على أقوال الآخرين وآرائهم سيما في المسائل الخلافية الحساسة؛ وذلك لتحصيل الوفاق والخلاف فيها.

ومن هنا نجد الكليني قد اهتم بهذا الجانب في بعض المسائل الخلافية المهمة في باب الإرث، فتارة نجده يعني بنقل أقوال فقهائنا السابقين كيونس والفضل وزرارة، وربما يستغرق نقله عنهم صفحات من كتابه - وقد ينحصر النقل عنهم أحياناً به - وتارة ينقل آراء جمهور المسلمين ومواضع خلافهم أو وفاقهم معنا، فمثلاً في ميراث الولد قال قدس سره: «الإجماع [قائم على] أن ولد الولد يقومون مقام الولد، وكذا ولد الإخوة إذا لم يكن ولد الصلب ولا إخوة، وهذا من أمر الولد مجمع عليه، ولا أعلم بين الأمة في ذلك اختلافاً»[٢].

وفي ميراث البنتين قال قدس سره: «وقد تكلم الناس في أمر الابنتين: من أين جُعل لهما الثلثان، والله - جل وعزّ - إنما جعل الثلثين لما فوق اثنتين؟ فقال القوم: بإجماع، وقال قومٌ: قياساً؛ كما أنّ كان للواحدة النصف كان ذلك دليلاً على أنّ لما فوق الواحدة الثلثين، وقال قوم بالتقليد والرواية، ولم يُصب واحد منهم الوجه في ذلك...» [٣] إلى آخر كلامه الذي تقدم نقله.

---

(١) فروع الكافي: ج ٧ ص ١١٦.

(٢) فروع الكافي: ج ٧ ص ٧٣.

(٣) فروع الكافي: ج ٧ ص ٧٥.

ويذكر ميراث الأزواج والإخوة والأخوات فيقول قدس سره: «ثم ذكر [عز وجل] فريضة الأزواج فأدخلهم على الولد وعلى الأبوين وعلى جميع أهل الفرائض على قدر ما سمّى لهم، وليس في فريضتهم اختلاف ولا تنازع فاختصرنا الكلام في ذلك.

ثم ذكر فريضة الإخوة والأخوات من قبل الأم فقال: « ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ يعني: لأم ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وهذا فيه خلاف بين الأمة، وكل هذا ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فالإخوة من الأم لهم نصيبهم المسمى لهم مع الإخوة والأخوات من الأب والأم، والإخوة والأخوات من الأم لايزادون عن الثلث ولا ينقصون عن السدس، والذكر والأنثى فيه سواء وهذا كله مجمع عليه إلاّ أن لا يحضر أحد غيرهم»(١).

إنّ الملاحظ لهذه النماذج يلمس من خلالها سعة إطلاع المؤلف الفقهية، وعنايته بموارد الخلاف والوفاق في فقهنا وفقه الجمهور.

مثال الأمر الرابع - وهو البحث الاستدلالي في بعض البحوث المهمة - لو لاحظنا مصنفات القدماء لوجدنا اهتماماً خاصاً منهم ببعض الأبواب الفقهية، حيث كانت بعض مسائلها مدار البحث والخلاف بين الفريقين، وذلك نظير مسائل باب الوضوء والنكاح والطلاق والإرث، والسبب في ذلك هو أن مدارك تلك الأحكام والفروع هو القرآن الكريم، وهو مصدر مشترك بين الجميع قطعي الصدور عندهم، ومن هنا فإنّ الجميع يحاول التمسك بآياته وتقريب الاستدلال بها على مقصوده.

---

(١) فروع الكافي: ج ٧ ص ٧٦.

ولذا نجد أن الشيخ الكليني قدس سره في كتابه (الإرث والفرائض) قد عدل عن طريقته التي سار عليها في مجمل بحوث كتابه بالاقتصار على إيراد الأخبار، فقام أولاً في أوّل كتاب الإرث ببيان الطبقات وتوضيحها، ثم قام في باب آخر ببيان الفرائض المكتوبة لهم في الكتاب شارحاً ذلك ببيان وافٍ على ضوء الآيات المبينة للفرائض والأسهم، مع استعراض للأقوال ومواطن الإجماع والخلاف في تلك المسائل، وطرح المناقشات التي يمكن أن ترد في البحث مجيباً عليها، ثم يشرع بعد ذلك بتبويب الأخبار المتعلقة بمسائل كتاب الإرث، كل ذلك يضع الباحث أمام أُنموذج من نماذج البحث الفقهي في كتاب الكافي ليقف عند صورة تعكس مستوى البحث الفقهي لمؤلفه الفقيه وهو يخرج عن منهجه الحديثي الذي سار عليه في كتابه ليحرر بحثاً فقهياً استدلالياً في فروع ومسائل شتى.

المنطلقات الأصولية للبحث الفقهي عند الكليني

يظهر للمتتبع لتأريخ علم الأصول أن التكوين الأول لهذا العلم قد بدأ - بشكل رسمي ومقرر - في القرنين الرابع والخامس، وهذا لا يلغي - بالطبع - الجهود العلمية الأولى التي سبقت هذه الفترة والتي ظهرت في بعض مصنفات أصحاب الأئمة عليهم السلام في هذا المجال، إذ إنا نتكلم عن الوجه الرسمي لهذا العلم كصناعة مقررة تمتلك مقوماتها ومنهجها الخاص بها.

وقد عاصر فقيهنا الكليني بدايات تلك المرحلة التي أرسى قواعدها بعض معاصريه من فقهائنا العظام الذين افتقدنا آثارهم وعطاءهم العلمي، الأمر الذي افقدنا امتلاك تصور كامل وجامع في هذا المجال.

والكليني بالرغم مما اشتهر وعرف عنه من اهتمامه بأمر الحديث فإنّ المتتبع

في مجموع آرائه وبحوثه الفقهية التي ضمنها كتابه الروائي يجد أن ثمة مرتكزات ومنطلقات أصولية للبحث الفقهي عند الكليني نشير إليها لعلّها تكون ومضة في الكشف عن خلفيات البعد الفقهي عند هذا الفقيه وهي كما يلي:

الأول: الأدلة

حيث يدور محور البحث الفقهي لدى الكليني على الأدلة التالية:

أ - الكتاب.

ب - السنة.

ج - الإجماع.

أما الدليل ا لأول - الكتاب - فقد استند إليه في مجموعة من آرائه وبحوثه، والدليل الثاني - السنة - يمثل المحور الأساس في كتابه الكافي.

وأما الدليل الثالث - الإجماع - فقد ارتكن إليه في مواضع من كتابه الإرث، مرتئياً حجيّته بالرغم من عدم الوقوف على منشأ الحجية والاعتبار لديه.

فمثلاً قال في كتاب الإرث - في بيان الفرائض -: «إن الله - جل ذكره جعل المال كله للولد في كتابه، ثم أدخل عليهم بعد الأبوين والزوجين، فلا يرث مع الولد غير هؤلاء الأربعة، وذلك أنه عزَّ وجلَّ قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ (١). فأجمعت الأمة على أنّ الله أراد بهذا القول الميراث، فصار المال كله بهذا القول للولد»(٢).

---

(١) النساء: ١٧٦.

(٢)فروع الكافي: ج ٧ ص ٧٤.

فإنّ المتأمل في هذا النص يلاحظ كيف أنّه حكم الإجماع في فهم النص، وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام حيث تلفتنا إلى دور الإجماع في تبيين النص وتفسيره.

الثاني: حجية الظواهر

وهذا ما يظهر منه في مواطن عديدة في كتابه حين استشهد بالنصوص القرآنية معولاً على ظاهرها مضافاً إلى نصها.

الثالث: حجية خبر الواحد

وهي من المسائل التي احتدم الكلام فيها عند الأقدمين من فقهائنا، فذهب البعض إلى منعها وعدم العمل بها بل استحالتها، والحجة عندهم خصوص الخبر المتواتر، فيما ذهب الآخرون إلى حجيّة أخبار الآحاد واعتبارها، وممن ذهب إلى هذا الرأي فقيهنا الكليني، حيث أفتى في عدة مواضع من كتابه بمضمون أخبار الآحاد، كما يلاحظ في مجموع فقهه وفتاواه.

الرابع: التعارض

وهو من أهم مسائل علم الأصول وأجلها؛ لكثرة ابتلاء الفقيه بها في مقام البحث والاستنباط، ويرجع في مثل هذه الحالات عادة إلى المرجحات وقسمها الأصوليون إلى المرجحات السندية والمرجحات الدلالية.

وقد أشار الشيخ الكليني إلى القسم الثاني منها في مقدمة كتابه عند الإشارة إلى اختلاف الأخبار وتعارضها، منبهاً على عدم إمكان الجمع بينهما بالرأي دون الرجوع إلى الموازين التي أقامها الأئمة عليهم السلام في مثل هذه الحالات وهذه

حسب الموازين بحسب ما حددها هي:

أ - موافقته للكتاب.

ب - مخالفته للجمهور.

ج - الأخذ بالخبر المجمع عليه.

وقد قال قدس سره: «إنّه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه، إلاّ على ما أطلقه العالم بقوله عليه السلام: «اعرضوها على كتاب الله، فما وافق كتاب الله عزَّ وجلَّ فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه»، وقوله عليه السلام: «دعوا ما وافق القوم، فإن الرشد في خلافهم».

ثم يشير إلى مورد تطبيق هذه القواعد وقلّة الاطلاع على تشخيصها والوقوف عليها فيقول: «ونحن لا نعرف من جميع ذلك إلاّ أقلّه، ولا نجد شيئاً أحوط ولا أوسع من رد علم ذلك كله إلى العالم عليه السلام، وقبول ما وسّع من الأمر فيه بقوله عليه السلام: «بأيّ ما أخذتم من باب التسليم وسعكم»[(١)].

ومن تطبيقات المرجح الثالث ما أشرنا إليه سابقاً في مسألة إرث الجد مع وجود الأبوين حيث قدم الروايات الدالة على منعه من الإرث على روايات الطعمة سدساً ؛ لقيام الإجماع على الأولى مع صحة الروايات الثانية.

وقال الحجة السيد حسن الصدر في عداد مميزات كتاب الكافي: «ومنها: إنه غالباً لا يورد الأخبار المعارضة، بل يقتصر على ما يدل على الباب الذي عنونه، وربما دل ذلك على ترجيحه لما ذكره على ما لم يذكر»[(٢)].

---

(١) أصول الكافي، خطبة الكتاب: ج ١ ص ٥٦.

(٢) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٢٢، ص ٢٢٦.

الثالث: الصدوق

وهو محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الصدوق توفي سنة ٣٨١هـ: وقد ولد في قم حدود ٣٠٦هـ ببركة دعاء الإمام الحجة كما ذكرناه في الحديث عن والده يعني في أوائل سفارة الحسين بن روح وهو من أكابر علماء الطائفة حيث قال عنه النجاشي: «شيخنا وفقيهنا ووجه الطائفة بخراسان» ومثله ما ذكره العلامة، وقال الشيخ الطوسي: «محمد بن علي جليل القدر كان جليلاً حافظاً للأحاديث بصيراً بالرجال ناقداً للأخبار لم يُر في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه»[١]. وقال عنه السيد بحر العلوم: «شيخ مشايخ الشيعة، وركن من أركان الشريعة، رئيس المحدّثين، والصدوق فيما يرويه عن الأئمة الصادقين عليهم السلام»[٢].

ولشيخنا الصدوق مؤلفات كثيرة بلغت حوالي ثلاثمائة مصنف كما نص على ذلك الشيخ الطوسي في الفهرست وذكر النجاشي في رجاله عند ترجمته له حدود المائتين من أشهرها كتاب (من لا يحضره الفقيه) و(المقنع)، و(الهداية) وغيرها وصنف في شتى العلوم الفقهية والكلامية وغيرها.

وقد فقد بعضها مثل كتابه الكبير (مدينة العلم)، وقد ترجم له الشيخ (النجاشي٢/٣١١) بالتالي:

«محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، أبو جعفر، نزيل الري، شيخنا وفقيهنا، ووجه الطائفة بخراسان، وكان ورد بغداد سنة خمس

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وخمسين وثلاثمائة، وسمع منه شيوخ الطائفة، وهو حدث السن. وله كتب كثيرة، منها: كتاب دعائم الإسلام في معرفة الحلال والحرام، كتاب التوحيد، كتاب النبوة،... وكتاب مدينة العلم وكتاب المقنع في الفقه، كتاب علل الشرائع، كتاب ثواب الأعمال، كتاب عقاب الأعمال، الأوائل، الأواخر، الأوامر، النواهي، المياه، وكتب أخرى منها السواك، الوضوء، التيمم وغيرها الكثير مثل كتب المصابيح وكتب الزهد ومختصر التفسير وكتب المسائل، فذكرها النجاشي ويذكر مئتي كتاب ثم يقول النجاشي أخبرنا بجميع كتبه، وقرأت بعضها على والدي علي بن أحمد بن العباس النجاشي رحمه الله وقال لي: أجازني جميع كتبه، لما سمعنا منه ببغداد. ومات رضي الله عنه بالري سنة أحدى وثمانين وثلاثمائة»[١].

دراسة إجمالية في كتاب من لا يحضره الفقيه

ويعد هذا الكتاب ثاني الكتب الأربعة بعد كتاب (الكافي)، وضمنه الشيخ الصدوق من مرويات في الحديث ما يفتي به ويحكم بصحته، ويعتقد أنه حجة بينه وبين الله فقد قال في مقدمته: «وصنفت... هذا الكتاب بحذف الأسانيد لئلا تكثر طرقه وإن كثرت فوائده، ولم أقصد فيه قصد المصنفين في إيراد جميع ما رووه، بل قصدت إلى إيراد ما أفتي به... وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعوّل، وإليها المرجع»[٢]. وهو من أشهر الكتب التي ألفها الشيخ، وقد أحصيت أحاديثه فكانت خمسة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستين حديثاً، منها ألفان وخمسون

---

(١) المصدر نفسه ص١٥١، وتاريخ التشريع الإسلامي ص٢٤٢.

(٢) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٣٩.

حديثاً مرسلاً. وهو المنقول عن الشيخ البهائي في شرحه للكتاب[١]، والمولى مراد التفرشي في (التعليقة السجادية). وقال المحدث البحراني في اللؤلؤة (قال بعض مشايخنا: أما الفقيه فيشتمل مجموعه على أربع مجلدات يشتمل على ستمائة وستة وستين باباً)[٢].

وأما السبب في تأليف الكتاب - كما ورد في المقدّمة - أنّه تذاكر - أي الشيخ - مع محمد بن الحسن بن إسحاق المعروف بنعمة وهو أحد أعلام الشيعة في القرن الرابع حول كتاب من لا يحضره الطبيب لمحمّد زكريا الرازي، فسأله نعمة أن يكتب على غرار ذلك الكتاب في الفقه والحلال والحرام، فألّف له هذا الكتاب في سنة واحدة[٣].

ومن الظواهر البارزة في كتاب الفقيه وجود أحاديث مرفوعة إلى الأئمة مباشرة من دون ذكر طريق الرواية والسند، ففي الكتاب أكثر من ألفي مورد من ذلك، فلابد حينئذٍ من الدقة في التعبير الذي أورده في أوّل الرواية، ففي كل مورد يبتدئ فيه بـ«**قال الإمام**» فإنّه كالمتيقّن بصدور الرواية، فيكون في نظر المؤلّف حجة بناءً على ما التزم به في أول الكتاب، وفي كل مورد يبتدئ فيه بـ«**روي**» فإنّه غير قاطع بصدور الرواية، وحاول عدّة من العلماء إحصاء عدد أحاديث كتاب الفقيه، ولعل أدق من أجرى إحصاءً دقيقاً لأحاديث الفقه هو الشيخ البهائي، فقد ذكرها كما يلي:

---

(١) مقدمة الوسائل، للشهرستاني: ص٦٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٦٦.

(٣) مصادر السنة الشريفة: ص٤٨، ٤٩.

رقم المجلد	عدد الأبواب	عدد الأحاديث	المسانيد	المراسيل
1	87	1618	777	841
2	228	1667	1094	573
3	173	1810	1395	515
4	178	903	787	126
المجموع	666	5998	4053	2055[1]

قيمة الكتاب العلمية

يعد كتاب (من لا يحضره الفقيه) من أكثر مصادر الحديث اعتباراً وأعظمها اشتهاراً بين الفقهاء والمحدثين فقد حظي بعنايتهم واستأثر باهتمامهم.

قال الفقيه المعظم السيد بحر العلوم قدس سره في حقه: «أحد الكتب الأربعة التي هي في الاشتهار والاعتبار كالشمس في رابعة النهار، وأحاديثه معدودة في الصحاح من غير خلاف ولا توقف من أحد»[٢].

ويأتي هذا الكتاب في القيمة العلمية واعتماد العلماء عليه في المرتبة الثانية من بعد كتاب الكافي لثقة الإسلام الكليني. قال المحدث النوري رحمه الله: «كتاب(من لا يحضره الفقيه) الذي بعد الكافي أصح الكتب وأتقنها على ما صرّح به أئمة الفن».

ولعلّ ثمة رأياً آخر يذهب إلى ترجيحه على كتاب الكافي. قال السيد بحر

(١)مصادر السنة الشريفة: ص٤٨، ٤٩، وبحث حول الصدوق للخرازي، مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: عدد ٧، ص ١٦٥.

(٢) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٧، ص ١٦٠.

العلوم: «ومن الأصحاب من يذهب إلى ترجيح أحاديث الفقيه على غيره من الكتب الأربعة نظراً إلى:

١ - زيادة حفظ الصدوق، وحسن ضبطه وتثبته في الرواية.

٢ - تأخر كتابه عن الكافي.

٣ - ضمانه فيه لصحة ما يورده، وأنّه لم يقصد فيه قصد المصنفين في إيراد جميع ما رووه وإنما يورد فيه ما يفتي به، ويحكم بصحته، ويعتقد أنه حجة بينه وبين ربه، وبهذا الاعتبار قيل إنّ مراسيل الصدوق (الفقيه) كمراسيل ابن أبي عمير في الحجية والاعتبار، وأنّ هذه المزية من خواص هذا الكتاب، لا توجد في غيره من كتب الأصحاب.

وقد بلغ اعتماد العلماء على هذا الكتاب وسكونهم إليه حداً صرح البعض معه بقبول مراسيله والقول باعتبارها والأخذ بها كما يأخذون بمسانيده، وهو يكشف بلا شك عن مدى قيمة الكتاب واعتباره الذي هو كاشف بالضرورة عن وثاقة صاحبه ومنزلته لدى الأصحاب».

قال صاحب البلغة: « بل رأيت بعضاً من الأصحاب يصفون مراسيله بالصحة ويقولون إنّها لا تقصر عن مراسيل محمد بن أبي عمير، منهم العلامة في المختلف، والشهيد في شرح الإرشاد، والمحقق الداماد»(١).

وعلى كل حال، فقد استأثر الكتاب باهتمام العلماء أكثر من ألف عام وذلك لجملة من الأمور:

١ - شهادة مؤلفه بصحة جميع رواياته باعتبار أنّها مستخرجة من كتب

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٧، ص ١٦٠.

مشهورة وأصول معتمدة.

٢ - باعتباره يمثل آراء وفتاوى أحد أهم فقهائنا في أوائل عصر الغيبة الكبرى.

٣ - المكانة العظيمة التي يتمتع بها نفس الشيخ الصدوق رحمه الله لدقته وحفظه.

والكتاب وإن كان ممتازاً من جهة احتوائه على الصحيح بنظر الشيخ إلا أنه يحتاج إلى تمحيص من جهات، منها:

١ - إن المؤلف أدمج فتاواه في مضامين بعض الروايات، فأوجب الالتباس على المتأخرين بأن المذكور فيها هل هو نصّ رواية أم مجرد فتوى الصدوق رحمه الله.

٢ - حدوث تقطيع في بعض الروايات، واختزال مضامين بعضها.

٣- احتواء الكتاب على فتاوى غريبة مثل:

أ - عدم جوار الصلاة إلاّ مع التحنّك.

ب - إمكان السهو على النبي في غير حالة التبليغ.

ج - عدم وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التشهد.

د - القنوت في الصلاة سنة واجبة، وإن من تركه متعمداً لا صلاة له[١].

وغيرها مما يجعل الكتاب خاضعاً لمعايير النقد العلمي والتمحيص الدقيق وإن كان مؤلفه جليلاً كبيراً أو عاصر اثنين من السفراء كما هو المعروف[٢].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) انظر أدوار الفقه الإمامي، جعفر السبحاني، ص٧٩ وانظر: مقدمة الوسائل جواد الشهرستاني.

بيان حول المقنع والهداية:

وهما في الفقه المأثور، عملهما الشيخ الصدوق وأسقط أسانيدهما، وقد نسج في ذلك على منوال أبيه في رسالته المسمّاة بـ«الشرائع» والذي يظهر من كلامه في مقدّمة «من لا يحضره الفقيه» أنهما كُتبا قبله.

وقد نقل الفقهاء على مرّ العصور آراء الشيخ الصدوق من هذين الكتابين، واعتنوا بأمرهما سيّما كتاب «المقنع» الذي هو متون أخبار، وقد صرح الشيخ الصدوق بذلك في مقدمته، وكذا المحدث النوري، والمحقق الهمداني في بحث الزكاة والسيد الخميني والسيد الخوئي في بحوثهما الفقهية واستدل المحدث النوري لذلك بأمرين:

الأول: تصريح الشيخ الصدوق بعد خطبة الكتاب بقوله: «إني صنفت كتابي هذا وأسميته المقنع لقنوع من يقرأ بما فيه، وحذفت الأسانيد منه لئلا يثقل حمله ولا يصعب حفظه ولا يملّه قارئه؛ إذ كان ما أبيّنه فيه من الكتب الأصولية موجوداً مبيّناً عن المشايخ العلماء الفقهاء الثقات»[1].

الثاني: ما يظهر من مواضع من الكتاب أنّ ما يذكره متن الحديث، ثمّ يذكر بعض الشواهد لذلك.

واستفاد المحدث النوري من كلام المؤلّف في الأمر الأول أن هذا الكتاب يتفوق على «من لا يحضره الفقيه»؛ إذ ما فيه موجود في الكتب الأصولية ومبيّن عند المشايخ والفقهاء وهذا بعكس «من لا يحضره الفقيه» إذ جملة من مآخذه ضعيفة الإسناد كنوادر الحكمة وكتاب المحاسن.

(١) المقنع: الصدوق، مؤسسة الإمام الهادي، مطبعة اعتماد، قم، ١٤١٥، ص ٥.

والمقنع دورة فقهية تبدأ بكتاب الوضوء وتنتهي بكتاب الديات وأما كتاب الهداية فإنه يأتي لدى الفقهاء في المرتبة الثانية من بعد المقنع من حيث الأهمية[١]. وهو في الفقه المأثور أيضاً.

منهجيّة الصدوق الفقهية

لا شك أن المرحلة التي عاشها الشيخ الصدوق هي مرحلة الفقه الروائي والفقه المأثور، وإن كانت بدايات مرحلة الفقه الاستدلالي والتفريعي قد بذرت بذورها الأولى على يدي الفقيهين القديمين ابن الجنيد الإسكافي (المعاصر) للشيخ الصدوق وكانت بيئته ببغداد وابن أبي عقيل العماني (الذي يعتبر أقدم طبقة منه)، إلاّ أن الشيخ الصدوق بقي محافظاً على طريقة المحدثين تأثراً منه بمدرسة قم التي كانت تؤكّد على أمرين مهمين يعتبران من أهم الشواخص البارزة لمدرسة أصحاب الحديث وهما:

أولاً: عدم فصل الفقه عن الحديث. كما أشرنا سابقاً.

ثانياً: إبعاد المنهج العقلي الذي يتخطّى النص وحرفيّته في طريقة التفكير الفقهي وربما كانوا ينظرون إلى هذا المنهج على أنّه ضرب من القياس المنهي عنه، إلاّ أنه يمكن اعتبار منهج الشيخ الصدوق في الفقه منهجاً تجديدياً - وفي حدود معينة - بالنسبة لمدرسة المحدثين وذلك من خلال إدخاله بعض التغييرات التالية:

١ - حذف الأسانيد كاملة وإفتاؤه بلسان الرواية أو مضمونها، كما فعل في المقنع والهداية، وهذه الطريقة لم يعمل بها أحد من قبل من المحدثين إلاّ والده في رسالته الموجّهة إليه المسماة «الشرائع» فأراد الشيخ الصدوق لهذه الطريقة أن تتركز

---

(١)انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٧، ص ١٧١ـ ١٦٨.

وتأخذ طريقها بصورة أوسع في مؤلفات المحدثين والفقهاء، وجرى على الطريقة ذاتها في «من لا يحضره الفقيه» مع فارق ذكر الأسانيد في «المسندة» أو «المشيخة» في آخر الكتاب.

وقد استفاد الشيخ المفيد في «المقنعة» وتلميذه الطوسي في «النهاية» من هذه الطريقة، وقال المجلسي الأول في وصف ذلك: «ونعم ما فعل، فإنّ الظاهر أنه لم يسبقه إليه ولم يلحقه أحد من العامة والخاصة، وفوائده كثيرة مع قطع النظر عن الاختصار» (١).

٢ - لو أردنا أن نؤرخ لمبدأ كتابة الرسائل العملية لدى الفقهاء فإنّ كتاب «من لا يحضره الفقيه» يعتبر أوّل رسالة عملية في تاريخ الفقه الإمامي؛ إذ لا نجد في مصنفّات من تقدمه أو عاصره ما يكون قد أُعدّ لهذا الغرض، ومما يزيد الأمر وضوحاً ملاحظة الأمرين التاليين:

أ - تصريح الشيخ الصدوق في مقدمته بأنّ ما يورده فيه بلسان المأثور، والخبر يعبّر عن رأيه وفتواه، فالكتاب بنظره كتاب فتوى قبل أن يكون كتاب حديث.

ب - إنّ الغاية التي من أجلها دوّن الصدوق هذا الكتاب تتحدّث بأن يكون مرجعاً في الحلال والحرام لمن رغب وطلب تأليفه (وهو الشريف نعمة) ولعامة الناس، وعليه فالكتاب وضع أساساً كرسالة عملية يرجع إليها في أخذ الحكم الشرعي، ولذلك أوردنا حوله دراسة باعتباره من كتب الفقه والفتوى مضافاً إلى أنه من كتب الحديث المهمة، كما بينا سابقاً.

---

(١)انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٧، ص ١٧٣.

وبهذا فلا يمكن موازنة الكتاب بالكافي، لأنه لم يفرد لهذا الغرض، ولا برسالة ابن بابويه رحمه الله لولده الصدوق.

ثم إنّ ممّا لا يستبعد أيضاً في هذا المجال كون كتابيّ (المقنع) و (الهداية) قد أُعدّا لهذا الغرض، وشاهد ذلك قول الصدوق في (المقنع) إنّه حذف الإسناد منه لئلّا يثقل حمله.

ومنه نعرف أنا لا نكون مبالغين إذا اعتبرنا الأمر المشار إليه من ابتكارات الشيخ الصدوق وإبداعاته.

ولابد من ذكر أنّ الصدوق ومن خلال الأسلوب الذي اتبعه في تدوين الكتاب كان يهدف إلى تحقيق أمرين:

الأول: ضبط آرائه وفتاواه.

الثاني: ضبط وتدوين مجموعة روائية نفيسة تعتبر من أروع المصادر في الحديث.

٣ - ومما نلاحظه أيضاً في منهج الشيخ الصدوق اعتماد الجمع المبوّب والمنظم لروايات الفقه، وهذا يشكل فارقاً بينه وبين الفقهاء الرواة الذين يعتمدون في طريقتهم الجمع غير المنظم للروايات بشكل عام.

إن هذه المحاولات أسهمت ومن دون شكّ في تطوير حركة الفقه المأثور وإخراجه من حالة التقليد والركود التي كانت تعيق نموّه وازدهاره، وبهذا يكون الشيخ الصدوق قد خطا بالفقه خطوة قرّبته من أعتاب المرحلة الاستدلالية والتي قام بتشييد أركانها وتعديلها في ما بعد الشيخ المفيد جرياً على ما أسسه القديمان وعلى هذا الأساس لابد من الفصل والتمييز لدور الشيخ وفصله من المحدثين

(الحشوية) الذين لا يسعهم إلاّ جمع الحديث، ولا يراعون المقاييس العلمية في علمي الحديث والرجال فضلاً عن علم الفقه.

وهؤلاء الأعلام - الصدوقان والكليني - من أبرز العلماء الذين يمثلون الاتجاه الروائي والحديثي ولقد كان علماء هذا الاتجاه - الاتجاه الأول - كالصدوقين والكليني وغيرهم، وخصوصاً خريجو مدرسة قم ينظرون إلى الاستدلالات العقلية بأنها نوع من القياس الذي نهى عنه الأئمة عليه السلام، ويرون أن النهي الوارد عن الأئمة عن العمل بالقياس شامل لتلك الاستدلالات العقلية، وقد كتب الكثير من علماء الشيعة في رد الاجتهاد كالنوبختي وأبي القاسم علي بن أحمد الكوفي[١].

الاتجاه الثاني: الاتجاه العقلي

ويمثله علماء الفقه الذين يعتمدون على مبانيهم الأصولية العقلية ولهم طريقة خاصة بهم في الاستدلال الفقهي تختلف عن طريقة الاتجاه الأول بل كانوا يستدلون بالعقل على كثير من الأمور.

أبرز فقهاء الاتجاه العقلي وآثارهم الفقهية

الأول: ابن أبي عقيل العماني

وهو الحسن بن علي بن أبي عقيل الحذّاء المعروف بـ(ابن أبي عقيل العماني)، وهو شيخ فقهاء الشيعة، والظاهر أن الزعامة الدينية كانت له بعد زمن الغيبة الصغرى وانتقلت إليه بعد وفاة آخر السفراء الأربعة.

---

(١) انظر: رجال النجاشي، ٢٦٥، وانظر: أعلام الفقهاء والمحدثين، ص١٣٩.

وهذا العلم هو أول من أدخل الاجتهاد بشكله المعروف إلى الأبحاث العلمية وصنف كتاب (المتمسك بحبل آل الرسول) وهذا الكتاب كان في القرنين الرابع والخامس من أهم المراجع الفقهية عند الشيعة، وهو أول من حرر المسائل الفقهية وذكر لها الأدلة وفرع عليها الفروع في ابتداء الغيبة الكبرى[١].

وقد أثنى الشيخ المفيد على كتاب (المتمسك بحبل آل الرسول) كثيراً، كذلك أثنى علماء الرجال على كتابه المذكور وعدّه النجاشي من كتب الشيعة المشهورة. ويقول النجاشي في ترجمته - للعماني -: «أبو محمد العماني الحذّاء، فقيه، متكلم، ثقة، له كتب في الفقه والكلام منها: (المتمسك بحبل آل الرسول) كتاب مشهور في الطائفة، وقيل ما ورد الحاج من خراسان إلا طلب واشترى منه نسخة»[٢].

كذلك أثنى عليه وعلى كتابه كل من: الشيخ الطوسي في الفهرست، والعلامة في الخلاصة، وينقل أن السيد البروجردي كان يتأسف كثيراً لعدم وصول الكتاب إليه[٣].

ويقول السيد بحر العلوم في ترجمته للعماني:

«إن حال هذا الشيخ الجليل في الثقة والعلم والفضل والكلام والفقه أظهر من أن يحتاج إلى بيان، وللأصحاب مزيد اعتناء بنقل أقواله وضبط فتواه خصوصاً الفاضلَين ومن تأخر عنهما، وهو أول من هذّب الفقه واستعمل النظر وفتق

---

(١) أعلام الفقهاء والمحدثين، ص١٩٤، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٥٠، وانظر: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية: ص٢٤٧.

(٢) رجال النجاشي: ترجمة رقم ١٠٠.

(٣) انظر تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، جعفر السبحاني، ٢٤٣.

البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى»[١].

ويصفه العلامة الحلي بقوله: «فقيه ثقة متكلم، له كتب في الفقه والكلام، منها (المتمسك بحبل آل الرسول) كتاب مشهور عندنا، ونحن نقلنا أقواله في كتبنا الفقهية، وهو من جملة المتكلمين وفضلاء الإمامية»[٢]. وكان عبقرياً ومحل اعتراف وتقدير من الحواضر العلمية وعامة الناس في عصره، وإن الشيخ جعفر بن محمد ابن قولويه - كبير علماء قم وأستاذ المفيد - كتب إلى ابن أبي عقيل يستجيزه رواية كتبه وعلمه فأجازه، وكان ابن قولويه يعتز بهذه الإجازة[٣]، وكان ابن أبي عقيل أول من طرح مسألة (عدم انفعال الماء القليل) وتبعه على ذلك آخرون وله فتاوى غريبة نقلها العلماء في كتبهم وخاصة العلامة الحلي، وأخص بالذكر كتاب (المختلف) للعلامة الحلي، وأخيراً قام مركز المعجم الفقهي في مدينة قم باستخراج آرائه من الكتب الفقهية المتوفرة وإيداعها في مجلد واحد، طبع في سنة (١٤١٣ هـ) تحت عنوان «حياة ابن أبي عقيل وفقهه»[٤]. وهو من طبقة الكليني، لأن ابن قولويه تلميذ الكليني ينقل عنه بالإجازة كما قدمنا أعلاه، وقد أدرك العماني رضي الله عنه زمان (السمريّ) آخر السفراء وعاصر الصدوق الأول فضلاً عن الكليني. وسيرته مكتنفة بالغموض فلم يعثر على أساتذته وتلاميذه، ومن مبانيه عدم الأخذ بخبر الواحد ولا يعمل إلاّ بالأخبار المتواترة إلا أنه كالمفيد والمرتضى يدّعي التواتر كثيراً في ما لا تواتر فيه.

---

(١) الفوائد الرجالية: ج ٢، ص ٢٢٠.

(٢) خلاصة الأقوال: العلامة، ص ١٠١.

(٣) انظر أعلام الفقهاء والمحدثين، ص١٩٤.

(٤) انظر تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، جعفر السبحاني، ٢٤٣.

الدور العلمي والبعد الفقهي للعماني

اتضح لنا من خلال الكلمات السابقة للفقهاء الأعلام المكانة المرموقة لابن أبي عقيل العماني، فقد أجمعت كلماتهم على وصفه بالفقاهة والتضلّع في الكلام وله آثار فقهية وكلامية والمهم عندنا هنا هي الآثار الفقهية حيث كان كتابه المتمسك بحبل آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أهم آثاره الفقهية وضعه في الفقه الاستدلالي والتفريعي بشكل موسع وقد كان هذا الكتاب مشهوراً بين الطائفة كما تصفه عبارة النجاشي وعبارة الشيخ الطوسي وبلغ اشتهاره وذيوع صيته بعد فراغه من تأليفه بفترة وجيزة، وما هذا إلاّ لمكانة الكتاب ومنزلة مؤلّفه عند الطائفة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وقد كان الكتاب إلى فترة متأخرة عن ذلك محطّ نظر الفقهاء واهتمامهم فاعتنوا بنقل أقواله واستدلالاته وتفريعاته، وهذا ما نشاهده في فقه الحليّين الثلاثة (ابن إدريس والفاضلين) أكثر ممن سبقهم نظراً لكثرة التفريع والتشقيق لمسائل الفقه آنذاك، وانفتاح الفقه الإمامي، وقتئذٍ على فقه المذاهب الأخرى سيّما في عصر الفاضلين، أي العلامة والمحقق ففي هذه الفترة تبوءَ كتاب المتمسك مقاماً سامقاً، وشهرة عظيمة في كتب الفقهاء، فقد ذكر العلامة الحلّي المتوفى (٧٢٦هـ) في وصفه أنّه: «كتاب مشهور عندنا، ونحن نقلنا أقواله في كتبنا الفقهية»[١] كما تقدمت الإشارة إليه، وهو صريح في وصوله إليه، واشتهاره في زمانه، كما أن المنقول عن ابن إدريس المتوفى (٥٩٨هـ) وصول هذا السفر إليه.

وأما طبيعة موضوع الكتاب، فإنه يتحدّد بالفقه الاستدلالي وغيره أيضاً، كما

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ٨، ص ١٦٦، نقلاً عن الخلاصة للعلامة الحلي: ٤٠، الرقم ٩.

نصت عليه عبارة الشيخ الطوسي؛ حيث ذكر أنّه في الفقه وغيره، ولا يستبعد أن يكون مؤلفه قد ذكر فيه بعض المباحث الأصولية والكلامية على طريقة القدماء، وهكذا فقد بقي هذا الأثر الفقهي العظيم يتلألأ بآرائه الثاقبة في كتب فقهائنا المتأخرين، ومتأخريهم، كصاحب الرياض والمسالك والذكرى والحدائق والجواهر وغيرها من مصنفات الأعلام لما وجدوا فيه نظرات بديعة وتشققات لطيفة واستدلالات رصينة وصائبة وقد ضاع هذا التراث بعد زمن العلامة الحلي أو الشهيد الأول على ما يظهر منه في الذكرى وصول الكتاب إليه.

وإن الملاحظ للأوضاع العلمية في القرن الرابع والخامس يجد تمازجاً وتداخلاً بين جملة من العلوم التي ربما يصعب وضع الفواصل بينها، وأهم تلك العلوم هي العلوم الشرعية (الفقه والحديث) والعقائدية (الكلام)، وهذه العلوم كانت تمثّل ثقافة العصر ومعيار العلم فيه، وقد اختص علم الحديث منها بشأن خاص ورسالة مهمة، حيث هيمنت مدرسة الحديث في المائة الرابعة على الفضاء العلمي بمختلف مرافقه الفقهية والكلامية والتفسيرية، فكان منهجها الرائد المساحة العلمية والموجّه لها، والذي يحول دون بروز منافس له يحجمّه ويعيق حركته، وكان من أقطاب هذه المدرسة كما تقدمت الإشارة إليه ثقة الإسلام الكليني والشيخ الأجل ابن بابويه القمي وولده رئيس المحدثين الصدوق وابن قولويه (قدست أسرارهم) ومن هنا فقد صبغت هذه المنهجية مجمل العطاء العلمي لتلك الفترة، ولم تخرج مصنفات أصحابنا عن أطار المنهج الروائي فدونك ما دوّن آنذاك في الفقه والكلام والتفسير، بل وحتى الرجال (كما هو واضح لمن لاحظ رجال الكشي).

وفي زحام هذه الحقبة وتراكماتها يطّل الفقيه العماني على الساحة العلمية

بكامل ثقله ليبذر البذور الأولى لمرحلة جديدة في نمط التفكير الفقهي وحتى الكلامي فصار من أبرز معالم هذه المرحلة اعتماد العقل ونتاجاته أداة أُخرى في البحث العلمي يضاف إلى كفّة النقل وأدواته (الكتاب والسنة).

فقد حاول العماني في بعده الفقهي تثبيت منهجية تأسيسية، وذلك عندما اعتبر العقل مصدراً ثالثاً من مصادر الاجتهاد بعد أن كانت مدرسة الفقه المأثور (المحدّثين) تعتمد مصدرين فحسب (الكتاب والسنّة)؛ ولذا فإنّها لا تتخطّى النص في ممارساتها الاجتهادية، وهذا أمر واضح لمن وازن بين فقه هاتين المرحلتين، وبهذا يكون العماني قد فتح أمام الفقه والفقهاء أفقاً رحيباً وخصباً لم يعهد من قبل من غالب الاستنباطات الفقهية، ويعتبر هذا التجديد في فقه تلك المرحلة من أهمّ المنعطفات التي تعرّض لها فقه الإمامية، وبقي محافظاً ومتمسكاً بها إلى عصرنا الحاضر.

وبهذا الصدد يقول فقيه الطائفة السيد بحر العلوم، واصفاً دور الفقيه العماني: «هو أول من هذّب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى، وبعده الشيخ الفاضل ابن الجنيد، وهما من كبار الطبقة السابقة»[1].

وأيضاً ذكر العلامة الحجة السيد حسن الصدر مشيداً بمنهج العماني وطريقته قائلاً في نعته: «أحد أركان الدين، المؤسّس في الفقه، والمحقق في العلوم الشرعية، والمدقق في العلوم العقلية، له كتب في كل الفنون الإسلامية، اشتهر بالفقه والتفريع»[2].

---

(١) الفوائد الرجالية: ٢/٢٢٠.

(٢) تأسيس الشيعة للعلوم الإسلامية: ٣٠٣.

نتائج وأهداف المنهج الفقهي للعماني

ومن أهم الأهداف التي كان العماني يطمح إلى تحقيقها عبر جهوده العلمية المتوجّة في مجال الفقه، هو التركيز على إراءة منهج فني علمي قائم على أسس ثابتة وقواعد علميّة رصينة كبديل عن المنهج القديم، وتحاشياً لنقاط الضعف فيه (كقلّة التفريع، والجمود على ظاهر النصّ)، وفي طول الغرض المذكور يأتي هدف آخر يتلخص في الدعوة إلى فصل الفقه عن الحديث كعلم مستقل له قواعده ومكوّناته ومبادؤه، كما أنّ له لغته وأدواته الخاصة في الخطاب تختلف عن لغة النصّ، الأمر الذي لم تألفه مدرسة الحديث في فقهها الروائي، غير أن الذي لابدّ من ملاحظته هو مدى نجاح العماني في هذا الميدان، وهل تحقّقت الأهداف التي وظّف جهوده من أجلها؟

أجل، لقد تمكن رحمه الله من تحقيق تلك الأهداف، وأتت تلك الجهود ثمارها، وتكللت بالنجاح في الحقبة التي أعقبت عصره بقليل؛ إذ لم تتهيّأ الظروف المناسبة لانتشار طريقته في عصره، وذلك لأسباب خارجية كابتعاده عن مراكز التأثير في الساحة العلمية، وعدم وصول كتبه إلى بعضها كقم والريّ، وخلوّ مدرسته بعمان من الأتباع والمؤازرين ممّن يرتقب منهم نشر آرائه ومذهبه، أو لأسباب موضوعية - وهي الأهم - يأتي في صدارتها عدم تفاعل مدرسة الحديث مع مسلكه ومنهجه بالرغم من انتقال آثاره ومصنفاته إلى بغداد.

ولا نستبعد أن يكون معاصره أحمد بن محمد بن الجنيد ببغداد قد استلهم من طريقته ومنهجه إذ قد عرف عنه سابقاً - أيضاً - اعتبار العقل واستدلالاته مصدراً رئيسياً من مصادر الاجتهاد والاستنباط.

وعلى أي تقدير، فإنّه لم تمضِ برهة طويلة حتى قيّض الله رجلاً قد اتسع صدره للعلم، غزير المواهب، متوقد الذهن، تتفجر جوانبه علماً وفقهاً ونعني به فخر الطائفة الشيخ المفيد، فقد وعى هذا الشيخ الجليل ما كان يصبو إليه ابن أبي عقيل العماني، واستوعب مبانيه وأصول مسلكه، فسعى إلى تطبيقها ونقلها إلى واقع الممارسة الاجتهادية، وقد نجح في ذلك لأسباب عديدة، أهمها:

١ - مواهبه وقدراته الذاتية.

٢ - إقامته في عاصمة العلم بغداد وموقعه المتميّز فيها.

٣ - تمكنه من تشييد مدرسة وتخريج جيل من الفقهاء يعدّون من النوادر والأفذاذ كالشريف المرتضى والشيخ الطوسي، وغيرهم من الأقطاب ممن عمل على إحكام قواعد هذه المدرسة.

وعلى كل حال فقد كان المفيد ممّن تأثر بطريقة العماني - بواسطة شيخه ابن قولويه - ولذا فإنّه لم يكن يخفي إعجابه واستحسانه لها في مجالس بحثه ودرسه، ولم يكن هذا الإعجاب والإطراء منحصراً بالمفيد ومن عاصره من الفقهاء بل أدرك المتأخرون عنه المكانة الخاصة لفقه العماني وآرائه، فاعتنوا بنقل أقواله واستدلالاته، وأثنوا عليه بكل مكرمة وجميل. كما تقدم، وخلاصة القول هي: إن الفقه الإمامي الاجتهادي قد قام على الأسس التي أرسى العماني دعائمها، وشاد أركانها الشيخ المفيد وتلامذته من بعده كما سوف يأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله تعالى، هذا مع الاعتراف بجهود جميع فقهائنا ممّن جدّد وزاد في هذا العلم من أجل إثرائه ورفده.

الثاني: ابن الجنيد الإسكافي

وهو أبو علي، محمد بن أحمد بن الجنيد المعروف بـ(الإسكافي)، وهو من أبرز علماء القرن الرابع الهجري ومؤلف كتاب (تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة) و(الأحمدي في الفقه المحمدي) والكتاب الأول من الكتب التي كانت موجودة حتى عصر العلامة الحلي ولكنها فقدت بعد ذلك ولم يُعد لها أيّ خبر يذكر.

وقد وصفه العلامة بحر العلوم بقوله: «كان من أعيان الطائفة، وأعاظم الفرقة، وأفاضل قدماء الإمامية، وأكثرهم علماً وفقهاً، وأدباً وتصنيفاً، وأحسنهم تحريراً، وأدقهم نظراً، متكلم، فقيه، محدث، أديب، واسع العلم، صنف في الفقه والكلام والأصول والأدب وغيرها، تبلغ مصنفاته عدا أجوبة مسائله، من نحو خمسين كتاباً»[١]. وقال السيد بحر العلوم: «وهذا الشيخ على جلالته في الطائفة، والرئاسة، وعظم محله، قد حُكي عنه القول بالقياس، واختلفوا في كتبه، فمنهم من أسقطها، ومنهم من اعتبرها»[٢]. وقال الشيخ الطوسي: «كان جيد التصنيف حَسَناً، إلاّ أنه كان يرى القول بالقياس، فتركت لذلك كتبه ولم يعوّل عليها وله كتب كثيرة، منها: كتاب (تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة) كبير نحو من عشرين مجلداً، يشتمل على عدد كتب الفقه على طريق الفقهاء، وكتاب (الأحمدي للفقه المحمدي) في الفقه مجرداً، ثم ذكر أسماء بقية كتبه»[٣]، وقد كان مسلك ابن الجنيد غير موافق لرضا أعلام الأمة، كالمرتضى والمفيد الذي أفرد في نقد مسلكه رسالتين ذكرهما النجاشي عند ترجمة المفيد:

(١) الفوائد الرجالية: ج ٣، ص ٢٠٥ـ ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٠٧.

(٣) الفهرست للشيخ الطوسي برقم ٦٠٢.

الأولى: نقض رسالة الجنيدي إلى أهل مصر.

الثانية: النقض على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي[(١)].

فهذه الكتب من الشيخ المفيد توقفنا على أن ابن الجنيد كان متأثراً بالأساليب الفقهية للعامة.

دور ابن الجنيد في تطوير حركة الاجتهاد

ليس بإمكان أي باحث في تاريخ الفقه ومراحل تطوره أن يغفل الدور الحسّاس للفقيه الإسكافي في تدشين منهج جديد لطريقة البحث الفقهي، فهو ثاني شخصيّة علميّة - من بعد ابن أبي عقيل العماني - تتجاوز المنهج المعتمد لدى الطائفة طيلة ثلاثة قرون متوالية.

لقد حاول الإسكافي من خلال مصنّفاته الفقهية الواسعة أن يحقّق نقلة جوهرية في الفقه شكلاً ومضموناً. ويمكن رسم الملامح العامة لذلك فيما يلي:

أولاً: تأسيس الفقه التفريعي

لم تعهد مدرسة بغداد فقيهاً سبق الفقيه الإسكافي في الدعوة للفقه التفريعي، وترك الفقه المنصوص. وكأنه أراد لعلم الفقه أن يخرج من ربقة النصّ وانحصاره في مجموعة قضايا منصوصة إلى حيث القدرة على التفريع وفرض المسائل وتكثيرها.

يقول محمد باقر الصدر في دراسته لطبيعة تلك المرحلة وتحديد بدايات طرح الفقه التفريعي: «يجب أن لا نفهم من النصوص المتقدّمة التي كتبها الشيخ الطوسي أنّ نقل الفكر الفقهي من دون الاقتصار على أصول المسائل والجمود على صيغ

---

(١) رجال النجاشي، برقم ١٠٤٨.

الروايات إلى دور التفريع وتطبيق القواعد قد تمّ على يد الشيخ فجأة وبدون سابق إعداد، بل الواقع أنّ التطوّر الذي أنجزه الشيخ في الفكر الفقهي كان له بذوره التي وضعها قبله أُستاذاه السيد المرتضى والشيخ المفيد، وقبلهما ابن أبي عقيل وابن الجنيد، كما أشرنا سابقاً، وكان لتلك البذور أهمّيّتها من الناحية العلمية، حتى نقل عن أبي جعفر بن معد الموسوي - وهو متأخّر عن الشيخ الطوسي - أنّه وقف على كتاب ابن الجنيد الفقهي، واسمه التهذيب، فذكر أنّه لم يرَ لأحد من الطائفة كتاباً أجود منه، ولا أبلغ ولا أحسن عبارة ولا أرقّ معنى منه، وقد استوفى فيه الفروع والأصول، وذكر الخلاف في المسائل، واستدلّ بطريقة الإمامية وطريقة مخالفيهم. فهذه الشهادة تدلّ على قيمة البذور التي نمت حتى آتت أُكلها على يد الطوسي»[١].

ثمّ ذكر أنّ «كتاب المبسوط لم يكن إلاّ تجسيداً للتوسّع والتكامل للفكر الفقهي الذي كان قد بدأ بالتوسّع والنمو والتفريع على يد ابن الجنيد»[٢].

وقد كان المعتمد له في انطلاقته التجديدية هذه ركيزتين:

١ - التوسعة في أدلّة الحكم الشرعي وأدوات الاستنباط بما يشمل الدليل العقلي والإجماع والأصول العملية.

٢ - مسلكه في حجّيّة خبر الواحد.

ولا شكّ في أنّ هذين العاملين يضاعفان من قدرة الفقيه على الاستنباط وإثراء الفقه؛ ولذا فإنّ تراثه الفقهي جاء متميّزاً من هذه الجهة، فنحن نقرأ عن كتاب «تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة» أنّه كان في عشرين مجلداً، فاختصره في

---

(١) المعالم الجديدة: ٦٢.

(٢) المصدر السابق.

«المختصر الأحمدي»، وأنّ عدد أبوابه تربو على المائة وأربعين باباً... وهو عمل لا شك أنّه لم تسبقه إليه جهود فقهاء مدرسة الحديث، بل وحتى جهود البعض من أعلام الفقه التفريعي.

أجل، إنّ مختصرات الفقهاء الرواة - كالرسالة لعلي بن بابويه والمقنع والهداية لولده الصدوق وكتب ابن قولويه وغير هؤلاء من الأجلّاء - لم تعهد هذا النوع من البسط والسعة في عرض المضمون الفقهي.

ثانياً: إدخال عنصر الاستدلال

بمعنى أنّ الفقه الذي دعا إليه ابن الجنيد هو الفقه التفريعي الاستدلالي لا الفقه الفتوائي المجرّد، وقد تلا في ذلك تلو الفقيه العماني في كتابه «المتمسك بحبل آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

وأيّاً كان، فإنّ بداية هذا النمط من البحث والتدوين لدى الطائفة كان على يدي هذين الفقيهين القديمين، فهما رائدا هذا الميدان، ثمّ تلاهما شيخ الطائفة الطوسي، فتوّج تلك الجهود المباركة بكتابه العظيم «المبسوط»، فكان آية في هذا الفن وأُعجوبة بارى من خلالها فقه المذاهب الإسلامية الأُخرى التي كان البعض منها يستحقر فقه أصحابنا ويستنزره وينسبه إلى قلّة الفروع والمسائل [(١)].

بيد أنّ الطابع العامّ لكتاب المبسوط ليس هو الاستدلال وإنّما التفريع وذكر المسائل؛ إذ الغاية من تأليفه هو ذلك، وربّما أومأ إلى الدليل فيما لو كان الفرع غريباً أو مشكلاً على ما رسمه في مقدّمة الكتاب[(٢)]، كما سيأتي الكلام عنه.

---

(١) المبسوط ١/٢.

(٢) المبسوط ١/٣.

ثالثاً: التوسعة في أدوات الاستنباط

اعتمدت مدرسة الفقه المأثور النصّ مرجعاً وحيداً في اجتهادها، فيما وسّع الفقهاء المحصّلون تلك المرجعية لما يشمل الدليل العقلي والإجماع والأصول العمليّة.

وقد كان لهذه التوسعة أثرٌ ايجابيٌ كبيرٌ في تطوير وإنماء حركة الاجتهاد، ويمكن أن نقول إنّه حقّق نقلة نوعية في واقع الممارسة الاجتهادية عند الطائفة بحيث جعلتها على أبواب بل في واقع مرحلة جديدة.

رابعاً: عدم التقيد بالنصّ

نلاحظ أن فقه هذه المرحلة الجديدة وضع صياغات خاصة للمضمون الفقهي بعيداً عن الالتزام بحرفية النص متناً وسنداً، فتحرير النص الفقي يكون من إنشاء الفقيه، وهذه نتيجة طبيعية تلازم تأسيس الفقه التفريعي؛ إذ ثمّة فروع فقهية لم يرد فيها النص بالخصوص وإنّما اجتهد فيها الفقيه بالتمسك بعموم أو إطلاق أو أصل عقلي أو شرعي أو إجماع.

ومن هنا فإنّ من إفرازات المرحلة الجديدة (الفقه التفريعي) التجديد في لغة الفقه وآليّات البيان والتعبير فيه، فلا تقيّد في بيان الفتوى بألفاظ النص أو سنده ما دامت الحاجة لا تحتّم ذلك، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعني عدم الإفادة من متون الأحاديث وهجرها بالمرّة من قِبل فقهاء هذه المرحلة، بل إنّ التأليف بهذا الأسلوب بقي مستمرّاً إلى عصر شيخ الطائفة، حيث ألّف بنفسه كتاب النهاية في مجرّد الفقه والفتوى الذي هو متون الأخبار ومضامينها مع حذف الإسناد.

خامساً: تأسيس الفقه المقارن

لا نبالغ إذا اعتبرنا الفقيه الإسكافي أول فقيه من فقهاء الطائفة وربما فقهاء الإسلام يضع مصنَّفاً فيما يسمّى بـ «علم الخلاف» أو الفقه المقارن.

فقد كتب كتابه التهذيب وتعرّض فيه للآراء والاتجاهات المخالفة عند العامة مستعرضاً أدلّة المسألة من الجانبين، كما ورد ذلك في عبارة السيد محمد بن معد الموسوي حيث وصفه بأنّه: «قد استوفى فيه الفروع والأصول، وذكر الخلاف في المسائل، واستدل بطرق الإمامية وطرق مخالفيهم»[١].

كما أنه كتب «تبصرة العارف ونقد الزائف» حيث ذكر فيه الاحتجاج للمذهب والردّ على المخالفين فيه والانفصال من المعارضات التي يعارضون بها في الأحكام.

وظاهرة المناظرة والمقارنة بين الآراء تعدّ أمراً طبيعياً في مثل بغداد التي كانت تحتضن مختلف المذاهب والمدارس والتيارات الفقهية والكلامية والفلسفية، وعليه فكان من الطبيعي أن يدرك فقهاء الإمامية ضرورة هذا الأمر ولزومه من أجل إعطاء صورة واضحة ومشرقة عن مذهب أهل البيت عليهم السلام والتعريف به والكشف عن أصالته وتفوّقه مقارناً بآراء باقي المذاهب الأُخرى، فانبرى لذلك شيخنا الإسكافي وكان المؤسس في هذا المضمار.

مكانة فقه ابن الجنيد عند فقهاء الإمامية

اتسم التراث العلمي لابن الجنيد الإسكافي بالموسوعية والاستيعاب لفنون عديدة وعلوم كثيرة، ولتراثه الفقهي مساحة واسعة وحظ وافر من ذلك، فقد

(١) إيضاح الاشتباه: ٢٩١.

ناهزت مصنفاته في ذلك التسعة عشر كتاباً ما بين دورة فقهية كاملة أو مفرد في موضوع خاص. ويأتي في الصدارة من كتبه الفقهية كتاب « تهذيب الشيعة» وكتاب «المختصر الأحمدي»، وكلاهما في الفقه الاستدلالي، والأول منهما - كما قلنا سابقاً - يقع في عشرين مجلداً، فهو عبارة عن موسوعة فقهية استدلالية فريدة من نوعها في فقه الأقدمين.

إلاّ أنّ مسلكه وطريقته لم تلقَ ترحيباً من قِبل الطبقة المعاصرة له، وواجهت إعراضاً كبيراً من قِبل معظم تلك الطبقة، فلهذا تركت كتبه، وكان السبب من وراء ذلك - كما تقدم - هو قوله بالقياس.

نعم، تعرّض السيد المرتضى لآرائه في مواضع من «الانتصار» مشيراً في بعضها إلى مخالفاته للإجماع، وأنّ ذلك لا يضر بانعقاده؛ لأنه قد تقدّمه وتأخّره[١]، كما تقدم أنّه عرّض بطريقته وقوله بالرأي في مواضع من الانتصار ورسائله[٢].

ولم يتعرض له الشيخ المفيد في كتبه الموجودة إلاّ في المسائل السرورية والصاغانية منتقداً طريقته، وكذا الشيخ لم ينقل عنه شيئاً سوى ما في «رسالة تحريم الفقاع» حيث نقل عنه بعض الآراء ومقاطع من رسالته «الارتياع في تحريم الفقاع».

وأول من أثنى على فقهه ونقل آراءه ببالغ الإجلال والتعظيم هو ابن إدريس الحلي (ت: ٥٩٨هـ) في «السرائر»[٣]، ثم تلاه في ذلك المحقق في المعتبر وتلميذه الآبي، والعلامة وولده الفخر، وابن فهد الحلي، والسيد ابن طاووس في الإقبال. وبهذا تكون مدرسة الحلة هي أول كيان علمي للشيعة يتفاعل مع فقه ابن الجنيد

(١) الانتصار: السيد المرتضى، المطبعة الحيدرية، ص ٧٨.
(٢) رسائل الشريف المرتضى، ج ١، ص ١٨٩.
(٣) السرائر: ج ١، ص٤٣٠.

وينظر إلى آرائه نظر الجد والاحترام.

ومنذ تلك الآونة بدأت النظرة السلبية عن ابن الجنيد تأخذ بالأفول، وأطّرد الاهتمام بفقهه والالتفات إلى عمقه ودقته حتى صار ينظر إليه أنّه من كبار فقهاء الأصحاب وأجلهم كما في عبارة ابن إدريس[١]، وعدّه المحقق الحلي من الأفاضل المعروفين بفقه الأخبار وصحة الاختيار وجودة الاعتبار ومن أصحاب كتب الفتاوى الذين اختار النقل عنهم[٢]، ووصفه العلامة بأنّه شيخ الإمامية ووجه في أصحابنا ثقة جليل القدر، وبخصوص كتابه الأحمدي أطراه بما هو شأنه فقال: «كتاب جيد، يدلّ على فضل هذا الرجل وكماله وبلوغه الغاية القصوى في الفقه، وجودة نظره»[٣].

وكفى بمثل العلامة له مادحاً، وفي كلام السيد محمد بن معد ما يدلّل على ذلك حيث قال في وصف كتابه التهذيب: «قد وقع إليَّ من هذا الكتاب مجلد واحد، وقد ذهب من أوّله أوراق، فتصفحته ولمحت مضمونه فلم أرَ لأحد من الطائفة كتاباً أجود منه، ولا أبلغ ولا أحسن عبارة، ولا أدقّ معنى، وقد استوفى فيه الفروع والأصول»[٤].

وتابعهم في ذلك الشهيدان سيما الأول منهما، فإنّه أكثر النقل عنه في الذكرى، والظاهر وصول كتابه «المختصر الأحمدي» بيده وقد وثقه واعتبره من أعاظم العلماء، وقال الشهيد الثاني في حقه: إنّه عزيز المثل في المتقدمين بالتحقيق

(١) الفوائد الرجالية: ج٢، ص ٢٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

والتدقيق، مؤيداً كلامه بقوله: يعرف ذلك من اطلع على كلامه.

وخير كلام جامع يعكس طبيعة تعامل المتأخرين مع فقهه ما أفاده العلامة المحقق السيد بحر العلوم، قال: «وممّن يحكي قول ابن الجنيد ويعتبر ما في الإجماع والنزاع من القدماء السيد الأجل المرتضى، فإنّه قد أكثر النقل عنه والاعتذار عن مخالفته في بعض المسائل، وأما المتأخرون من أصحابنا كالشهيدين والسيوري وابن فهد والصيمري والمحقق الكركي وغيرهم فقد أطبقوا على اعتبار أقوال هذا الشيخ والاستناد إليها في الخلاف والوفاق حتى أنّ الشهيد الثاني في المسالك - في مسألة حرمان الزوجة - أورد على السيد المرتضى بأن الأوفق بمذهبه القول بعدم الحرمان مطلقاً كما ذهب إليه ابن الجنيد. ولم أقف على من توقف في رعاية أقوال هذا الشيخ من المتأخرين إلاّ صاحب كشف الرموز تلميذ المحقق فإنّه قال: «وأخللت بذكر ابن الجنيد إلاّ نادراً معتذراً بما سبق نقله من الشيخ من ترك كتبه لقوله بالقياس»[1].

وكتب من تأخر عن المذكورين في العبارة السالفة كصاحب المدارك والجواهر والحدائق والرياض وعشرات المصادر الفقهية الأخرى مشحونة بنقل آرائه وفتاواه.

وصفوة القول هنا: إنّ فقه ابن الجنيد قد شقّ طريقه إلى مصنفات الفقهاء والمراكز العلمية على يد مدرسة الحلة، وبشكل خاص على يد ابن إدريس الحلي، بل إنّ العلامة الحلي قد أكثر النقل عنه في كتاب المختلف الذي أعدّه لمقارنة آراء أكابر فقهاء الإمامية وبيان أدلتها، حتى بلغ مجموع ما نقل عن فقهه وقضاياه في حدود (١٦٠٠) مسألة، في الوقت الذي لم يتجاوز نقله عن الشيخ المفيد التسعمائة

(١) الفوائد الرجالية: ج ٣، ص ٢١٢.

مسألة وعن العماني الستمائة مسألة. بل إنه قد يُفرد النقل عنه في بعض المسائل ولا يذكر غيره فيها، كما في أول مسائل بحث (الحَجر).

هذا مضافاً إلى أنّه قد يرجّح رأيه في جملة من المسائل قبال رأي الشيخ الطوسي، وربما المشهور أيضاً(١).

وتجدر الإشارة إلى أنّ فقه ابن الجنيد قد تمّ جمعه وتبويبه من خلال إصدارين صدرا لحد الآن، الأول: مجموعة فتاوى ابن الجنيد. والثاني: الفتاوى لابن الجنيد الإسكافي، ولا شك أنّها خطوات تستحق الثناء والتقدير في طريق إحياء التراث الفقهي للطائفة، بَيْد أنهما اقتصرا في النقل عن (مختلف الشيعة) حسب، ولم تنقل عن كتب الشهيد والمحقق وابن إدريس والشيخ حسن صاحب المعالم وغيرهم ممّن وصله كتاب ابن الجنيد، عسى أن يوفق من ينهض لإتمام ذلك واستدراكه(٢).

وبصورة عامة كان لهذين العلمين الدور البارز والكبير في تطور الفقه الإمامي وقد أطلق على هذين العلمين (العماني، والإسكافي) اصطلاح القديمين وكان ابن فهد الحلي من أطلق هذا الاصطلاح على هذين العلمين. وقد ظهر نتيجة الاختلاف بين مسلك المحدثين الاتجاه الأول وبين مسلك القديمين اتجاه العقليين مسلك ضعيف لم يستمر طويلاً، وهو مسلك يعتمد الظاهر في الأحكام الفقهية، ومن أهم القائمين عليه:

(أبو الحسين الناشيء علي بن عبد الله بن وصيف) المتوفى سنة (٣٦٦هـ) وقد انقرض هذا المسلك ولم يبقَ له أثر في الفقه الشيعي وبرز تلميذ ابن الجنيد

---

(١) انظر مختلف الشيعة: ج٤، ص٣٤٧ و ٤٤٦.

(٢) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١٠، ص ٢١٦.

المفيد ومن حذا حذّوه بمسلك وسط حاول التأليف بين مسلك الصدوقين ومسلك القديمين وهو مسلك المفيد وتلاميذه الآتي ذكره.

الاتجاه الثالث: الاتجاه الوسط بين النقل والعقل

وهو الاتجاه الذي يحاول التأليف بين العقل والنقل معاً، وقد مثله جملة من الفقهاء الذين جمعوا بين المباني العقلية والحديث في استنباط الأحكام الشرعية.

أبرز فقهاء الاتجاه الوسط وآثارهم الفقهية

الأول: الشيخ المفيد

وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العكبري البغدادي المعروف (بابن المعلم) والملقب (بالمفيد) توفي سنة (٤١٣هـ).

قال عنه الشيخ الطوسي في (الفهرست ١٩٠): «انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار، وفهرست كتبه معروف».

وقال العلامة الحلي في (الخلاصة): «من أجل مشايخ الشيعة ورئيسهم وأستاذهم، وكل من تأخر عنه استفاد منه وفضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية».

وقال النجاشي في رجاله (رقم ١٠٨٦): «شيخنا وأُستاذنا - رضي الله عنه - فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والثقة»(١).

---

(١) انظر: كتاب الشيخ المفيد، منصور الجشي، ص١٥٥، وانظر: رجال النجاشي، برقم ١٠٨٦، ←

وفي تاريخ بن كثير الشامي: «توفي سنة ٤١٣هـ عالم الشيعة وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة، المعروف بالمفيد وابن المعلم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر كل عقيدة بالجلالة والعظمة في الدولة البويهية. وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، وكثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وكان عضد الدولة ربما زار الشيخ المفيد، له أكثر من مائتي مصنف، وكان يوم وفاته مشهوداً، وشيعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة» وهذا الكلام لليافعي»[(١)].

نظرة إجمالية لكتابه الفقهي (المقنعة)

انتهج الشيخ المفيد في مجال الفقه منهجاً وسطاً بين المسلكين والاتجاهين المتقدمين (الروائي والعقلي)، بين الالتزام بالنصوص، والتوسع في التفريعات المستمدة من المنهج العقلي، وكتابه (المقنعة) الذي ضم جميع أبواب الفقه، وقد سبك على الطراز، فليس هو متناً حديثيّاً فقهياً محضاً لا يخرج عن دائرة النصوص، ولا هو كتاباً تفريعياً تخريجياً متوسعاً في الاستدلال. وأنت إذا وازنت بين هذا الكتاب، وبين «المقنع» الذي ألفه أُستاذه الصدوق من قبل، وما نقل من الفتاوى عن القديمين (ابن أبي عقيل وابن الجنيد) لوجدته كتاباً سلك فيه مؤلفه منهجاً وسطاً بينهما.

→

وانظر: أعلام الفقهاء والمحدثين، ص٢٤٤. وانظر: كتاب أعلام مذهب أهل البيت، حسين الشاكري، ص٩٤، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٥٤ وانظر: تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، ص٢٥٧، وانظر: حركة الاجتهاد عنه الشيعة الإمامية ص٢٥٠.

(١) انظر: لؤلؤة البحرين ٣٦٣، وكذلك أعلام مذهب أهل البيت عليهم السلام حول الشيخ المفيد، وانظر: أعلام الفقهاء والمحدثين: ص٢٤٥، وانظر: تاريخ الفقه الإمامي وأدواره ص٢٥ وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٥٥.

ولقد أضفى الشيخ المفيد بكتابه هذا ثوباً جديداً على الفقه الإمامي، إذ أخرجه من نطاق النصوص الضيق، كما حدّده بقواعد لها رصيد من الكتاب والسنة، رافضاً القواعد التي لا تنبع منهما كالقياس والاستحسان، وكأنّه تبع في ذلك - أي في مراعاة القواعد المرضية عند أهل البيت - ابن أبي عقيل، الذي كان يطريه، ويثني كثيراً على شخصيته وعلى منهجه الفقهي. وقد شرح تلميذه الشيخ الطوسي كتاب (المقنعة) بشرح كبير في كتابه الكبير (تهذيب الأحكام). وللشيخ المفيد آثار فقهية أخرى كثيرة وحتى في غير الفقه كالكلام والتفسير والأصول وقد ذكر جلها الشيخ النجاشي في ترجمته لأستاذه المفيد وكذلك الشيخ الطوسي في فهرسته ذكر أغلب آثاره ومصنفاته.

دراسة وتقييم البصمات التي تركها المفيد على الفقه الإمامي:

نحل الشيخ المفيد للفقه الإمامي منهجية موضوعية بعيدة عن الجمود والتزمت الذي كان عليه المحدثون، وعن الأساليب التي كانت على الخلاف من أصول أئمة أهل البيت عليهم السلام كالعمل بالقياس والاستحسان وغيرهما، ففي هذا الجو المشحون بالتفريط والإفراط أخذ الشيخ بزمام الفقه ونفض عنه غبار الجمود وجعله في منحى التكامل والازدهار. فبينما تجد أنّه كان يندد بكل محدث لا يأبه بما أخذ وعمّن أخذ ويعمل بخبر الواحد دون اكتراث في جميع المجالات، كان يندد أيضاً بمن يحاول تبسيط الفقه وفق القياس والاستحسان، وبذلك أثبت الهوية الفكرية والفقهية للشيعة الإمامية وحدد معالمها بعد ما تعرّض الفقه لمنعطفات حرجة كادت تقوّض كيانه.

ولهذا جمع أمره وحشد كل ما يملك من طاقات فكرية وقيادية للقيام بالمهمة

وتجسد عمله بالتالي:

١- ألف رسالته الفتوائية المعروفة بـ(المقنعة) كما قدمنا قبل قليل وكانت في أصول الدين وفروعه، ولم يلتزم في كتابتها وعرضها متون الأحاديث. وأقام فتواه فيها على ما ذكره من مصادر للتشريع في كتابه (أصول الفقه) وهي:

أ- الكتاب.

ب - السنة.

ج - أقوال الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

فيكون بهذا قد رفض القياس، ولم يجمد على حرفية التعبير بمتون الأحاديث.

٢- ألف رسالته المختصرة في (أصول الفقه) والتي تعتبر أول مصنف في أصول الفقه مشتملاً على جميع الأبواب، وقد رواها عنه تلميذه الشيخ أبو الفتح الكراجكي، وأدرجها ضمن كتابه الموسوم بـ(كنز الفوائد). وحصر فيها مصادر التشريع بما ذكرته أعلاه، قال في الطبعة الأولى ببيروت (ص١٨): «أعلم أن أصول أحكام الشريعة ثلاثة أشياء: كتاب الله سبحانه، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأقوال الأئمة الطاهرين من بعده». ويعني بأقوال الأئمة فتاواهم في أجوبة الأسئلة التي كانت ترفع إليهم، ويجيبون عليها بمضمون حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بمتنه ولفظه، ذلك أن أجوبتهم، وما أعطوه من أحكام، كانت على نوعين:

أ- ما التزموا فيها متن حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولفظه.

ب - ما ضمنوها معنى الحديث وعبروا عن الحكم بلفظهم لا بلفظ الحديث.

كما أشار في كتابه (أصول الفقه) إلى دليل العقل باعتباره الطريق الموصل

إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار، قال في الصفحة نفسها: «والطرق الموصلة إلى علم الشرع (المشروع) في هذه الأصول الثلاثة (يعني الكتاب والسنة وأقوال الأئمة):

أحدها: العقل، وهو سبيل إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار.

والثاني: اللسان، وهو السبيل إلى المعرفة بمعاني الكلام.

وثالثهما: الأخبار، وهي السبيل إلى إثبات أعيان الأصول في الكتاب والسنة وأقوال الأئمة». وهو - الشيخ المفيد - بهذا يكون قد أكد على مصدرية الكتاب والسنة، وأوضح أن السنة المقررة في مدرسة أهل البيت هي المأخوذة عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام رواية وقولاً. ولم ينس أن يعطي العقل أهميته ويقول بحجيته ليوحد بين الاتجاهين في مصب واحد إلى اتجاه واحد. وإن كتابه في أصول الفقه هو أول مؤلف إمامي في هذا العلم، إذ لم تكن الحاجة إليه في عهد الأئمة ماسة وذلك لإمكان الرجوع إلى الإمام ومعرفة ما يتطلبه الأمر من مقتضيات وشؤون.

ومن الملاحظ على فقه الشيخ المفيد أنه في منأى عن الفتاوى الشاذة أو المخالفة للمشهور، فمع أنه تتلمذ على أيدي بعض المتأثرين بالقياس والاستحسان إلا أنه لم يتأثر بأفكارهم قيد أنملة وقد أبعد القياس والاستصلاح والاستحسان عن فقهه، بينما أننا نادراً ما نجد فقيهاً ليس له فتاوى شاذة تخالف فتاوى مشاهير الفقهاء. كما أنه اهتم بالاتجاه الوسط وأكد هذا بتأليفاته كـ(مقابس الأنوار في الرد على أهل الأخبار) أو كتابه الآخر (النقض على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي) وهيأ الوسائل لهذا الاتجاه ودفع تلاميذه لإكمال المسير وتأسيس الأسس له بعدما ألف

هو (أصول الفقه) ثم تلاه السيد المرتضى بـ(الذريعة) جزئين ثم الطوسي بـ(العـدّة) ثم سلاّر بـ(التقريب في أصول الفقه).

دور الشيخ المفيد وابتكاره للفقه المقارن

إن الفقيه تارة يستعرض آراءه الشخصية أو أراء إمام نحلته ويستدل عليها دون أن يستعرض آراء فقهاء بقية النِحَل وهذا هو النمط السائد في أكثر الكتب الفقهية. وأخرى يستعرض آراءه الشخصية وآراء إمامه مع ذكر آراء فقهاء سائر النحل وذكر حججهم والمناقشة فيها، وهذا اللون من التأليف يتطلب مقدرة علمية فائقة ليكون الممارس له قادراً على عرض الآراء وترجيح بعضها على بعض. وشيخنا المفيد أوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه فألف كتابه «الإعلام فيما اتفقت عليه الإمامية من الأحكام» وجعله ذيلاً لكتاب أوائل المقالات الذي ذكر فيه ما اتفقت عليه الإمامية من الأصول مع الإشارة إلى آراء المخالفين، فبالإمعان في هذين الكتابين يقف القارئ على آراء الإمامية في الفقه والعقائد وقد ورث عنه تلميذاه هذا اللون من التأليف في الفقه، فألف السيد المرتضى «الانتصار» في ما انفردت به الإمامية مع ذكر آراء الآخرين، كما تبع الشيخ الطوسي أثر أستاذه فألف كتاب «الخلاف» حيث ذكر فيه آراء الفقهاء الإسلاميين وناقشها ورجح منها المذهب المختار.

إذن فالشيخ المفيد صنع الجو العلمي المعطاء لحركة الفقه الإمامي بتهيئة الوسائل المطلوبة ودفع تلامذته البارزين للمشاركة في صنع هذا الجو أكثر وتطويره واستمراره فتحركوا - تلاميذه - في مجالين مترابطين، هما:

المجال الأول: التكامل بعملهم مع أعمال من سبقهم بهذه المهمة.

المجال الثاني: التأسيس فيما لم يسبقوا إليه.

ومن أبرز تلاميذ الشيخ المفيد الذين كان لهم الدور البارز والذين هم من أهم فقهاء هذه المرحلة ومن أهم فقهاء هذا المسلك والاتجاه الذين أكملوا ما ابتدأه الشيخ المفيد أستاذهم، هم السيد المرتضى وسلاّر الديلمي الآتي ذكرهم.

الثاني: السيد المرتضى

وهو علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم المجاب بن الإمام موسى بن جعفر عليهم السلام الملقب بعلم الهدى، المعروف بالسيد المرتضى أو الشريف المرتضى توفي سنة ٤٣٦هـ.

وهو من أبرز علماء المرحلة وكذلك من الفقهاء والعلماء الذين انتهجوا الاتجاه الثالث الذي يجمع بين الاتجاه الروائي والاتجاه العقلي، وحيث كان لمدرسة المفيد رحمه الله التي أسسها في حاضرة العالم الإسلامي آنذاك، معطيات جمّة وثمرات يانعة حيث أنجبت أعلاماً وأفذاذاً للأمة يظن بهم الدهر إلا في فترات خاصة، منهم السيد المرتضى حفيد الإمام الكاظم بخمس وسائط كما مبين أعلاه حيث يعرفه تلميذه النجاشي في رجاله: «حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً أديباً، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، ثم ذكر أسماء كتبه... وقال: إنه مات رضي الله عنه لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٣٦هـ، وصلى عليه ابنه في داره، وتوليت غسله ومعي الشريف أبو علي محمد بن الحسن الجعفري وسلاّر بن عبد العزيز»[(١)].

---

(١) رجال النجاشي برقم ٧٠٦، وكذلك انظر: أعلام الفقهاء والمحدثين ص٣٢٤، وانظر: أعلام مذهب أهل البيت عليهم السلام: تحت عنوان السيد المرتضى.

ويقول تلميذه الآخر الشيخ الطوسي: «كنيته أبو القاسم، لقبه علم الهدى، الأجل المرتضى، متوحد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدم في العلوم، مثل علم الكلام والفقه وأصول الفقه والأدب والنحو والشعر ومعاني الشعر واللغة وغير ذلك؛ له ديوان شعر يزيد على عشرين ألف بيت، ثم ذكر أسماء تصانيفه»[١]، إنّ نواحي فضل سيدنا المبجّل لا تنحصر بواحدة ولا أنّ مآثره معدودة فإلى أي فضيلة نحوت فله فيها الموقف الأسمى، فهو أمام الفقه، ومؤسس أصوله، وأستاذ الكلام، ونابغة الشعر، وراوية الحديث، وبطل المناظرة، والقدوة في اللغة، والأسوة في العلوم العربية كلها، وهو المرجع في تفسير كتاب الله العزيز، وجماع القول إنك لا تجد فضيلة إلا وهو ابن بجدتها. فقد كان زعيم الطائفة وانتهت إليه رئاستها، وكان كثير التصنيف والتأليف ترك آثاراً عديدة تصل إلى أكثر من مئة مصنف كما يذكرهم صاحب الذريعة الشيخ الطهراني، وإليك بعض ما ألفه في الفقه وأصوله.

أبرز مؤلفات السيد المرتضى الفقهية والأصولية

١ - كتاب الانتصار في انفرادات الإمامية.

٢ - الناصرية في الفقه.

٣ - إبطال القول بالعدد.

٤ - مسائل الخلاف في الفقه.

٥ - الديلمية في الفقه.

---

(١) فهرست الشيخ الطوسي ص١٢٩ ورقم٤٢١، وانظر: المصادر السابقة أيضاً، وتاريخ التشريع الإسلامي ص٢٦٨.

٦- الرد على أصحاب العدد في شهر رمضان.

٧- المصباح في الفقه.

وغيرها الكثير من الكتب والرسائل الفقهية

وفي علم الأصول:

١- الذريعة إلى أصول الشريعة.

٢- مسائل المفردات في أصول الفقه.

٣- مسائل الخلاف في أصول الفقه.

وإلى غير ذلك من الكتب والمصنفات في التفسير والكلام والأدب واللغة وغيره ومن أهم كتبه الفقهية كتاب (الانتصار) ومن أهم كتبه الأصولية كتاب (الذريعة إلى أصول الشريعة) الذي يقول في مقدمته: «إن هذا الكتاب منقطع النظير في الإحاطة بالاتجاهات الأصولية التي تميز الإمامية باستيعاب وشمول».

وقد سار السيد المرتضى على طريقة أستاذه المفيد وأكمل المباحث الأصولية وتتبع العناصر المشتركة في الاستنباط، وكان موفقاً في تطوير وإكمال نظريات أستاذه الأصولية، ودفع عجلة الفقه الإمامي إلى الأمام خطوات كبيرة ويظهر هذا الأمر جلياً من خلال مطالعة كتاب الذريعة.

فالسيد المرتضى من كبار علماء هذه المرحلة بل من كبار علماء الشيعة على الإطلاق وكان من نتائج أبحاثه هو وأستاذه المفيد أن اندثر الاتجاه الأول للروائين والقميين وأهل الحديث. وانطلق الاتجاه الوسط الجامع بين الاتجاهين.

الثالث: سلاّر

وهو أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي المعروف بـ (سلاّر) توفي سنة ٤٤٨هـ، قال عنه العلامة الحلي في (الخلاصة): «سلاّر بن عبد العزيز الديلمي، أبو يعلى، شيخنا المقدم في الفقه والأدب وغيرهما، وكان ثقة وجهاً، له (المقنع) في المذهب، و(التقريب) في أصول الفقه، والمراسم، والرد على أبي الحسين البصري في نقض الشافي، والتذكرة في حقيقة الجوهر والعرض، قرأ على المفيد وعلى السيد المرتضى قدس سره»(١).

وترجمه أبو داود في (رجاله)، وقال فيه: «فقيه جليل، مُعظّم، مصنف، من تلامذة المفيد والسيد المرتضى».

وقال الخوانساري: «إنّه كان من أخص خواص سيدنا المرتضى ومعتمداً على فقهه وفهمه وجلالته عنده في الغاية، فعيّنه في جملة من عيّنه للنيابة عنه في البلاد الحلبية باعتبار مناصب الحكام، بل ربما كان يدّرس الفقه نيابة عنه في بغداد كما حكي عن خط الشهيد، وأضاف بأن أبا الحسين البصري لما كتب نقض الشافي لسيدنا المرتضى أمر السيد سلاّراً بنقض نقضه فنقضه»(٢).

وقال عنه الشيخ منتخب الدين في (الفهرست): «فقيه، ثقة، عين» وله مصنفات عديدة منها:

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، ص٢٧٨، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ٢٨١، وأدوار الفقه الإمامي ١٢٤ وحركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ٢٥٣، وانظر: مقدمة رياض المسائل للشيخ الآصفي.

(٢) تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره ٢٧٩ ينقله عن روضات الجنات، وتاريخ التشريع الإسلامي ٢٨٢ عن الكنى والألقاب.

أهم مصنفات سلاّر الفقهية والأصولية

١ - المراسم العلوية في الأحكام النبوية.

٢ - المقنع في المذهب.

٣- التقريب في أصول الفقه.

٤ - التذكرة في حقيقة الجوهر والعرض.

٥ - الأبواب والفصول في الفقه.

٦ - الرد على أبي الحسين البصري في نقض الشافي.

وهو من كبار علماء وفقهاء هذه المرحلة ومن علماء الاتجاه الثالث، وله جهود عظيمة في تكامل وتوسعة الأبحاث الفقهية والأصولية ودفع عجلة الفقه الإمامي إلى الأمام ومن أهم كتبه الفقهية كتاب (المراسم العلوية). فهو وهؤلاء الأعلام الذين تقدم ذكرهم المؤسسون للفقه الاستدلالي الاجتهادي التابع لمدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية.

المبحث الثالث: خصائص المرحلة التأسيسية

تميّزت هذه المرحلة بخصائص مهمة منها:

الأولى: ظهور كتب الحديث الموسوعية

ككتاب (الكافي) لمحمد بن يعقوب الكليني وكتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ الصدوق، وكانا من أهم مصادر الحديث ومن الكتب المهمة المعوّل عليها والتي اعتبرت فيما بعد من أهم الكتب الأربعة ومصادر الحديث عند الشيعة الإمامية.

الثانية: تدوين القواعد الأصولية

ومن أبرز ميزات المرحلة أيضاً هي تدوين القواعد الأصولية والعناصر المشتركة في الاستنباط الفقهي، وبشكل فني وعلمي. وكانت الأصول والقواعد العلمية المتبعة في مقام الاستنباط قد تبلورت بالتدريج من خلال عمليات الاستنباط الفقهي المستمر حتى شهدت العقود الأولى من القرن الرابع الهجري انفصال الأبحاث الأصولية عن علم الفقه المعهود وقد تمثل ذلك خلال هذه المرحلة في بروز كتابين مهمين:

الأول: التذكرة بأصول الفقه للشيخ المفيد قدس سره ، وقد أورد مختصره الكراجكي في كتابه كنز الفوائد.

الثاني: الذريعة إلى أصول الشريعة للسيد المرتضى قدس سره.

وهناك بعض الكتب الأصولية التي ذكرت في تراجم أعلام هذه المرحلة ولكنها لم تصل إلينا لفقدانها أو تلفها أو ترك العمل بها منها:

أ- كتاب (كشف التمويه والالتباس على أغمار الشيعة في أمر القياس) لابن الجنيد الإسكافي.

ب - كتاب في القياس للشيخ المفيد.

الثالثة: ظهور الكتب الفقهية الاستدلالية

شهدت بدايات هذه المرحلة ظهور الكتب الفقهية التي لا تتجاوز ألفاظ الأحاديث الشريفة، وهو ما يعرف بالفقه المأثور أو الفقه الروائي. كما هو واضح في الكتب الفقهية للشيخ الصدوق الأب والابن. ولكن الفقهاء بعد ذلك توسعوا في عمليات الاستنباط متجاوزين النصوص إلى اكتشاف موارد التطبيق، وهذه هي عملية التفريع أو إرجاع الفروع إلى الأصول، وذلك على أساس موازين عملية تبتني على أصول التفاهم العرفي والأصول العقلية المنطقية المتداولة في عملية التشريع وعملية التبيّن والتفسير، ومن هنا نلاحظ نوعين من كتب الفقه في هذه المرحلة: كتب الفقه المأثور، وكتب فقهية أضيفت إليها مسائل فقهية غير موجودة في نصوص الأحاديث كما نلاحظ ذلك في كتب المفيد والمرتضى وسلاّر من أعلام هذه المرحلة.

الرابعة: ظهور كتب الفقه المقارن، ورد الشبهات المثارة ضد الفقه الشيعي

لقد اهتم أصحاب الأئمة بالفقه المقارن، أو ما كان معروفاً بفقه الخلاف، كما ورد في بعض النصوص الروائية، إلا أن هذا الاهتمام كان محدوداً على موارد التقية وأمثالها، إذ لم تبرز جلياً المذاهب الفقهية المتنوعة، ولم تكن هناك مدونات في مجال الفقه المقارن. وفي بداية القرن الخامس، نلاحظ بدايات الاهتمام بالفقه المقارن، فالمفيد والمرتضى قد دوّنا مسائل من الفقه المقارن بين المذهب الشيعي وسائر المذاهب الإسلامية، كما نلاحظ ذلك في كتابي الانتصار والناصريات للمرتضى والإعلام للمفيد.

ومن خلال تدوين الفقه المقارن برز الفقه الإمامي والأبحاث الاستنباطية بصورة جلية واضحة، وأجيب عن كثير من الشبهات المثارة من قبل علماء العامة حيث كان الفقه الإمامي مورد نقد وتقريع من قبل هؤلاء العلماء.

الخامسة: وجود مبانٍ أصولية تحد من انطلاق الاجتهاد الاستدلالي

رغم التطور الذي شهده الاجتهاد الاستدلالي وعمليات الاستنباط الفقهي في هذه المرحلة، إلا أن الملاحظ وجود مبانٍ أصولية عند بعض أعلام هذه المرحلة تحد من انطلاق الفقه الاستدلالي الاستنباطي بشكل واسع. ومن هذه المباني الأصولية:

أ - ظاهرة إدانة العمل بأخبار الآحاد

كما هو مبنى السيد المرتضى وغيره من أعلام هذه المرحلة، ومن الواضح أن أغلب الأدلّة وأكثرها تداولاً بين الفقهاء هي الروايات الحاكية عن السنة،

والأغلب الأعم من هذه الروايات هي أخبار آحاد، فالالتزام بهذا المبنى يعني عدم الأخذ، وطرح هذه الكثرة من الروايات، مما يؤدي إلى محدودية الاجتهاد والاستنباط الفقهي في دائرة الروايات المتواترة أو المحفوفة بقرائن عالية يمكن الأخذ بها، وهي قليلة جداً ولا تفي وحدها بالأغراض الفقهية.

ب - الاهتمام بالإجماعات

ومن الظواهر الملفتة للنظر في هذه المرحلة كثرة الاهتمام والتمسك بالإجماعات، وقلما تجد حكماً شرعياً لا يستدل عليه بالإجماع. ومن الواضح أن الإجماع إنما يكون حجّة إذا كان كاشفاً عن السنة ووسيلة لإثباتها حين يصلح لذلك لأن الإجماع عند الإمامية ليس حجة مستقلة بنفسه في مقابل الكتاب والسنة، بل حجيته بما هو حاك عن رأي المعصوم في المسألة التي قام عليها وبدون ذلك لا حجية له.

ج - تحديد مجال الاستفادة من العقل في استنباط الأحكام

والملاحظ في عمليات الاستنباط للأحكام الشرعية في الفقه الإمامي - وخاصة في منهج الرعيل الأول من علماء المرحلة - اجتناب التوغل أو التوسع في الاعتماد على العقل والدليل العقلي، وعدم فسح المجال لتدخّل العقل في التشريع أو ما يستتبع التشريع من علميات استظهار النصوص وتوظيفها للوصول إلى أحكام القضايا المستجدة، إذ تتحفّظ في استخدام العقل تحفظاً يحول دون التدخل في التشريع[1]. ولعل منشأ هذا التحفظ من الدليل العقلي هو الانسياق التام وراء

(١) أنظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: مراحل تطور الاجتهاد ـ السيد منذر الحكيم. عدد ١٣.

هذا الدليل من قبل فقهاء المذاهب الأخرى واعتمادهم على الدليل العقلي الظني من قبيل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة أو سد الذرائع... أو لعل المنشأ هو وجود بعض الروايات التي ظاهرها النهي عن الانسياق وراء العقل والملازمات العقلية من قبيل: إن دين الله لا يصاب بالعقول... وأمثالها.

إلا أن هذه الظاهرة من التحديد والتضييق في توظيف الدليل العقلي من خلال عمليات الاستنباط لم تدم طويلاً، فقد اعتمد أعلام الرعيل الثاني والثالث من علماء هذه المرحلة على الدليل العقلي بعد أن حدد مجال الاستفادة من العقل بشكل علمي دقيق. وهذه هي أهم ملامح وخصائص ومميزات هذه المرحلة من مراحل تطور الفقه الإمامي الشيعي.

جدول بأسماء فقهاء المرحلة

وإليك هذا الجدول يوضح أسماء أعلام وفقهاء المرحلة مع بعض مؤلفاتهم الفقهية[١]:

ت	سنة الوفاة (بالهجري)	اسم الفقيه	كتبه الفقهية
1	329	محمد بن يعقوب الكليني	كتاب الكافي
2	329	علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق الأوّل	1- كتاب الشرايع أو الرسالة 2- مناسك الحج 3- كتاب المواريث
3	حي في 329	ابن أبي عقيل الحذّاء العماني	المتمسك بحبل آل الرسول

(١) مجلة فقه أهل البيت: مراحل تطور الاجتهاد ـ منذر الحكيم عدد ١٤.

ت	سنة الوفاة (بالهجري)	اسم الفقيه	كتبه الفقهية
4	القرن الرابع	محمد بن أحمد الصابوني الجعفي	كتاب الفاخر
5	القرن الرابع	محمد بن أحمد ابن الجنيد الاسكافي	1- تهذيب الشيعة لاحكام الشريعة 2- المختصر الأحمدي للفقه المحمدي
6	381	محمد بن علي بن بابويه الصدوق	1- المقنع 2- الهداية 3- كتاب في الفقه
7	413	محمد بن محمد بن النعمان المفيد العكبري	1- أحكام النساء 2- الاشراف في عامة فرائض أهل الإسلام 3- الأعلام فيما اتفقت عليه الإمامية من الأحكام 4- المقنعة 5- جوابات المسائل النيسابورية 6- العويص في الفقه 7- المسائل التي سألها أبو جعفر الطوسي 8- الموجز في المتعة 9- رسالة في ذبائح أهل الكتاب 10- رسالة في الرد على أصحاب العدد
8	436	علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى	1- الانتصار 2- جمل العلم والعمل 3- جوابات المسائل الموصلية 4- جوابات المسائل التبانية 5- جوابات مسائل ميافارقين 6- جوابات المسائل الرسيات 7- جوابات المسائل الرّازيات 8- جوابات

ت	سنة الوفاة (بالهجري)	اسم الفقيه	كتبه الفقهية
			المسائل الطرابلسيات 9- المسائل الناصرية 10- ما تفرد به الإمامية 11- شتات الفوائد والمسائل 12- شتات الفوائد والمسائل (مجموعة أخرى) 13- رسالة في الرد على أصحاب العدد
9	447	تقي الدين أبو الصلاح العجلي	الكافي في الفقه
10	448	حمزة بن عبد العزيز الديلمي سلاّر	المراسم العلوية والأحكام النبوية



الفصل الثالث

مرحلة الانطلاق

للفقه الإمامي (الاجتهادي)

المبحث الأول: تحديد المرحلة

المبحث الثاني: دراسة شاملة حول رائد المرحلة الشيخ الطوسي

المقطع الأول: الشيخ الطوسي وإنجازاته

المقطع الثاني: تطويرالشيخ الطوسي في المجالات العلمية

المقطع الثالث: دراسة في أهم مؤلفات الشيخ الطوسي الفقهية

المبحث الثالث: أهم فقهاء هذه المرحلة

المبحث الرابع: خصائص مرحلة الانطلاق

المجال الأول: تقنين عملية الاستنباط

المجال الثاني: تطبيق منهج الاستنباط الفقهي

المجال الثالث: التوسع في بيان المسائل الفرعية الفقهية

المجال الرابع: تطوير وتدوين الفقه المقارن الموسوعي

المجال الخامس: الاهتمام بالدراسات القرآنية الفقهية

المبحث الأول: تحديد المرحلة والمقصود منها

المقصود بمرحلة الانطلاق للفقه الإمامي الاجتهادي هي انطلاق الاتجاه الوسط الذي تبناه الشيخ المفيد والمرتضى وتبناه الشيخ الطوسي وانطلق به وضمنه عناصر القوة والإبداع من خلال الاعتناء برفع نقاط الضعف، والدفاع العلمي المتين عن حقانيته والرد على الشبهات التي كان يثيرها كل من أصحاب الاتجاه العقلي والاتجاه الروائي وفقهاء الجمهور، وطوَّره تطويراً ملحوظاً وانطلق به انطلاقاً كبيراً كما سوف نرى في تفصيل المرحلة والتي سوف نحددها بصورة تقريبية لا دقيّة تبدأ هذه المرحلة من مراحل تطور الفقه الإمامي الاجتهادي بالعقدين الأخيرين من حياة شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي المولود سنة (٣٨٥هـ) والمتوفى في سنة (٤٦٠هـ)، وتنتهي هذه المرحلة بظهور نجم الدين جعفر بن الحسن المعروف «بالمحقق الحلي» المتوفى سنة(٦٧٦هـ).

المبحث الثاني: دراسة شاملة حول رائد المرحلة الشيخ الطوسي

المقطع الأول: الشيخ الطوسي وإنجازاته

وهو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن المعروف بشيخ الطائفة والشهير بالشيخ الطوسي، ولد رحمه الله في طوس من مدن خراسان وهاجر إلى بغداد سنة (٤٠٨هـ) بغية الدراسة، وكانت يومئذ من أهم الحواضر العلمية في العالم الإسلامي لما تتمتع به من مركز سياسي كان العامل الأهم في تكوين وسعة الحياة العلمية والدراسية فيها، وبخاصة أيام حكم البويهيين الذين عاصرهم الطوسي مدة إقامته في بغداد، ولازم (الشيخ المفيد) المرجع الأعلى للشيعة ومتكلمهم الأكبر آنذاك، يتلمذ على يده، ويحضر مجلس درسه، حتى توفي سنة (٤١٣) فلازم تلميذه والقائم بمسؤولية المرجعية والزعامة العلمية والدينية مقامه (السيد المرتضى علم الهدى) يحضر تحت كرسي درسه ويتلمذ عليه، إلى أن توفي عام (٤٣٦هـ). فاستقل الشيخ الطوسي بمهمة الزعامة وبأعباء المرجعية العليا فكان له كرسي الدرس وهو شارة الزعامة المطلقة حينذاك. ومن ملازمة وتلمذة الشيخ الطوسي على هذين العلمين (المفيد والمرتضى) نستطيع أن نتعرف على أنها العامل الأهم في تكوين وصياغة شخصيته العلمية، وفي عطائه أو حصوله على

منصب المرجعية العليا، ورتبة الزعامة العلمية المطلقة.. يضاف إلى ذلك مواهبه التي أهلته ودفعته إلى تسلم هذا المقام. وكان ينزل جانب الكرخ من بغداد إذ كانت منزل الشيعة وملتقى علمائهم ومثقفيهم، وفيها (المكتبة) التي أنشأها أبو نصر (سابور بن أردشير) وزير بهاء الدولة البويهي، والتي كانت من مهمات دور العلم يومذاك، يقول ياقوت الحموي: «لم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة». وربما كانت - بالإضافة إلى كونها مرجعاً للتأليف والدراسة - مدرسة مهمة لبث ونشر الفكرة الإسلامية المستمدة من منبعها الأصيل (مذهب أهل البيت عليهم السلام). وبقي رحمه الله في بغداد حتى هجوم السلاجقة عليها بقيادة (طغرك بك) عام (٤٤٧هـ) حيث قاموا بحرق ونهب المنازل والمؤسسات في جانب الكرخ وكان من بينها أن حرقت المكتبة - مكتبة سابور المارة الذكر - فأفقدوا الأمة الإسلامية تراثاً ثقافياً ذا أهمية كبرى، كما حرقت مكتبته وكرسي تدريسه، ونهب داره، وضيق الخناق عليه، وهذا مما دفعه إلى أن يهاجر إلى (النجف) عام (٤٤٩هـ).

وربما كان اختياره للنجف مهجراً لضمان حريته الفكرية، ولوجود نواة للحركة العلمية فيها ولأنها من العتبات المقدسة باحتوائها مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولأنه يستطيع أن يجعل منها مركزاً للحركة العلمية، ومنطلقاً لأفكاره وآرائه فيستعيد بذلك مكانة الشيعة الثقافية والاجتماعية التي فقدوها في بغداد على أيدي السلاجقة، فكانت أن تأسست جامعة النجف بفضل جهوده[(١)]. فقد كان رحمه الله انطلاقة الحياة العلمية فيها، في حركتها وروحانيتها، وفي أصالتها

(١) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص ٢٨٤.

وعمقها، وفي بعدها وشمولها وكان الكلمة الأولى في اندفاعتها الرسالية، والحجر الأساس في مختلف بنياتها الثقافية والاجتماعية. كان - بكلمة واحدة - الإمام المفكر، والقائد اليقظ في شؤونها. وربما كانت هذه نتائج خبرته التي أفادها من معاصرته لزعامة شيخه المفيد وزعامة سيده المرتضى - قدس سرهما - ومن تجارب زعامته في بغداد.

وقد تميز إلى جانب تزعمه حركة الدراسة في جامعة النجف وإدارة شؤونها منذ بدء تأسيسها بأعمال ضمنت لها الاستمرار والتقدم وأهمها ما يلي:

١ - تطويره في مناهج وطرائق البحث والدراسة في العلوم المتعارف دراستها في الجامعة، وفي إبداع الآراء في مختلف مجالات الدراسة العالية، أمثال:

التفسير والحديث والرجال والفقه والأصول.

٢ - تربية تلامذته تربية أهلتهم للمهمة التي كان يعدُّهُم لها وهي القيام بمسؤولية استمرار الجامعة وتقدم الحركة الدراسية فيها.

ونلمس تطويره بوضوح في مؤلفاته في العلوم المذكورة.

المقطع الثاني: تطوير الشيخ الطوسي في المجالات العلمية

الأول: في التفسير

نستجلي النتيجة المذكورة في كتابه (التبيان في تفسير القرآن) فهو أول تفسير جمع فيه مؤلفه أنواع علوم القرآن، وقد أشار إلى فهرس مطوياته في ديباجته ووصفه بقوله: (لم يعمل مثله) واعترف بذلك إمام المفسرين (أمين الإسلام الطبرسي) في مقدمة كتابه الجليل (مجمع البيان في تفسير القرآن) فقال: إنه الكتاب

الذي يقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن من المعاني الأسرار البديعة، واحتضن من ألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها ولا تنسيقها دون تحقيقها، وهو القدوة استضيء بأنواره، وأوطأ مواقع آثاره.

الثاني: في الحديث

في كتابيه (تهذيب الأحكام) و(الاستبصار) اللذين هما من الكتب الأربعة والمصادر الأولى للحديث عند الإمامية... ولعلنا نلمس تطويره أكثر وضوحاً في (الاستبصار) الذي ضمنه ما اختلفت فيه من الأخبار، مع تعليقه عليها بالجمع والتوفيق بينها حسبما يرتأيه مما ينطبق على قواعد وأصول الجمع بين الأخبار المختلف فيها.

الثالث: في الرجال

وفي كتابه المعنون بـ(رجال الشيخ الطوسي) نستوضح تطويره في هذا العلم - الذي يصنف فيه عادة الرجال إلى طبقات - في تفصيله بين من يروي عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وبين من لم يرو عنهم، بخلاف كتب الرجال التي سبقته فإنها لم تصنف الرواة هذا التصنيف... وهو شيء له أهمية في مجال تقييم أسانيد الأخبار. بالإضافة إلى جوانب أُخر تذكر في مظانها من مقدمات كتب الرجال.

ونستوضحه - أيضاً - في كتابه المعروف بـ(الفهرست) أو (فهرست الشيخ) في «عقده لكل اسم مشترك أو مختلف باباً من أوله إلى آخره».. وهو شيء له أهميته أيضاً في معرفة وتقييم رواة الحديث.

الرابع: في أصول الفقه

في كتابه (عدة الأصول) الذي أسهم فيه بمهمة تطوير أصول الفقه من دور اعتماد قواعده في استنباط الأحكام بشكلها الابتدائي الآخذ بالتكامل إلى دور البحث والتأليف الذي ابتدأ بشيخه (المفيد). يقول السيد بحر العلوم في تقييم كتاب (العدة) مقارناً إياه بما سبقه من كتب: «وهو أحسن كتاب صنف في الأصول»[١].

الخامس: في الفقه

في كتابه (النهاية) الذي يعد من أجل كتب الفقه، نستجلي ذلك من اتخاذه محوراً للبحث والتدريس والشرح حتى ألف (المحقق الحلي) كتابه (شرايع الإسلام) فحل محل - شأن ما نراه اليوم في الدراسة الفقهية بالنسبة إلى (العروة الوثقى) للسيد الطباطبائي اليزدي -. وفي كتابه (الخلاف) نلاحظ ذلك في ذكره المسائل الخلافية بين المذاهب الإسلامية، وبيانه قيمة الرأي في المسألة في ضوء ما يتوصل إليه من نقد الأدلة نقداً علمياً. وربما كان الخلاف أوّل كتاب خلافي عند الإمامية. وفي كتابه (المبسوط) نرى ذلك في سعته وشموله لأبواب الفقه، وفي أصالة وعمق استدلاله.. وهو أهم كتاب يمثل التطور الذي وصل إليه الفقه زمن الشيخ الطوسي في تنقيحه «من حيث الموضوعات والمسائل، فإن كل مسألة تذكر فيها الفتوى أولاً ثم يعقبها دليلها، ففي ذلك العصر كانوا لا يكتفون بذكر ما ورد في الأخبار من الكليات، بل ذكروا تفرعاتها ومصاديقها المتكثرة التي تستفاد من تلك الأدلة فصار الفقه جامعاً لجميع المسائل مع أدلتها منقحة نسبياً بينما لم تكن هذه

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، ص٢٨٦.

الطريقة معهودة من قبل».. يقول في مقدمته: «فإني لا أزال أسمع بمعاشر مخالفينا من المتفقهين والمنتهين إلى علم الفروع يستحقرون فقه أصحابنا الإمامية ويستهزؤون... إلى أن قال: وهذا جهل منهم بمذهبنا، وقلة تأمل لأصولنا ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أن جل ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا، منصوصٌ عليه تلويحاً عن أئمتنا.. ثم قال في آخر كلامه: فعدلت إلى عمل كتاب يشتمل على عدد يجمع كتب الفقه التي فصلها الفقهاء وهو نحو من ثلاثين أو ثمانين كتاباً، أذكر كل كتاب منه على غاية ما يمكن تخليصه من الألفاظ»(١).

ونلمس أثر تربيته في تلامذته، فما تمتع به من عناية تربوية فهو عندما يحاضر لا يكتفي بإلقاء الموضوع أو عرضه فقط، وإنما كان يهيئ من تلامذته مشاركين يجاولونه ميدان التفكير والتحقيق مما جعله يفرض احترامه - بصفته عالماً - فرضاً، وبخاصة في مجالات الفقه والحديث، الذي أضفى عليه هالة من التقديس لمنهجه الفقهي ولطريقته في الحديث والرجال، ولآرائه من قبل تلامذته تقديساً بلغ حد عدم الجرأة على مخالفة طريقته وآرائه فـ«قد قيل: إنّ كتبه المعروفة في الفقه والحديث لعظم مكانتها خدرت العقول وسدت عليها منافذ التفكير في نقدها قرابة قرن».. وقيل إنّهم لقبوا بـ(المقلدين) نظراً لالتزامهم منهج الشيخ الطوسي وعدم خروجهم على آرائه.

واستمر هذا الجمود في الذهنية الفقهية بعد الشيخ الطوسي والذي كاد أن ينتهي إلى غلق باب الاجتهاد عند الإمامية حتى أيام (الشيخ محمد بن إدريس الحلي) صاحب كتاب (السرائر) الذي التفت إلى ذلك فشن حملة من النقد العنيف

---

(١) المبسوط، للشيخ الطوسي، المقدمة، ص ٢.

على منهج وطريقة الشيخ الطوسي، فكانت أيامه فاتحة عهد جديد في الفقه الإمامي وبداية دور تميز «بالبحث الاستدلالي حول المسائل الفقهية».

يقول الشيخ ابن إدريس - بعد نقده جمود الذهنية الفقهية في تلكم الفترة، عارضاً منهجه الفقهي - في مقدمة كتابه (السرائر) «فاعتقادي فيه (أي في السرائر) أنه أجود ما صنف في فنه، وأسبقه لإيفاء سنه، وأذهبه في طريق البحث والدليل والنظر، لا الرواية الضعيفة والخبر، فإني تحريت فيه التحقيق، وتنكبت ذلك عن طريق، فإن الحق لا يعدو أربع طرق: أما كتاب الله سبحانه، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتواترة المتيقن عليها، أو الإجماع أو دليل العقل، فإذا فقد الثلاثة فالمعتمد في المسألة الشرعية عند المحققين الباحثين عن أخذ الشريعة التمسك بدليل العقل، فإنها مبتغاه وموكولة إليه»[١].

وربما يفاد من عبارته هذه: إنه أول من أوضح مكانة العقل في مجال التشريع، ونادى إلى اعتباره مصدراً من مصادر التشريع، وبين مرتبته في تسلسل المصادر الأربعة، حيث يأتي دور الرجوع إليه عند فقدان الأدلّة الثلاثة الأخرى «فكان له الفضل في فتح أبواب التطور للفقه الإسلامي حيث دعا إلى التمسك بالأدلة العقلية، بينما كان الاعتماد في الأعصار السابقة (قبله) على النص»[٢].

خلف الشيخ الطوسي مؤلفات كثيرة، عرفنا فيما تقدم مدى تطويره وأثره فيها في المنهج والفكرة.

يضاف إليه: ظاهرة أخرى قد «لا توجد فيما عداها من مؤلفات السلف

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، ص٢٨٨.

(٢) المصدر السابق.

(وهي كونها) النبع الأول والمصدر الوحيد لمعظم مؤلفي القرون الوسطى، حيث استقوا منه مادتهم وكونوا كتبهم، (وكونها) حوت خلاصة الكتب المذهبية القديمة وأصول الأصحاب»[١].

وربما كان توفر مؤلفاته على هذه الميزة بسبب ظروفه الخاصة التي هيأت له المراجع الأصلية والوافية لمختلف العلوم التي ألّف ودوّن فيها، فقد كانت مكتبة أستاذه (علم الهدى السيد المرتضى) في متناوله، وهي من أهم خزائن الكتب في بغداد آنذاك حيث كانت تضم (ثمانين ألف) كتاب، وكانت مكتبة (سابور) - المتقدمة الذكر - في متناوله أيضاً، وربما أنها «كانت تحتضن الكتب القديمة الصحيحة التي هي بخطوط مؤلفيها أو بلغاتهم»[٢].

يضاف إليه: مركزه في الزعامة الذي يوفر - عادة - لأمثاله الإمكانيات الكافية للحصول على وسائل التأليف والتدوين المتطلبة.

المقطع الثالث: دراسة في أهم مؤلفات الشيخ الطوسي الفقهية[٣]

١ - الأبواب، ويسمى (رجال شيخ الطائفة) وهو المعروف بـ(رجال الشيخ).

٢ - اختيار الرجال.. مهذب رجال الكشي.

٣- الاستبصار فيما اختلف من الأخبار.

٤ - الآمالي (ويسمى المجالس).. في الحديث.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٩.

(٣) انظر: مقدمة الخلاف ـ الشيخ الطوسي، مقدمة التحقيق التابعة لجماعة المدرسين بقم، ص١٣ من المقدمة التحقيقية.

٥ - التبيان في تفسير القرآن.

٦ - تلخيص الشافي... في الإمامة.

٧ - تهذيب الأحكام.. في الحديث.

٨ - الخلاف.. في الفقه.

٩ - العدة... في أصول الفقه.

١٠ - الغيبة... في غيبة الإمام المنتظر عليه السلام.

١١ - الفهرست.. في الرجال.

١٢ - المسبوط.. في فقه الإمامية.

١٣ - مصباح المتهجد.. في الأدعية والأعمال.

١٤ - المفصح.. في الإمامة.

١٥ - النهاية.. في الفقه.

وقد طبع قسم منها عدة طبعات في إيران والعراق والهند.

أما مشايخه - غير المفيد والمرتضى - وتلامذته فكثيرون، يرجع في التعرف عليهم إلى من أرخ لهم من باحثي سيرته المقدسة. وتوفي - طاب ثراه - في النجف الأشرف يوم (٢٢) من شهر محرم الحرام عام (٤٦٠هـ)، ودفن في داره حسب وصيته ثم حولت مسجداً وفق وصيته أيضاً. ولا يزال المسجد يعرف باسمه الشريف وهو يضم مرقده المطهر(١).

---

(١) انظر: مقدمة الخلاف، للطوسي حياة الشيخ وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص٢٨٩، وانظر: تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، ٢٨٠، وانظر: كتاب أعلام مذهب أهل البيت، ←

دراسة وتحليل فقه الشيخ الاستدلالي في كتابيه (الخلاف والمبسوط)

وبعد أن استكمل الشيخ الطوسي إعداد وسائل الاجتهاد (الاستدلالي) الأساسية، وذلك بتأليفه:

أ - كتابيه في الحديث (التهذيب) و(الاستبصار).

ب - وكتابيه في الرجال (الأبواب) و(الفهرست).

ج - وكتابيه في مجرد الفقه والفتوى (النهاية) و(الجمل والعقود).

د - وكتابه في أصول الفقه (العدة)، حيث تمت به العدة، توجه إلى التأليف في الفقه الاستدلالي على الطريقة الوسطى التي تبناها شيخه المفيد وسيده المرتضى وطلابهم، والتي هي بين الاتجاهين الأول والثاني المارة الذكر أي بين النقل والعقل المسلك الوسط والاتجاه الثالث كما تقدم:

وتقوم هذه الطريقة في الاستدلال على أساس من التوسل بالقواعد، لغوية وأصولية وفقهية وما إليها في التوصل إلى النتائج الفقهية، فألّف لهذا كتابيه: (الخلاف) و(المبسوط).

١- الخلاف

وبدأ بتأليف كتاب (الخلاف)، ولعله ليمهد به الجو العلمي لتقبل هذا اللون من الطريقة في الاستنباط، فيخفف به من الموقف السلبي الذي قد تقفه جماعة

→ ص١٥٩، ورياض المسائل ج١، مقدمة الآصفي ص٤١، وانظر: كتاب تدوين الحديث وتاريخ الفقه الشيعي ص٨٦، وانظر: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ٢٦١، وأدوار الفقه الإمامي، ١٢٦، ومقدمة الوسائل: ص٦٧، وانظر دليل النجف الأشرف للفضلي.

الفقهاء المحدثين وأتباعهم، ضد هذا التطور والتجديد.

وسماه (الخلاف مع الكل) - كما جاء في كتابه (الفهرست)، وأطلق عليه (الخلاف في الأحكام) و(مسائل الخلاف). وهو في الفقه الإسلامي المقارن، وقد أشار إلى هذا، وإلى منهجه في البحث فيه، في خطبته قال: «سألتم - أيدكم الله - إملاء مسائل الخلاف بيننا وبين من خالفنا من جميع الفقهاء، وذكر مذهب كل من خالف على التعيين، وبيان الصحيح منه، وما ينبغي أن يعتقد، وأن أقرن كل مسألة بدليل يحتج به على كل من خالفنا، ويوجب العلم من ظاهر القرآن، أو السنة المقطوع بها، أو دليل خطاب، أو استصحاب حال - على ما ذهب إليه الأكثر من أصحابنا - أو دلالة أصل، أو فحوى خطاب، وأن أذر خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يلزم المخالف العمل به، والانقياد له، وأن أُشفع ذلك بخبر من طريق الخاصة المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كانت المسألة مسألة إجماع من الفرقة المحقة ذكرت ذلك، وإن كان فيها خلاف بينهم أومأت إليه»[١].

٢- المبسوط

ثم ألف الشيخ بعد كتابه (الخلاف) كتابه (المبسوط)، وتسميته بالمبسوط تنبئ عن واقعه، حيث بسط فيه البحث من ذكر الرواية كدليل للمسألة الفقهية، وإلقاء قليل من الضوء - في بعض الأحيان - على الجانب الدلالي فيها، إلى التحليل

---

(١) الخلاف، الشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، م مؤسسة النشر الإسلامي قم المقدسة، ج١، ص٤٥. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، للفضلي، ص٣٠٨.

والتعليل والشرح والتلخيص والتأصيل والتفريع والنقد والترجيح والقبول والرفض، وذلك بتطبيق القواعد واستنطاق النصوص في ضوئها، والمقارنة بين الأقوال على هديها، ثم استعراض الدليل أو الأدلة لكل قول ومحاكمتها والموازنة بينها من خلال خلفياتها وخلال معطياتها. ومن هنا كان هذا الكتاب (النقلة العلمية) في مجال التطور العلمي في عالم الدرس الفقهي الإمامي.

ولقد استطاع أن يشق الطريق وسط الاتجاهين اللذين قد أشرنا لهما سابقاً، إلى تحقيق ما هدف إليه الشيخ المفيد وطلابه النوابغ كالشريف المرتضى وسلاّر فيكون اتجاههم الثالث الوسط والمعتدل قد حقق وجوده في النظرية والتطبيق، ورسم الخط الفكري العام في المادة العلمية والمنهج العلمي لمدرسة أهل البيت في مستقبل حياتها التشريعية بعد غيبة الإمام. وقد أشار الشيخ الطوسي في خطبة كتابه (المبسوط) إلى تهيبه تأليف هذا الكتاب من موقف الفقهاء المحدثين السلبي أمام مثل هذا التطور، بقوله: «وكنت على قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك، تتوق نفسي إليه فيقطعني عن ذلك القواطع، وتشغلني الشواغل، وتضعف نيتي أيضاً فيه قلة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتها به لأنهم ألفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ، حتى أن المسألة لو غيّر لفظها وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم لتعجبوا منها، وقصر فهمهم عنها»(١).

وذكر منهجه في البحث في كتابه هذا، فقال: «فعدلت إلى عمل كتاب يشتمل على عدد جميع كتب الفقه التي فصلها الفقهاء، وهي نحو من ثلاثين

(١) المبسوط في فقه الإمامية، شيخ الطائفة الطوسي، تحقيق محمد تقي الكشفي، المكتبة الرضوية، م حيدرية، طهران سنة ١٣٨٧، ج١ ص٢.

(ثمانين) كتاباً. - أذكر كل كتاب منها على غاية ما يمكن تلخيصه من الألفاظ.

- واقتصرت على مجرد الفقه دون الأدعية والآداب.
- وأعقد فيه الأبواب.
- وأقسم فيه المسائل.
- وأجمع بين النظائر.
- وأستوفيه غاية الاستيفاء.
- وأذكر أكثر الفروع التي ذكرها المخالفون.
- وأقول ما عندي على ما يقتضيه مذهبنا، وتوجبه أصولنا، بعد أن أذكر جميع المسائل.
- وإذا كانت المسألة أو الفرع ظاهراً أقنع فيه بمجرد الفتيا.
- وإن كانت المسألة أو الفرع غريباً أو مشكلاً أومئ إلى تعليلها، ووجه دليلها، ليكون الناظر فيها غير مقلد ولا مبحث[١].
- وإذا كانت المسألة أو الفرع مما فيه أقوال العلماء ذكرتها وبيّنت عللها والصحيح منها والأقوى، وأنبّه على جهة دليلها، لا على وجه القياس، وإذا شبّهت شيئاً بشيء فعلى جهة المثال، لا على وجه حمل أحدهما على الآخر، أو على وجه الحكاية عن المخالفين دون الاعتبار الصحيح.
- ولا أذكر أسماء المخالفين في المسألة لئلا يطول به الكتاب، وقد ذكرت ذلك في (مسائل الخلاف) مستوفى.

---

(١) ربما يكون المقصود (ولا متحير) أو (لا متخير).

- وإن كانت المسألة لا ترجيح فيها للأقوال، وتكون متكافئة، وقف فيها، ويكون المسألة من باب التخيير»[١].

كما أنه قال عن الكتاب أيضاً في المقدمة: «إنه كتاب لم يصنف مثله، ولا نظير له بين كتب الأصحاب، ولا في كتب المخالفين،... إلى أن قال: إن أصحابنا ألفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ، حتى أن مسألة لو غير لفظها وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم، تعجبوا منها، وقصر فهمهم عنها»[٢]، كما قدمنا قبل قليل من قوله رضوان الله تعالى عليه. وهكذا كان بحق في كل الميادين وهو كما وصفه العلامة الحلي بقوله: «شيخ الإمامية، ورئيس الطائفة، جليل القدر عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه صنف في كل فنون الإسلام، وهو المهذب للعقائد في الأصول والفروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والعمل»[٣].

---

(١) المبسوط في فقه الإمامية، ج١، ص٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢.

(٣) الخلاصة ص١٤٨.

المبحث الثالث: أهم فقهاء هذه المرحلة غير الطوسي

١ - ابن البراج الطرابلسي (٤٨١هـ)

وهو الشيخ سعد الدين أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير الشهير بـ(ابن البراج) الطرابلسي، فقيه عصره، وقاضي زمانه، وخليفة الشيخ الطوسي في الشامات، وقد أطرأه منتجب الدين في (فهرسته)، وابن شهر آشوب في (معالمه)، والعلامة الحلي في إجازته لبني زهره، إلى غير ذلك ممن ترجم له، وقصارى الكلام أنه كان زميلاً للشيخ من جهة وتلميذاً له من جهة أخرى، باعتبار أنهما قرآ على المرتضى وجلسا مجلساً واحداً فهما زميلان، وفي الوقت نفسه حضر مجلس درس الشيخ الطوسي وقيل إنّ الشيخ الطوسي ألف بعض كتبه بطلب منه. وله من الآثار كالتالي[1]:

- الجواهر في الفقه.
- المهذب البارع.
- شرح جمل العلم والعمل (للشريف المرتضى).
- الجواهر.

---

(١) أنظر أدوار الفقه الإمامي، ص١٤٥، ١٤٦.

٢ - أبو علي الطوسي (المتوفى نحو ٥١٥هـ)

وهو الشيخ الجليل أبو علي ابن شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ(المفيد الثاني)، قرأ على أبيه جميع تصانيفه وروى عنه، وعن سلاّر بن عبد العزيز الديلمي وغيره، وكان من كبار العلماء، فقيهاً محدثاً، راوية للأخبار وأثنى عليه ابن حجر وقال: «الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الطوسي، أبو علي سمع من والده وأبي الطيب الطبري والخلاّل والتنوخي، ثم صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي عليه السلام. سمع منه: أبو الفضل بن عطاف، وهبة الله السقطي ومحمد بن محمد النسفي، وهو في نفسه صدوق مات في حدود ٥٠٠هـ، كان متديناً» [١] ولكن الظاهر أنه كان حياً عام ٥١٥ هـ كما حكى عنه تلميذه العماد الطبري ومن آثاره:

- شرح النهاية لأبيه أبي جعفر الطوسي.
- الأمالي لمجالس والده.
- المرشد إلى سبيل التعبد - ورسالة في الجمعة - وكتاب الأنوار[٢].

٣ - سليمان بن الحسن بن سليمان المعروف بـ(نظام الدين الصهرشتي)

قيل توفي سنة ٤٦٠هـ وقيل أواخر القرن الخامس ومن آثاره العلمية:
إصباح الشيعة بمصباح الشريعة[٣].

(١) لسان الميزان، ج ٢، الترجمة ١٠٤٦.
(٢) أنظر أدوار الفقه الإمامي، ص ١٤٦، وأنظر تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره: ص ٢٩٧.
(٣) حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ص ٢٧٨.

٤ - علاء الدين علي بن الحسين الحلي المعروف بـ(ابن أبي المجد)

وقيل توفي في نهاية القرن السادس الهجري ومن آثاره العلمية:

- إشارة السبق إلى معرفة الحق[١].

٥ - أبو علي الفضل بن الحسن، المعروف بـ(أمين الإسلام الطبرسي)

توفي في سنة (٥٤٨هـ).

ومن آثاره العلمية كتاب (المنتخب من مسائل الخلاف)[٢].

٦ - عماد الدين محمد بن علي بن حمزة الطوسي المعروف بـ(ابن حمزة)

توفي سنة (٥٦٦هـ).

ومن آثاره العلمية (الوسيلة إلى نيل الفضيلة)[٣].

٧ - حمزة بن علي الحلبي الحسيني المعروف بـ(ابن زهرة)

توفي في سنة (٥٨٥هـ).

ومن آثاره العلمية كتاب (غنية النزوع)[٤].

٨ - سعيد بن عبد الله بن الحسين المعروف بـ(قطب الدين الراوندي)

توفي سنة (٥٧٣هـ).

---

(١) المصدر السابق وتاريخ الفقه الإسلامي وأدواره ص ٣٠٢ وأدوار الفقه الإمامي ص ١٥٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٩، ص ٢٩٨، ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٩، ص ٣٠١، ص ١٤٩.

(٤) أدوار الفقه الإمامي ص ١٥١، وتاريخ الفقه الإسلامي وأدواره ص٣٠٢.

ومن آثاره العلمية.

١ - فقه القرآن.

٢ - عدة شروح على النهاية.

٣- مسائل بالفارسية(١).

٩ - قطب الدين محمد بن الحسن الكليدري البيهقي

كان حياً إلى سنة (٥٧٦هـ).

ومن آثاره العلمية: الأصباح(٢).

١٠ - منتجب الدين علي بن عبد الله الرازي

كان حياً في سنة (٥٨٥هـ).

ومن آثاره العلمية كتاب (العصرة في المواسعة والمضايقة) (٣).

١١ - رشيد الدين محمد بن علي المعروف بـ(ابن شهر آشوب)

المتوفى سنة (٥٨٨هـ).

ومن آثاره العلمية:

أ - متشابه القرآن ومختلفه.

---

(١) انظر أدوار الفقه الإمامي ص ١٤٧، وتاريخ الفقه الإسلامي وأدواره ص ٢٩٩، وحركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ص ٢٧٩.

(٢) انظر حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ص ٢٨٠ وأدوار الفقه الإمامي ص ١٥٢.

(٣) مراحل تطور الاجتهاد: مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام العدد ١٤ ص ١٤٩.

ب - بيان المشكلات من الآيات المتشابهات[١].

١٢- شاذان بن جبرائيل القمي

كان حياً في سنة (٥٩٣هـ).

ومن آثاره العلمية كتاب (إزاحة العلة في معرفة القبلة)[٢].

١٣- معين الدين سالم بن بدران المصري

توفي في سنة (٦٢٦هـ).

ومن آثاره العلمية.

أ - رسالة في كيفية غسل الجنابة.

ب - المعونة في مسائل الميراث[٣].

١٤- محمد بن محمد بن حسن المعروف بـ(الخواجة نصير الدين الطوسي)

كان والده من الفقهاء والمحدثين فتربى في حجره، ولد في طوس وتوفي في بغداد سنة (٦٧٢هـ) ودفن في مقابر قريش في الحرم الكاظمي، كان حكيماً وفيلسوفاً ومتكلماً وفقيهاً وقيل في حقه هو أشهر علماء القرن السابع وأشهر مؤلفيه كتب وألف ما يناهز مائة وأربعة وثمانين مؤلفاً بين رسائل وجوابات مسائل وكتب في شتى الفنون وله آثار فقهية كثيرة منها.

---

(١) أدوار الفقه الإمامي ص ١٥٥، وتاريخ الفقه الإسلامي وأدواره ص٣٠٦، وحركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ص ٢٨٠.

(٢) مراحل تطور الاجتهاد: مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام العدد ١٤ ص ١٤٩.

(٣) المصدر السابق.

أ- البينات في تحرير المواريث.

ب - الفرائض النصيرية = جواهر الحقائق.

وكان له الفضل الكبير في رد المغول عن الإسلام والتأثير على هولاكو حتى سخره للإسلام بعد ما كان عدواً للإسلام وشارباً للدماء وقاتلاً للنفوس فجعله يصلح بلاد المسلمين ويهتم بالأمور الثقافية في البلاد[١] وهو يعد أيضاً من فقهاء المرحلة اللاحقة باعتباره عاصر المحقق وحضر درسه.

١٥- ابن إدريس الحلي

وهو محمد بن أحمد بن منصور العجلي الربعي الحلي المتوفى سنة (٥٩٨هـ).

قال فيه بن جحر العسقلاني في كتابه (لسان الميزان ٥/٦٥): «فقيه الشيعة، وعالمهم، له تصانيف في فقه الإمامية، ولم يكن للشيعة في وقته مثله»: وقال المحدث النوري، في (المستدرك ٣/٤٨١): «الشيخ الفقيه، والمحقق النبيه، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إدريس الحلي العجلي، العالم الجليل المعروف، الذي أذعن بعلو مقامه في العلم والفهم والتحقيق والفقاهة أعاظم الفقهاء في اجازاتهم وتراجمهم. فقال الشهيد في إجازته لابن الخازن الحائري: وبهذا الإسناد عن فخار، وابن نما، مصنفات الشيخ العلامة المحقق، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن إدريس الحلي الربعي. وقال المحقق الثاني في إجازته للقاضي صفي الدين: ومنها جميع مصنفات ومرويات الشيخ الإمام السعيد المحقق، خير العلماء والفقهاء، فخر الملة والحق والدين، أبي عبد الله محمد بن إدريس الحلي الربعي، بر الله مضجعه، وشكر له سعيه».

---

(١) أعلام مذهب أهل البيت ص١٧٥.

دراسة وتحليل إنجازات ابن إدريس الحلي الفقهية

بعد وفاة الشيخ الطوسي أصيب الفقه الإمامي الشيعي بركود وجمود إلى مجيء الشيخ ابن إدريس وربما لو استمر هذا الجمود لأدى إلى انتهاء الاجتهاد وغلق بابه عند الشيعة الإمامية، ومن أسباب ذلك الجمود:

أولاً: عظمة الشيخ الطوسي بنظر من جاء بعده، (وهو كذلك إلى الآن).

ثانياً: حالة التصاغر أمام آراء الشيخ العلمية.

ثالثاً: ما كان من بعض الفقهاء من ميل إلى مدرسة المحدثين كالشيخ الحسن ابن الحسن المدعو بحسكا وغيرها.

ولذلك عندما جاء ابن إدريس وكان يمتلك من الجرأة الأدبية ما دفعه إلى أن يكسر الجمود الذي كان عليه الفقهاء من تلامذة الشيخ الطوسي وتلامذته حيث لم يقوموا على إعمال اجتهادهم وإبداء آرائهم الاجتهادية، وأن يقضي على الركود الذي مني به الفقه الإمامي خلال هذه الفترة، وأقدم على إبداء آرائه الفقهية المخالفة لآراء من تقدمه من الفقهاء، وإقدامه وبكل جرأة أدبية نابعة من ثقته بنفسه، واعتداده بها، وقوة علمية أفادها من بلوغ درجة الاجتهاد المطلق، إلى مناقشة ومحاكمة آراء الفقهاء السابقين عليه، فأعاد بهذا إلى الاجتهاد حيويته ونشاطه، وفتح المجال رحباً إلى استخدامه، والإفتاء في الخلافيات بكل حرية وثقة.

ونستطيع أن نطلق على وقته انطلاقة الفقه من جديد بعد فترة الركود والسبات الذي أصاب الفقه الإمامي بعد الشيخ الطوسي.

كما أنه ليحافظ على خط الاتجاه المعتدل الذي رسمه الشيخ المفيد والتَزَمَهُ من بعده تلامذته كالمرتضى والطوسي وتلامذتهما ركز كثيراً في درسه وتأليفه على

استخدام القواعد الأصولية.

وكذلك أعلن في كتابه (السرائر) تربيع مصادر الفقه بذكر العقل، وهو الدليل الرابع الذي كشف عنه السيد المرتضى في أجوبته إلا أنه لم يدرجه في قائمة المصادر تهيباً من الإثارة، وحفاظاً على الوضع الفكري القائم آنذاك من أن ينجر إلى الصراع العائق. يقول الشيخ العلامة محمد رضا المظفر في كتابه (أصول الفقه) في الجزء الثالث تحت عنوان الدليل العقلي: «وأول من وجدته من الأصوليين يصرح بالدليل العقلي الشيخ ابن إدريس (المتوفى ٥٩٨هـ)، فقال في (السرائر ص٢): فإذا فقدت الثلاثة (يعني الكتاب والسنة والإجماع) فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل فيها»[١].

وقد ذكر ابن إدريس ذلك في مقدمة كتابه (السرائر) بقوله: «فاعتقادي فيه (أي في السرائر) أنّه أجود ما صنف في فنه، وأسبقه لإيفاء سنه، وأذهبه في طريق البحث والدليل والنظر، لا الرواية الضعيفة والخبر، فإني تحريت فيه التحقيق وتنكبت ذلك عن طريق، فإن الحق لا يعدو أربع طرق:

- إما كتاب الله سبحانه.
- أو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتواترة المتيقن عليها.
- أو الإجماع.
- أو دليل العقل.

فإذا فقد الثلاثة فالمعتمد في المسألة الشرعية عند المحققين الباحثين عن أخذ

---

(١) أصول الفقه، الشيخ محمد رضا المظفر، إسماعيليان، قم، ط٦، سنة ١٣٧٣هـ.ش، ج٣، ص١٢٢.

الشريعة التمسك بدليل العقل، فإنها مبتغاه وموكولة إليه».

ونسب إلى ابن إدريس أيضاً حملات نقده الجريء التي شنها على الشيخ أبي جعفر الطوسي بشكل خاص، حيث قيل إنّها بما لا يتناسب وآداب البحث. وهذه النسبة في الحقيقة لا صحة لها حيث ذكر السيد الخوئي ذلك وقال. بعد أن تتبع المسألة - في كتابه (معجم رجال الحديث ١٥/٦٤): «بقي هنا شيء، وهو أن المعروف في الألسنة أن ابن إدريس تجاسر على شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي قدس سره جسارة لا ينبغي صدورها عن جاهل فضلاً عن مثل ابن إدريس وهذه القصة لا أساس لها... وأما منشأ هذه القصة التي لا أساس لها فهو قصور الفهم عن درك مراد ابن إدريس قدس سره.

وعرف عن ابن إدريس إضافة إلى ما تقدم من.

- حملته النقدية للوقوف أمام غلق باب الاجتهاد.

- وتصريحه بتربيع مصادر الفقه.

وعرف بعدم تجويز العمل بخبر الواحد المظنون صدوره عن المعصوم[١].

وكذلك عرف كمؤسس لحوزة الحلة التي أنجبت علماء عباقرة كالمحقق والعلامة وغيرهم كما سوف نذكر تفاصيل ذلك في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى، ولكن بقي أن نذكر أهم خصائص هذه المرحلة من مراحل تأريخ الفقه الإمامي.

---

(١) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص٣٤٥، وانظر: حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، ص٢٨٥٠، وانظر: تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، ص٣١٥. وأدوار الفقه الإمامي، ص١٦٦.

المبحث الرابع: خصائص مرحلة الانطلاق

لقد شهد القرن الخامس الهجري تطوراً ملموساً في الفقه الاجتهادي الاستدلالي، بعد عصر المفيد والمرتضى اللذين مثّلا اتجاهاً جديداً في الجمع بين الاتجاه الحديثي والاتجاه العقلي. وأخذ هذا الاتجاه بالتطور بعد أن تبنّاه الشيخ الطوسي وطوره، وضمنه عناصر القوة والإبداع العلمي.

فقام الشيخ الطوسي بمهمة تطوير هذا الاتجاه الفقهي الذي ورثه من أُستاذيه المفيد والمرتضى على عدة أصعدة وفي عدة مجالات:

المجال الأول: تقنين عملية الاستنباط بشكل أدق من ذي قبل

استمراراً على الخط الذي بدأه المفيد ثم طوره المرتضى في مجال فصل علم أصول الفقه عن الفقه، واستقلاله بالبحث والتدوين، فقد دون الشيخ الطوسي كتاب «عدة الأصول» الذي فاق الكتب الأصولية السابقة عليه، والذي يعدّ من الخطوات العلمية للشيخ في مجال الاستنباط الفقهي. وأصبح هذا الكتاب - منذ تأليفه - محوراً للتدريس إلى قرون متأخرة وكتبت عليه الشروح والتعليقات الكثيرة، وذلك لأهمية الكتاب حيث أفاض فيه القول في تنقيح مباني الفقه بما لا مزيد عليه في عصره.

المجال الثاني: تطبيق منهج الاستنباط الفقهي

لم يكتفِ الشيخ الطوسي بتدوين القواعد الأُصولية، وتوفير أدوات الاستنباط الأُخرى اللازمة لتقنين عملية الاستنباط وإنما سعى وبذل جهوداً كبيرة لتطبيق المنهج الاستنباطي على أُسس عملية دقيقة، لأن توفير أدوات الاستنباط - لوحدها - لا تكفي للاستنباط والتفقه في الدين بشكل اجتهادي، بل لابد من التطبيق العملي لمنهج الاستنباط أيضاً وهذا ما قام به الشيخ الطوسي في - تهذيب الأحكام - حين قرر شرح كتاب (المقنعة) للشيخ المفيد، شرحاً استدلالياً ينحو باتجاه إثبات الآراء الفقهية الواردة في المقنعة أو إثبات آرائه الفقهية، لذا فتهذيب الأحكام ليس كتاباً حديثياً محضاً[١].

أما مشكلة الأخبار المتعارضة فقد عالجها الشيخ الطوسي في كتاب الاستبصار. وبهذا وفرّ الشيخ الطوسي للفقيه كل أدوات الممارسة الفقهية الاجتهادية نظرية وتطبيقاً، وهذه خطوة كبيرة وعملاقة في مجال الفقه الاجتهادي، خرج من خلالها الفقه الإمامي الشيعي عن حدود استعراض السنة ونقل الحديث إلى المجال الأوسع والأعمق.

المجال الثالث: التوسع في بيان المسائل الفرعية الفقهية

للشيخ الطوسي إنجازات كبيرة في مجال توسعة مجال الاستنباط الفقهي المبتني على القواعد العامة للاستنباط، واستخدام القواعد المشتركة في تفريع الفروع على الأصول.

ومن خلال ملاحظة الفترة الزمنية التي سبقت الشيخ الطوسي، والآثار

(١) المصدر السابق، ١٨١.

العملية التي دونت في تلك الفترة، نلاحظ قلة التفريع والجمود على ظواهر الروايات وقلة استخدام العناصر المشتركة في الاستنباط، ومن ثم محدودية الفروع الفقهية لدى مدرسة الشيعة الفقهية، مما جعل علماء المذاهب الأخرى يستحقرون فقه الإمامية - ويستنزرونه - حسب تعبير الشيخ الطوسي.

يقول الشيخ الطوسي في مقدمة كتابه الفقهي - المبسوط -: «... لا أزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقهة والمنتسبين إلى علم الفروع، يستحقرون فقه أصحابنا الإمامية - ويستنزرونه - وينسبونهم إلى قلة الفروع وقلة المسائل، ويقولون: إنهم أهل حشو ومناقضة، وإن من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلى كثير من المسائل، ولا التفريع على الأصول، لأن جل ذلك وجمهوره مأخوذ من هذين الأصلين»[1].

ثم يشير الشيخ إلى نقطة مهمة وهي: إن من ينسب إلى فقه الشيعة قلة الفروع ومن ثم محدودية الاستنباط الفقهي ناظر إلى الواقع الخارجي، والآثار الفقهية لعلماء مذهب الإمامية في ذلك الزمان، فإن صح هذا النقد من هذه الجهة، - وهو نقد صحيح كما يعترف بذلك الشيخ لاحقاً - فهو لا يصح بالنسبة للأصول الموجودة في متون الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام. وعبارة الشيخ في المبسوط كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - بعد العبارة السابقة الذكر - واضحة الدلالة حيث يقول: «...وهذا جهل منهم بمذهبنا، وقلة تأمل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أنّ جل ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا، ومنصوص عليه تلويحاً عن أئمتنا، الذين قولهم الحجة يجري مجرى قول

(١) المبسوط في فقه الإمامية، الشيخ الطوسي، ج١، ص١ ـ ٢.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أما خصوصاً أو عموماً أو تصريحاً أو تلويحاً»[١].

فالشيخ الطوسي أوّل من عالج الفقه الاستدلالي مشروحاً ومبسّطاً في كتابه - المبسوط - وهي حركة راشدة استطاع من خلالها أن يحقق هدفين في آن واحد:

أحدهما: إثبات قدرة الفقه الشيعي على مسايرة الزمن، بالرغم من تحفظه بالنسبة إلى اجتهاد الرأي (القياس والاستحسان) وذلك لإمكان الإفتاء على أساس الاجتهاد المتحفظ (اجتهاد النص) لا اجتهاد الرأي.

وثانيهما: إثبات أن الفقه الشيعي بالرغم من إصراره وثباته على اجتهاد النص، وتحفظه من إدخال عناصر استحسانية عقلية ظنية إلى مجال الاستنباط فإنه يستطيع أن يسبق الفقه الآخر في هذا المضمار، فالفقه الشيعي فقه ريادي... لم ينحرف عن أصوله العلمية التي تبنّاها وشيَّد أسسها الأئمة الأطهار خلال ثلاثة قرون من الممارسة الفقهية الدائبة تحت إشرافهم وتوجيههم المباشر[٢].

فالشيخ الطوسي قد وظف الأحاديث المروية عن الأئمة عليهم السلام والتي تتضمن الأصول المهمة للأحكام، وقام بتفريع الفروع على تلك الأصول وقد أقر الشيخ الطوسي في مقدمة المبسوط بأن الإمامية لم يكونوا يفرعون الفروع على الأصول إلى زمانه، وكانوا يقفون عند النصوص التي وصلت إليهم من المتقدمين ومن المحدثين: يقول: «وكنت على قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك - التفريع على الأصول - تتوق نفسي إليه، فيقطعني عن ذلك القواطع... ويضعف نيتي قلة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك

---

(١) المصدر السابق، ص٢.

(٢) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام عدد١٣، ص١٨٢ بتصرف.

عنايتهم به لأنهم ألفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ حتى أن المسألة لو غيّر لفظها وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم تعجبوا منها وقصر فهمهم عنها...»[١].

ثم يقول: «... وهذا الكتاب - المبسوط - إذا سهل الله تعالى إتمامه يكون كتاباً لا نظير له لا في كتب أصحابنا ولا في كتب المخالفين، لأني إلى الآن ما عرفت لأحدٍ من الفقهاء كتاباً واحداً يشتمل على الأصول والفروع مستوفياً مذهبنا، بل كتبهم وإن كانت كثيرة فليس تشتمل عليها كتاب واحد. وأما أصحابنا فليس لهم في هذا المعنى ما يشار إليه بل لهم مختصرات...»[٢].

هذا الإنجاز العلمي الضخم - للشيخ - فتح آفاقاً رحبة للعلماء من بعده حيث اجتاز الفقه الاجتهادي الإمامي منعطفات خطيرة في مسيرته التكاملية، ووصل إلى مراحله الواسعة في الأبحاث الاستدلالية الاستنباطية، وأصبح بإمكانه الإجابة على المسائل الجديدة، والفروع المستحدثة فاتحاً بذلك عصراً تكاملياً جديداً. ولا يمكن أن نغمط حق الذين سبقوا الشيخ من أعلام الطائفة، إذ إنّ حركة الشيخ الطوسي حركة تكاملية واسعة وفي طول امتداد تلك الخطوات العلمية التي سبقته من خلال العماني، وابن الجنيد، والمفيد، والمرتضى، وسلاّر...

المجال الرابع: تطوير وتدوين الفقه المقارن الموسوعي:

علم الخلاف والفقه المقارن من العلوم الجليلة، العظيمة الشأن، الكثيرة الفائدة.

---

(١) المبسوط في فقه الإمامية: ج١، ص٢.

(٢) المصدر السابق.

فالفقه المقارن: هو جمع آراء المجتهدين في شتى المسائل الفقهية على صعيد واحد من دون إجراء موازنة بينها.

وأما الخلاف: فهو جمع الآراء الفقهية المختلفة وتقييمها والموازنة بينها بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض[١]. أو أنّه «علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية ودفع الشبهة وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية». والفقه المقارن عند الشيعة الإمامية قد بدأ به كلّ من الشيخ المفيد، والسيد المرتضى، وتشير بعض آثارهما الفقهية إلى وجود تطوّر ملحوظ في الطرح وفي مقدار حجم البحوث المقارنة من المفيد إلى عصر السيد المرتضى.

ولكن الفقه المقارن الموسوعي والمستوعب لكل أبواب الفقه، وبشكل موسع في كل باب، هو الذي قام به الشيخ الطوسي في كتابه القيم «الخلاف في الأحكام» أو «مسائل الخلاف» وهو كتاب فقهي مقارن بين المذاهب الإسلامية، عني بذكر المسائل الفقهية مع النظر بعين الاعتبار لموارد الاختلاف بين أصحاب الحديث والرأي من فقهاء العامة. وربما كان (الخلاف) أول كتاب خلافي عند الإمامية[٢].

وهذا الجهد المبارك الذي بذله الشيخ الطوسي قدس سره كان ضمن محاولاته وجهوده الكبيرة لإثبات القدرة والتفوق للفقه الشيعي الإمامي على فقه سائر المذاهب الأخرى، فإلى جانب جهوده السابقة في التوسع والبسط والتفريع في المسائل الفقهية الاستدلالية، لابد له من أن يقوم بعملية المقارنة بين الفقه الإمامي وسائر المدارس الفقهية الأخرى، وهذا هو الذي انتهى به إلى أن يكتب «الخلاف»

---

(١) الأصول العامة للفقه المقارن: محمد تقي الحكيم، ص١٣.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي: ص٢٨٧.

وهو كتاب موسع يعتمد المقارنة وهو يشير في آن واحد إلى خصائص الفقه الشيعي مقارناً مع الفقه غير الشيعي الإمامي بشتى مذاهبه، كما يشير إلى مدى عظمة الفقه الشيعي الإمامي وقدرته على مسايرة الزمن بالرغم من تحفظه تجاه استخدام العقل في مجال الاستنباط(١)، كما قدمنا الإشارة إلى ذلك عندما تكلمنا عن آثار الشيخ الطوسي وتناولنا بعض آثاره وتكلمنا حولها ببعض الإسهاب.

المجال الخامس: الاهتمام بالدراسات القرآنية الفقهية

تمثّل الاهتمام بالدراسات القرآنية والإفادة منها في المجال الفقهي في مؤلفات الشيخ الطوسي، وذلك باعتبار أن موضوع الاجتهاد هو الأدلّة الشرعية التي تضمنت الأدلة التفصيلية للأحكام الشرعية الفقهية، ومن أهم هذه الأدلّة هو (الكتاب الكريم) إلى جانب الأدلّة الأُخرى. فقد اشتمل القرآن الكريم على آيات تضمنت القواعد العامة في التشريع، وبيان كليات الأحكام الشرعية فلابد للفقيه من اعتماده، في عملية الاستنباط الفقهي كمصدر أساسي. وكتاب الشيخ الطوسي التفسيري - التبيان - من أروع وأغنى الكتب التفسيرية، يعكس مدى الاهتمام البالغ من قبل الشيخ في الجانب القرآني، وهو بلا شك عمل كبير في انطباع الفقه الإمامي بالطابع القرآني. وتفسير (التبيان) وإن لم يكن يختص بآيات الأحكام الشرعية وإنما هو تفسير شامل لما بين الدفتين، إلا أن جهود الشيخ الريادية قد أثمرت في أن يحظى الفقه الإمامي بكتاب راشد في فقه القرآن خاصة، وهو ما كتبه قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) بعد قرن من محاولة الشيخ القرآنية.

---

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: الحكيم، عدد١٣، ص١٨٣.

وهذه هي أهم الخصائص والمنجزات للشيخ الطوسي قدس سره في مجال تطوير الفقه الاستدلالي الاجتهادي والتي تعتبر لكل المرحلة باعتباره رائداً للمرحلة. وله جهود كبيرة في المجالات العلمية الأخرى لا تقل أهمية عن مجال الفقه واستنباط الأحكام.

وبقي أن نشير إلى بعض الظواهر السلبية في المرحلة والتي لا نعتبرها من امتيازات المرحلة وهي:

الظاهرة الأولى: ظاهرة الجمود والتقليد بعد وفاة الشيخ لمدة طويلة مقتصرة على نقل آراء الشيخ أو شرحها إلى مجيء ابن إدريس.

الظاهرة الثانية: كثرة الاعتماد على الإجماعات.



الفصل الرابع

مرحلة الاستقلال والرشد للفقه الإمامي

المبحث الأول: تحديد المرحلة ومعناها

ونعني بهذه المرحلة، الاستقلال للفقه الإمامي والنمو والرشد للفكر الاجتهادي الاستدلالي (الاستنباطي). ورفع اليد عن حالة المحاكاة والاعتناء بالفقه الآخر وعدم مسايرته فيما يرتبط بعناوين الأبحاث وأدلتها.

حيث برز بعد ابن إدريس الحلي رحمه الله علماء كبار، ومجتهدون ومحققون جهابذة، قد شمروا عن سواعدهم، وبذلوا أعمارهم، حتى استطاعوا أن يرتقوا بالفقه الاستدلالي والاجتهادي الإمامي إلى مراتب عالية تجاوز بها خطر الركود وغلق باب الاجتهاد ومضار التقليد لفقه الشيخ الطوسي الذي اتصف به الفقه قبل هذه المرحلة. فنشطت مدرسة الحلة وجبل عامل. أما مدرسة الحلة فمن بعد الشيخ ابن إدريس الحلي المؤسس لحوزة الحلة جاء دور الأسر العلمية الحلية التي أسهم علماؤها في مجال العلوم الإسلامية بقسط وافر، وأعطى مركز الحلة الأهمية من خلال ما قاموا به من التدريس والتأليف والإضافات الجيدة الجادة في هذا المجال.

تبدأ المرحلة الرابعة من مراحل الفقه الإمامي التأريخية بظهور المحقق الحلي (ت: ٦٧٦هـ) فيكون منتصف القرن السابع تقريباً هو بداية هذه المرحلة وتستمر باستمرار النشاط الفقهي لأعلام المرحلة وحتى نهاية القرن الثامن متضمنة فقه الشهيد الأوّل وآخرين وربما نستمر أكثر من ذلك حتى فقه الشهيد الثاني والمحقق الكركي ولكنه خارج نطاق البحث حيث بحثنا حول تأريخ الفقه الإمامي إلى نهاية القرن الثامن فقط فلذلك سوف تكون أواخر المرحلة أو جزء منها غير داخل في البحث ولكن ربما نشير له إجمالاً حتى يتكامل البحث.

المبحث الثاني: المحقق الحلي ودراسة منجزاته الفقهية والعلمية

المحقق الحلي: وهو نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي الحلي المشتهر به (المحقق) و(المحقق الحلي).

ووصفه تلميذه ابن داود في رجاله بقوله: «المحقق المدقق الإمام العلامة، واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجة، وأسرعهم استحضاراً»[١].

وقال فيه السيد حسن الصدر في إجازته الكبيرة للشيخ الطهراني: «هو أول من نبع منه التحقيق في الفقه، وعنه أخذ، وعليه تخرج ابن أخته العلامة الحلي رضي الله عنه وأمثاله (من) أرباب التحقيق والتنقيح، وليس في الطائفة أجل منه بعد الشيخ الطوسي رضي الله عنه...» [٢].

وقال السيد الصدر أيضاً: «وبرز من عالي مجلس تدريسه أكثر من أربعمائة مجتهد جهابذة، وهذا لم يتفق لأحد قبله»[٣].

---

(١) حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ص ٢٩١، نقلاً عن لؤلؤة البحرين للبحراني ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩١، نقلاً عن مقدمة شرائع الإسلام تحقيق عبد الحسين البقال ص ٧.

المقطع الأول: أهم مؤلفات المحقق الحلي

١ - رسالة التياسر في القبلة.

٢ - شرايع الإسلام في مسائل الحلال والحرام.

٣- النكهة في المنطق.

٤ - مختصر المراسم (لسلاّر الديلمي).

٥ - فهرست المصنفين.

٦ - رسالة في الكلام.

٧- المسائل البغدادية.

٨- المسائل العزية هي (عشر مسائل كتبها لعز الدين).

٩ - المسائل المصريات.

١٠ - المسلك في أصول الدين.

١١ - معارج الأصول.

١٢ - المعتبر في شرح المختصر.

١٣ - النافع أو المختصر النافع.

١٤ - نكت النهاية (حل مشكلات النهاية) (للشيخ الطوسي).

١٥ - نهج الوصول إلى معرفة علم الأصول.

المقطع الثاني: إنجازات المحقق في إعداد المناهج العلمية لتطوير الفقه

وقد قام الشيخ المحقق الحلي بإنجازات رائعة في تطوير الفقه الإمامي وهي:

الأول: المعارج والنهج

تأليفه لكتابين في أصول الفقه، وهما (المعارج) و(النهج)، وذلك ليواصل تنمية الفكر الأصولي، وتجلية وتنقيح القواعد الأصولية، وبخاصة بعد أن نجح سلفه الشيخ ابن إدريس في تحريك الوضع الفقهي الراكد بعد الشيخ الطوسي بإعادته إلى موقعه أيام الشيخ الطوسي، فلابد والحالة هذه من التركيز على تطوير الفكر الأصولي لأنه الأساس لعملية الاستدلال والاستنباط. واستطاع أن يبلور بعض المفاهيم والمصطلحات الأصولية، وأن يوضح ويضيف في مجال القواعد الأصولية.

الثاني: الشرائع

تأليفه لكتاب (الشرائع) حيث حقق به مرحلة مهمة من مراحل التطوير في المتون الفقهية، وبخاصة عند مقارنته بكتاب (النهاية) للشيخ الطوسي حيث لم يلتزم في تأليفه ذكر متون الأحاديث وألفاظها، ولأنه أيضاً أكثر فيه من التفريع وذكر الأقوال والإشارة إلى نتائج الأدلة، مما جعله يستقطب اهتمام الدارسين والباحثين والمؤلفين، فيحل محل النهاية، ويزيد على كتاب النهاية بما وضع له من الشروح التي ناهزت أو جاوزت المائتين، ولا يزال حتى الآن مدار الدرس ومثار البحث، في الوقت الذي انتهى فيه دور النهاية بتداول الشرائع في الوسط العلمي.

وقد أحصى السيد محمد جواد الجلالي في بحثه شروح الشرائع[1] في الفترة

(١) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١١ و١٢، ص٣٣٠، بحث شروح الشرائع للجلالي.

المتأخرة عدد شروح الشرائع فبلغت (٢٠٤) شرحاً منها اثنان وعشرون شرحاً مجهولة المؤلف وناقصة من الأول أو الأخير وقد ذكر صاحب الذريعة في كتابه اسم اثني عشر شخصاً من فطاحل العلماء ممن علقّوا على شرائع الإسلام أولهم المحقق الكركي ولا زال العلماء يعلقون على هذا الكتاب بتعاليق وشروح مفيدة أخذت بعضها في الآونة الأخيرة طريقها إلى النشر، ونظراً للشمولية التي يمتاز بها هذا الكتاب في فقه الإمامية فقد انبرى عدد من الفضلاء لترجمته إلى بعض لغات العالم الحيّة، عرّف السيد المدرسي بأربع عشرة ترجمة لهذا الكتاب باللغات الفارسية والاردوية والهندية في مقدمته، كما أشار السيد الحكيم في مقدمته للطبعة الحديثة إلى ترجمة هذا الكتاب باللغات التركية والروسية والفرنسية، ومن بين أفضل الشروح لهذا الكتاب هو شرح الشهيد الثاني رحمه الله في كتابه (مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام) ويعتبر من أجود الشروح والتعليقات على الكتاب يمتاز بدقة النظر العميق وعمق المعاني وسلاسة التعبير، وكذا شرح الموسوي العاملي (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) وهو من الكتب الاستدلالية الرصينة المعتمدة لدى العلماء والفقهاء منذ عصره إلى الوقت الحاضر، وكذا شرح الشيخ محمد حسن الجواهري أو صاحب الجواهر (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) وهو أعمق الشروح على الشرائع وأشهرها على الإطلاق في الأوساط العلمية واشتهر هذا الشرح واحتل مكانة مرموقة لدى العلماء حتى وصف بأنه لم يصنف مثله في الإسلام، وهذا الاهتمام كله بكتاب الشرائع لدى العلماء والفقهاء لمكانته العلمية لدى الفقهاء حتى أولوا له هذا الاهتمام الكبير الذي أحدث تأثيراً في المنهجية الفقهية لدى علماء الطائفة. كما سنشير إلى ذلك بإسهاب في خصائص المرحلة إن شاء الله.

الثالث: المختصر النافع

اختصاره للشرائع في كتابه الذي أسماه (المختصر النافع)، والذي يطلق عليه أحياناً واختصاراً اسم (النافع) واسم (المختصر)، وأيضاً كان موضع الدرس والبحث والتأليف تعليقاً عليه وهناك ما يقارب الخمسين شرحاً له كما ذكر السيد الجلالي في بحثه شروح المختصر(١).

وبهذين الكتابين استطاع الشيخ المحقق أن ينقل التأليف الفقهي من وضعه ومنهجه الذي كان عليه عند جماعة الفقهاء المحدثين حيث الالتزام بمتون الأحاديث وألفاظها، إلى التأليف بالتعبير الحر.

الرابع: المعتبر

تأليفه كتاب (المعتبر) الذي يعد ثاني كتاب استدلالي بعد كتاب (المبسوط) للشيخ الطوسي، ذلك أن كتاب (السرائر) للشيخ ابن إدريس الحلي يقع بين الكتاب الاستدلالي والكتاب الفتوائي. وأبان في خطبته - أي المعتبر - عن غايته من تأليفه، وعن منهجه في تأليفه، فقال: «أحببتُ أن أكتب دستوراً يجمع بين أصول المسائل وأوائل الدلائل، أذكر فيه خلاف الأعيان من فقهائنا ومعتمد الفضلاء من علمائنا، وألحق بكل مسألة من الفروع ما يمكن إثباته بالحجة، وسياقته إلى المحجة، قطعت الحوادث عن ذلك القصد، ومنعت الكوارث عن ورد ذلك الورد، حتى اتفق لنا اختصار كتاب الشرائع بالمختصر النافع، فدق كثير من معانيه لشدة اختصاره، واشتبهت معاضده بعد أغواره، فحركني ذلك لشرح

---

(١) انظر مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: العدد ١٣، بحث شروح المختصر النافع للسيد الجلالي.

مشتمل على تحرير مسائله، وتقرير دلاله»[١].

ويبدو أن الشيخ المحقق كان مدركاً لما قد يتعرض له كتابه هذا من مواقف سلبية من قبل جماعة الفقهاء والمحدثين والآخرين المترددين بين الإقدام والإحجام نحو هذا التطوير في منهج البحث الفقهي، فقدم قبل الشروع، بموضوعات الكتاب مقدمة تشتمل على فصول، ضمن الفصل الأول منها وصيته وتعليماته لمن يريد أن يتعامل مع كتابه هذا، وجاء فيها: «ثم أوصيك: إيّاك والخشية من المتفقهة والمقلدة منهم، فربما خدعوك ليجذبوك إلى جهالتهم، وإنما يريدون جبر مقالتهم وستر ضلالتهم»[٢].

وقد نفهم من عبارته هذه أنه أراد بالمتفقهة أرباب الحديث، ذلك أن الفقيه لا يكون فقيهاً في رأي أصحاب الاتجاه الوسط، وبخاصة في عصر الغيبة إلا إذا درس علم أصول الفقه واستخلص باجتهاده منه منهجه في البحث الفقهي.. وأراد بالمقلدة أولئك النفر الذين جمّدوا ذهنياتهم الفقهية عن التفكير بغية التطوير في المنهج الفقهي.

الخامس: إعداد المجتهدين

فقد عمل وبجد ومثابرة وإخلاص على تخريج رعيل من المجتهدين، فيه الكفاية من حيث الكم والنوع للنهوض بالمهمة، وكما أشرنا أنه قد خرج من تحت منبره أكثر من أربعمائة مجتهد، من أبرزهم ابن أخته العلامة الحلي الذي واصل

---

(١) المعتبر في شرح المختصر، المحقق الحلي، لجنة التحقيق بإشراف ناصر مكارم، مؤسسة سيد، م مدرسة أمير المؤمنين، سنة ١٣٦٤هـ.ش، قم، ص١٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٢١.

المسيرة التطويرية للفقه الإمامي من بعده بل على كافة الأصعدة وحمل لواءها وبكل جدارة وثقة وأمانة كما سوف يأتي الكلام عليه بعد المحقق خاله.

السادس: تحديد المحقق الحلي لأدلة الفقه

وقد ذكر في الفصل الثالث من مقدمة (المعتبر) أدلة الفقه حيث قال: «الفصل الثالث في مستند الأحكام، وهي عندنا خمسة:

١ - الكتاب.

٢ - والسنة.

٣ - والإجماع.

٤ - والعقل.

٥ - والاستصحاب»[١].

وهذا يدل على أنه أراد أن يؤكد على ما صرح به الشيخ ابن إدريس من تربيع الأدلة.

وبإضافته «الاستصحاب» إليها، وضعه موضع البحث فيه كدليل شرعي، وذلك أن الاستصحاب وأخواته من البراءة والاحتياط والتخيير هي أدلة ما عرف فيما بعد بالأحكام الظاهرية، ومن غير شك أنه عناها مضافة إلى الأحكام الواقعية وإن لم يستعمل المصطلح لأنه بعد لما يوضع، وذلك لأنه أطلق عبارة (الأحكام) لتشمل النوعين المذكورين.

---

(١) المعتبر في شرح المختصر، المحقق الحلي، ص٢٨.

المبحث الثالث: العلامة الحلي ودراسة منجزاته الفقهية وإبداعاته العلمية

وهو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي بن محمد بن المطهر الأسدي الحلي.

ترجم له معاصره الشيخ تقي الدين الحسن بن علي بن داود في (الرجال) قائلاً: «شيخ الطائفة، وعلامة وقته، وصاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الإمامية إليه في المعقول والمنقول»(١). وترجم له المحدث البحراني في (لؤلؤة البحرين ٢١٠) قائلاً: «هذا الشيخ وحيد عصره، وفريد دهره، الذي لم تكتحل حدقة الزمان له بمثيل ولا نظير، كما لا يخفى على من أحاط خبراً بما بلغ إليه من عظم الشأن في هذه الطائفة، ولا ينبئك مثل خبير». وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني قائلاً «عالم الشيعة وإمامهم ومصنفهم، وكان آية من الذكاء، شرح مختصر ابن الحاجب شرحاً جيداً، سهل المأخذ، غاية في الإيضاح، واشتهرت تصانيفه في حياته، وهو الذي رد عليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية في كتابه المعروف بالرد على الرافضي (يعني كتاب منهاج السنة في الرد على منهاج

(١) رجال ابن داود الحلي، ١١٩ برقم ٤٦١. وانظر: كتاب الألفين الفارق بين الصدق والمين، العلامة الحلي، تحقيق المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات، طـ أولى، سنة ١٤٢٣هـ، قم، ١١. وانظر في مقدمة كتاب مختلف الشيعة إلى أحكام الشريعة، العلامة الحلي.

الكرامة) وكان ابن المطهر مشتهر الذكر وحسن الخلق، ولما بلغه بعض كتاب ابن تيمية قال: لو كان يفهم ما أقول أجبته» [١].

وروي أن العلامة الحلي لما اطلع على كتاب (منهاج السنة) لابن تيمية في الرد على كتابه (منهاج الكرامة)، كتب إلى ابن تيمية بالبيتين التاليين:

لو كنت تعلم كل ما علِمَ الورى ... طراً لصرت صديق كل العالَمِ

لكن جهلتَ فقلت إن جميع من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالِم

وترجمه السيد الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ٢٧٠ - ٢٧١) من معرض حديثه عن المصنفين من علماء الشيعة في الرجال - قائلاً: «ومنهم آية الله العلامة جمال الدين الحسن بن يوسف المطهر الحلي، شيخ الشيعة، ومحيي الشريعة صنف في كل فنون العلوم، المعقول والمنقول، ما يزيد على خمسمائة مجلد، لم يتفق في الدنيا مثله لا في المتقدمين ولا في المتأخرين».

وعلق السيد بحر العلوم على ترجمته في (لؤلؤة البحرين ص٢١٠ - ٢١١) قائلاً: هو العلامة على الإطلاق، الذي طار صيته في الآفاق، ولم يتفق لأحد من علماء الإمامية أن لقب بـ(العلامة) على الإطلاق غيره. برع في المعقول والمنقول، وتقدم - وهو في عصر الصبا - على العلماء الفحول، وقال هو في خطبة كتابه الفقهي (المنتهى): أنه فرغ من تصنيفاته الحكمية والكلامية، وأخذ في تحرير الفقه من قبل أن يكمل له ست وعشرون سنة [٢].

---

(١) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني: ج ٢ ص ٣١٧.

(٢) منتهى المطلب في تحقيق المذهب. العلامة الحلي، ناشر حاج أحمد ـ تبريزي، سنة ١٣٣٣ هـ. ش، قم، خطبة الكتاب، وانظر: أعلام مذهب أهل البيت، ص١٨٢. وكتاب الألفين، العلامة ←

المقطع الأول: دراسة حول مؤلفات العلامة في شتى العلوم

لقد سبق في فقه الشريعة، وألف فيه المؤلفات المتنوعة من مطولات ومتوسطات ومختصرات، فكانت محط أنظار العلماء من عصره إلى اليوم تدريساً وشرحاً وتعليقاً.. فمن المطولات: (المختلف) و(التذكرة) و(منتهى المطلب).

ومن المتوسطات: (القواعد) و(التحرير).

ومن المختصرات: (إرشاد الأذهان) و(إيضاح الأحكام) و(تبصرة المتعلمين).

كما فاق في علم أصول الفقه، وألف فيه المؤلفات المتنوعة من مطولات ومتوسطات ومختصرات، كانت كلها - ككتبه الفقهية - محط أنظار العلماء في التدريس وغيره.

فمن المطولات: (النهاية).

ومن المتوسطات: (التهذيب)، وكان عليه مدار التدريس قبل كتاب (معالم الأصول)، و(شرح مختصر ابن الحاجب)، أعجب به الخاصة والعامة، حتى قال ابن حجر: إنّ في غاية الحسن.

ومن المختصرات: (مبادئ الوصول إلى علم الأصول).

وبرع في الحكمة العقلية، حتى أنه باحث الحكماء السابقين في مؤلفاته وأورد عليهم، وحاكم فيها شرح الإشارات لابن سينا، وناقش النصير الطوسي رحمه الله وباحث الرئيس ابن سينا وخطأه، وألف في علم أصول الدين، وفن المناظرة

← الحلي، مقدمة التحقيق ص١٣ وص١٥.

والجدل وعلم الكلام من الطبيعيات والإلهيات والحكمة العقلية خاصة، والمنطق وغير ذلك من المؤلفات النافعة المشتهرة في الأقطار من عصره إلى اليوم من مطولات ومتوسطات ومختصرات.

وألف في الرد على الخصوم والاحتجاج المؤلفات الكثيرة. وتشيّع - بما أقامه من الحجج - السلطان (محمد خرابنده المغولي)، في قصة طويلة، انظرها في (روضات الجنات) في ترجمة العلامة رحمه الله وفي (أعيان الشيعة) للسيد محسن الأمين (ج٢٤ ص٢٩١ - ٢٩٧)، وفي غيرها من المعاجم.

وبالجملة: فالعلامة الحلي رحمه الله آية من آيات الله العلمية، وشخصيته فذة يعجز الكاتب عن إحصاء فضائله، كما قال الصفدي، وقال أيضاً: «كان ريض الأخلاق، حليماً، قائماً بالعلوم، حكيماً، طار ذكره في الأقطار، واقتحم الناس إليه، وتخرج به أقوام كثيرة»[(١)].

ومن أبدع وأروع نشاطاته العلمية: المدرسة السيارة، قال الشيخ حسين الأعلمي في تقديمه لكتاب (التبصرة - نشرة مؤسسة الأعلمي بيروت): «لقد اقترح على السلطان محمد خرابنده، سلطان عصره، بأن يؤسس مدرسة لتربية وإعداد طلاب العلوم الدينية بالعدة الكافية، فأجاب السلطان له، ولما كانت رغبة السلطان في مجالسة الشيخ ابن المطهر، والاستيناس به وبتلاميذه حتى في الطريق والسفر، لذلك أمر ببناء المدرسة السيارة. وألفت المدرسة من أربعة دواوين، وعدة غرف ومدارس، كلها مكونة من الخيام الكرباسية وكانوا يرحلون برحيل

---

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، نقلاً عن كتاب أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي الشافعي ص ١٧٥.

السلطان، وينزلون بنزوله. وكان العضد الإيجي، بدر الدين الشوشتري من مدرّسي هذه المدرسة السيارة، وكان يقيم فيها مائة طالب علم، مكفولي الملبس والمأكل والدواب وجميع ما يحتاجون إليه».

لقد جاوزت مؤلفاته المائة مؤلف بين كتاب ورسالة(١)، وهي في عدة مجالات:

المجال الأول: في الفقه

١- منتهى المطلب في تحقيق المذهب ذكر فيه خلاف علمائنا خاصة ومستند كل قائل مع الترجيح لما صار إليه.

٢- تذكرة الفقهاء، ذكر فيه خلاف علماء الإسلام في كل مسألة مع تأييد قول الشيعة خرج منه إلى النكاح أربعة عشر جزءاً.

٣- إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان.

٤- تحرير الفتاوى والأحكام.

٥- تلخيص المرام في معرفة الأحكام.

٦- غاية الأحكام في تنقيح تلخيص المرام.

٧- تسليك الأفهام في معرفة الأحكام.

٨- تسبيل الأذهان إلى معرفة أحكام الإيمان.

٩- قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام.

١٠- تهذيب النفس في معرفة المذاهب الخمس.

---

(١) الألفين، العلامة الحلي، مقدمة التحقيق، ٢٠ وانظر: مقدمة المختلف.

١١ - تنقيح قواعد الدين المأخوذة عن آل يس.

١٢ - المعتمد في فقه الشريعة.

١٣ - مختلف الشيعة في أحكام الشريعة.

١٤ - تبصرة المتعلمين في أحكام الدين طبع مراراً وعليه شروح وتعليقات.

١٥ - مدارك الأفهام خرج منه الطهارة والصلاة.

١٦ - المنهاج في مناسك الحج.

١٧ - رسالة في واجبات الوضوء والصلاة.

١٨ - رسالة في نية الصلاة.

١٩ - تعليقة على خلاف الشيخ.

٢٠ - تعليقة على المعتبر.

المجال الثاني: في أصول الفقه

١ - غاية السؤول في شرح مختصر منتهى المأمول(١).

٢ - مبادئ الوصول إلى علم الأصول.

٣ - النكت البديعة في تحرير الذريعة (الذريعة للسيد المرتضى).

٤ - نهج الوصول إلى علم الأصول.

٥ - نهاية الوصول إلى علم الأصول.

٦ - منتهى الوصول إلى علمي الكلام والأصول.

---

(١) مقدمة خلاصة الأقوال في الرجال، العلامة الحلي، نشر المطبعة الحيدرية النجف، طـ٢، سنة ٣٨١ صفحة ٢٠. وانظر: أيضاً كتاب الألفين، ص٢٠. وانظر: مقدمة المختلف.

٧- تهذيب طريق الوصول إلى علم الأصول.

٨- تعليقة على عدّة الشيخ في الأصول.

٩- تعليقة على المعارج لشيخه المحقق.

١٠- التعليقة على المعتبر.

١١- التعليم الثاني العام.

١٢- تنقيح قواعد الدين المأخوذة عن آل البيت عليهم السلام.

١٣- تهذيب الوصول إلى علم الأصول.

١٤- تهذيب النفس في معرفة المذاهب الخمس.

المجال الثالث: في التفسير

١- نهج الإيمان في تفسير القرآن.

٢- القول الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

المجال الرابع: في الحديث

١- استقصاء الاعتبار في تحرير معاني الأخبار.

٢- النهج الوضاح في الأحاديث الصّحاح.

٣- الدرّ والمرجان في الأحاديث الصّحاح والحسان.

٤- مجامع الأخبار.

٥- مصابيح الأخبار.

٦- خلاصة الأخبار.

المجال الخامس: في الرجال

١ - كشف المقال في معرفة الرجال[(١)].

٢ - خلاصة الأقوال في معرفة الرجال.

٣- تلخيص فهرست الشيخ.

٤ - إيضاح الاشتباه في أسماء الرواة.

وله كتب كثيرة جداً وفي شتى الأبواب والعلوم يجدها المتتبع في مظانها وتركنا ذكرها خوف الخروج عن مجال البحث.

وتجسدت مساهمة العلامة الحلي في حركة التطوير أن قدم من المتون الفقهية ما كان مدار الدرس والبحث والتأليف، منذ عصره إلى الآن، واشتهر منها:

١ - الإرشاد (إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان).

٢ - القواعد (قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام).

٣- النهاية (نهاية الأحكام في معرفة الأحكام).

٤ - التحرير (تحرير الفتاوى والأحكام).

٥ - التلخيص (تلخيص المرام في معرفة الأحكام).

٦ - الغاية (غاية الأحكام في تصحيح المرام).

ولكل واحد من هذه المتون المذكورة خصيصة تميّز بها:

فـ(التلخيص) تضمن عرض قواعد الفقه وطرح مسائله الدقيقة.

و(التحرير) اقتصر فيه على مجرد الفتوى من غير أن تتبع بالدليل والحجة،

---

(١) الألفين، العلامة الحلي، ص٢٠. وانظر: مقدمة التحقيق للمختلف.

وضمنه فروعاً جديدة وكثرة بلغت أربعين ألف مسألة....

قال فيه: «استخرجنا فيه فروعاً لم يسبق إليها، مع اختصاره».

وفي (التبصرة) أيضاً اقتصر فيه على مجرد الفتوى مع العرض الميسر، والأسلوب الأسهل، مراعاة لمستوى المتعلمين حيث يبدأون به. وإن هذا ليدل على عقلية منهجية منظمة، تجمع بين التعليم والتربية.. ولعل هذا لأن المؤلف العلامة كان يعمل من أجل. تحقيق هدف سلفه، وهو وضع الهيكل العلمي المتكامل لتطوير الفكر الفقهي الإمامي، وإعداد الوسائل الوافية للنهوض بعملية الاستنباط[١].

ونلمس هذا أكثر فيما أعده من الموسوعات الفقهية التالية:

المقطع الثاني: تحليل بسيط حول كتاب مختلف الشيعة إلى أحكام الشريعة

عرّفه العلامة في كتابه (الخلاصة) بقوله: «ذكرنا فيه خلاف علمائنا خاصة، وحجة كل شخص والترجيح لما نصير إليه». وقال في خطبة الكتاب: «أما بعد فإني لما وقفت على كتب أصحابنا المتقدمين - رضوان الله عليهم - ومقالات علمائنا السابقين، في علم الفقه، وجدت بينهم خلافاً في مسائل كثيرة متعددة، ومطالب عظيمة متبددة، فأحببت إيراد تلك المسائل الفقهية دون ما اتفقوا عليه، إذ جعلنا ذلك موكولاً إلى كتابنا الكبير المسمى بـ(منتهى المطلب في تحقيق المذهب) فإنه جمع بين مسائل الخلاف والوفاق، وإنما اقتصرنا في هذا الكتاب على المسائل التي وقع

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ص٣٧١. وانظر: كتاب الألفين، مقدمة التحقيق، وانظر: مقدمة التحقيق لكتاب المختلف.

فيها الشقاق، ثم إنّا عثرنا في كل مسألة دليلاً لصاحبها نقلناه، وإلا حصلناه بالتفكير وأثبتناه، ثم حكمنا بينهم بالإنصاف، متجنبين البغي والاعتساف، ووسمنا كتابنا هذا بـ(مختلف الشيعة في أحكام الشريعة) وهذا الكتاب لم يسبقنا (إليه) أحد ممن تقدمنا من العلماء، ولا نهج طريق الأدلة فيه من تقدم من الفضلاء)[١]. وهذا يعني أنه كتاب في الفقه الإمامي.

المقطع الثالث: بيان حول كتاب تذكرة الفقهاء

قال في خطبته مبيناً موضوعه والغاية من تأليفه: «قد عزمنا في هذا الكتاب الموسوم بـ(تذكرة الفقهاء) على تلخيص فتاوى العلماء، وذكر قواعد الفقهاء، على أحق الطرائق، وأوثقها برهاناً، وأصدق الأقاويل، وأوضحها بياناً، وهي طريقة الإمامية الآخذين دينهم بالوحي الإلهي، والعلم الرباني، لا بالرأي والقياس، ولا باجتهاد الناس، على سبيل الإيجاز والاختصار، وترك الإطالة والإكثار، وأشرنا في كل مسألة إلى الخلاف، واعتمدنا في المحاكمة بينهم طريق الإنصاف»[٢].

وتسميته بـ(تذكرة الفقهاء) يشير إلى هذا، ذلك أن (التذكرة) عند القدامى تعني الكتاب الذي يحتوي ما يحتاجه العالم في مجال تخصصه. فهو (قدس سره) أراد أن يضع بين يدي الفقهاء من الإمامية ما يحتاجون إلى معرفته من أقوال غير الشيعة في المسائل الخلافية، وأدلة تلكم الأقوال وطريقة المناقشة للأقوال، والمحاكمة للأدلة. ولهذا يعد الكتاب من كتب الفقه الخلافي.

---

(١) مختلف الشيعة في أحكام الشريعة، ص١٧٣.

(٢) تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، ص١.

المقطع الرابع: بيان حول كتاب منتهى المطلب في تحقيق المذهب

عرّفه في كتابه (خلاصة الأقوال) يقول: «ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين في الفقه، ورجحنا ما نعتقده بعد إبطال حجج من خالفنا فيه»[1].

وهذا يعني أن الكتاب من كتب الفقه المقارن، هَدَفَ المؤلف من تأليفه أن يكون رائد الباحث الإمامي معرفة الحق في المسألة الفقهية، وهذا لا يتأتى إلا بوضع كتاب في الفقه المقارن.

وبهذه الكتب تتكامل المجموعة الفقهية أمام الدارس والباحث والمتطلع إلى السمو لمرتبة الاجتهاد المطلق، حيث ضمت: المتن الفقهي الإمامي، والفقه الإمامي الاستدلالي، والفقه الخلافي، والفقه المقارن. وهو دور رائد وكبير من العلامة الحلي رحمه الله لم يسبق عليه من أي عالم من علماء المسلمين، ولم يقدر لمن بعده أن أعد هذه العدة المتكاملة للمادة الفقهية أقوالاً وأدلة وطريقة استدلال.

المقطع الخامس: بيان حول بقية مؤلفات العلامة لتطوير الفقه

ومن أهم ما ألفه مما يدخل في مجال العلم التطويري للفقه الإمامي:

الأول: في علم الحديث

١- كتاب استقصاء الاعتبار في تحقيق معاني الأخبار

عرّفه بقوله: «ذكرنا فيه كل حديث وصل إلينا، وبحثنا في كل حديث منه على صحة النسد وإبطاله، وكون متنه محكماً أو متشابهاً، وما اشتمل عليه المتن

---

(١) خلاصة الأقوال في معرفة أحوال الرجال، العلامة الحلي، نشر المطبعة الحيدرية النجف، طـ ٢، سنة ١٣٨١ ص١٤ من المقدمة.

من المباحث الأصولية والأدبية، وما يستنبط من المتن من الأحكام الشرعية وغيرها وهو كتاب لم يعمل مثله».

٢- مصابيح الأنوار في جمع جميع الأخبار

عرّفه بقوله: «ذكرنا فيه كل أحاديث علمائنا، وجعلنا كل حديث يتعلق بفن في بابه، ورتبنا كل فن على أبواب، ابتدأنا فيها بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعده عن علي عليه السلام وهكذا إلى آخر الأئمة».

٣- الدر والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان

٤- المنهج الوضاح في الأحاديث الصحاح

ومن اسمي الكتابين المذكورين ندرك أن العلامة - أعلى الله مقامه - كان يؤكد ويركز على ما صنعه السيد جمال الدين آل طاووس من تنويع للأخبار اقتضته ضرورة المرحلة الفكرية التي انتقل إليها الفقه الإمامي بعد غيبة الإمام المهدي عليه السلام.

الثاني: في علم الرجال

١- خلاصة الأقوال في معرفة الرجال

«رتبه على قسمين: الأول فيمن يعتمد عليه، والثاني فيمن يتوقف فيه».

وهو من الكتب المراجع في الرجال استند إليه، ونقل عنه، كل من ألّف بعده في علم الرجال أو من حقق في مجال الاستدلال.

٢- كشف المقال في معرفة أحوال الرجال

«وهو الرجال الكبير، الذي يحيل إليه كثيراً في خلاصته، قال في أول الخلاصة: ذكرنا في الكتاب الكبير المسمى بـ(كشف المقال في معرفة أحوال الرجال) كلما نقل عن الرواة والمصنفين، مما وصل إلينا من المتقدمين، وذكرنا فيه أحوال المتأخرين والمعاصرين»(١).

٣- إيضاح الاشتباه في أسماء الرواة

«في ضبط تراجم الرجال على ترتيب حروف أوائل الأسماء ببيان الحروف المركبة منها أسماؤهم وأسماء آبائهم، وبلادهم، وذكر حركات تلك الحروف».

الثالث: في أصول الفقه

١- غاية السؤول في شرح مختصر منتهى المأمول

وهو شرح لـ(مختصر المنتهى) لابن الحاجب المالكي المتوفى سنة ٦٤٦هـ.

قال العسقلاني في (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة): وشرحه (يعني غاية السؤول) في غاية الحسن في حل ألفاظه وتقريب معانيه(٢).

٢- نهاية الوصول إلى علم الأصول

«وهو كتابه الجامع في أصول الفقه، فيه ما ذكره المتقدمون والمتأخرون، ألفه بالتماس ولده فخر المحققين، ورتبه على اثني عشر مقصداً، والكتاب كبير في أربعة أجزاء».

---

(١) خلاصة الأقوال: ص٢٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٧.

٣- تهذيب طريق الوصول إلى علم الأصول

وهو مختصر كتابه (نهاية الأصول) المذكور قبله، ويعد من المتون الأصولية في الأصول.

٤- مبادئ الوصول إلى علم الأصول

وأيضاً هو من المتون الأصولية المعتمدة عند الأصحاب وقد كانت كلها محور البحث والدرس والتعليق والشرح، وقامت بدور كبير في نشر الفكر الأصولي وتركيز قواعده، والتربية على الاعتماد عليها في مجال الاستنباط والاستدلال.

الرابع: في التعليقات

ومن أجل لأجل أن يسير الوسط العلمي داخل هذه الحركة العلمية في عملية التفكير المنتج حيث يعتمد التحليل والتعليل، والنقد والمناقشة، كتب رحمه الله تعليقاته التالية:

١- النكت البديعة في تحرير الذريعة (للسيد المرتضى).

٢- التعليقة على العدة (للشيخ الطوسي).

٣- التعليقة على الخلاف (للشيخ الطوسي أيضاً).

٤- التعليقة على المعارج (لخاله المحقق).

٥- التعليقة على المعتبر (لخاله المحقق).

وللعلامة الحلي أكثر من طريق روائي إلى الشيخ الطوسي. وبهذا يتبين الدور البديع - والذي ليس له نظير من قبل السابقين واللاحقين - في إكمال واستقلال ورشد الفقه الإمامي وتطويره من قبل العلامة رحمه الله وهذا الجهد الجبار سيبقى

خالداً براقاً يشار إليه بالبنان لما لـه مـن فـضل كـبير علـى كـل مـن تـأخر عنـه مـن أصحابنا العلماء وحتى مخالفينا.

وقد أكمل الفقهاء والعلماء الذين جاءوا من بعده والذين تتلمذوا على يديه أمثال ابنه فخر المحققين والشهيد الأول وغيرهم ممن أكمل الطريـق وطـور وأضـاف في هـذا المجـال الحافـل والـذي سـوف يظـل يتطـور إلى أرقـى المـستويات وأعمـق التحقيقات إن شاء الله ببركة العلماء العاملين.

المبحث الرابع: بقية رواد المرحلة

المقطع الأول: فخر المحققين الحلي

وهو ابن العلامة الحلي وكان له دور كبير بعد أبيه، وهو أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي الملقب (بفخر المحققين) والمتوفى ٧٧١هـ، وهو من وجوه الطائفة وأعيانها تلمذ على يد العلامة وقرأ عليه مختلف العلوم النقلية والعقلية وبرز في ذلك كله.

أكمل بعض تأليف والده العلامة (كالألفين) وغيره، وشرح البعض الآخر (كالقواعد). وكتابه (الإيضاح) ورسالته (الفخرية) من أهم المراجع في الفقه الاستدلالي. قال فيه الشيخ الحر العاملي قدس سره: «كان فاضلاً محققاً فقيهاً ثقة جليلاً»[١]. وقد حضر الشهيد الأول درسه العالي وسجل انطباعه عنه في بعض إجازاته بقوله: «الشيخ الإمام، سلطان العلماء، ومنتهى الفضلاء والنبلاء، خاتمة المجتهدين، فخر الملة والدين»[٢].

(١) مقدمة الروضة (تاريخ الفقه الشيعي)، محمد مهدي الآصفي، ص٧٢.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ص٣٧٦.

المقطع الثاني: نظرة إجمالية حول الشهيد الأول وإنجازاته الفقهية

وهو أبو عبد الله محمد بن مكي بن محمد بن حامد الجزيني العاملي الدمشقي المتوفى ٧٨٦هـ.

قال الشيخ القمي في حقه: «رئيس المذهب والملة، ورأس المحققين الأجلة، شيخ الطائفة بغير جاحد، وواحد هذه الفرقة وأي واحد. كان (رحمه الله) بعد مولانا المحقق على الإطلاق أفقه جميع فقهاء الآفاق، ومن تأمل في طريق إجازات علمائنا على كثرتها وتشتتها وجدها جلها، أو كلها تنتهي إلى هذا الشيخ المعظم، ونقل عنه أنه قال إجازته لابن الخازن: وأما مصنفات العامة ومروياتهم فإني أروي عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم، بمكة والمدينة، ودار السلام بغداد، ومصر، ودمشق، وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم عليه السلام..»(١).

أهم مؤلفاته

له مؤلفات كثيرة أسهمت في تطور الفقه الإمامي ومن هذه المؤلفات:

١- القواعد والفوائد

وهو أول كتاب في القواعد الفقهية عند الإمامية، ومن المراجع الأصولية في موضوعه، احتوى على ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين قاعدة، إضافة إلى فوائد تقرب من مائة فائدة، عدا التنبيهات والفروع، وهي جميعاً قد استوعبت أكثر المسائل الشرعية.

٢- الدروس الشرعية في فقه الإمامية.

---

(١) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، الشهيد الثاني، دار الهادي للمطبوعات، قم، ١٤٠٣هـ، ج١، مقدمة الاصفي، ص٧٣.

٣- غاية المراد في شرح الإرشاد.

٤- شرح التهذيب الجمالي.

٥- اللمعة الدمشقية. وهي رسالة فقهية مختصرة في جميع أبواب الفقه.

٦- الرسالة النفلية.

٧- الرسالة الألفية.

٨- رسالة في التكليف وفروعه.

٩- خلاصة الاعتبار في الحج والاعتمار.

١٠- ذكر الشيعة في أحكام الشريعة.

١١- جامع البين في فوائد الشرحين[(١)].

١٢- البيان (في الفقه).

١٣- رسالة الباقيات الصالحات.

١٤- رسالة في قصر من سافر بقصد الإفطار والتقصير.

١٥- المسائل المقداديات.

وله غيرها من الكتب، وكانت كتبه تمتاز بروعة البيان ودقة الملاحظة، وعمق الفكرة وسعة الأفق. وكانت وفاته بدمشق، حيث قتل فيها بالسيف ثم صلب ثم رجم، ثم أحرق - بتهمة التشيع والنشاط الديني والسياسي والقول بولاية الفقيه ثم أحرق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعد ما حبس سنة كاملة في قلعة الشام في محنةٍ أليمة نعرض عنها هنا[(٢)].

---

(١) نفس المصدر السابق. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص٣٨٨.

(٢) مقدمة الروضة البهية، محمد مهدي الآصفي، ص٧٢.

المبحث الخامس: أهم خصائص المرحلة

تعتبر هذه المرحلة من المراحل المهمة في تاريخ تطور الفقه الإمامي وحركته التكاملية، حيث نستطيع أن نلمس التطور الكبير في عدة جوانب سواء في شكل الإنتاج الفقهي ومضمونه، أو في مستواه الكمي والكيفي. بل نلمس هذا التطور في الأسس والمباني الفقهية فضلاً عن المجالات والميادين المتنوعة التي أخذ الفقه الإمامي باختراقها. وكان من الملاحظ في هذه المرحة استقلال الفقه الإمامي عن محاكاة الفقه غير الإمامي الذي كان موجوداً في المراحل التي سبقت هذه المرحلة. ومن أهم هذه الخصائص كما يلي:

المجال الأول: في الفقه والنشاط الفقهي

لقد شهد الفقه والنشاط الفقهي في هذه المرحلة تطوراً ملحوظاً، فاق التطور الذي حصل في المراحل السابقة بكل الأبعاد سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف وهذا ما سوف نشير إليه بالنقاط التالية وإن كنا قد أشرنا إلى جلّه فيما تقدم:

١- الاستقلال وعدم المحاكاة

لقد لاحظنا في المرحلة السابقة حالة المحاكاة التي كان يتسم بها الفقه الإمامي من خلال مسايرته للفقه السني من جهة التبويب الفقهي وما يطرح في الأبحاث الفقهية، وهذه مسألة طبيعية في سياق البدايات حيث إنّ بداية انطلاق الفقهاء نحو التوسع في الفقه الاستدلالي والتفريعي ومحاولة إثبات سعة الفقه الإمامي بل تفوقه على الفقه الآخر، كانت بطبيعة الحال تعتمد على شيء من المحاكاة، وخاصة في عناوين المباحث وأدلتها بما يتناسب مع الاتجاه الأصولي الإمامي. والذي نلحظه في هذه المرحلة وخاصة في الفقه المدون للمحقق الحلي والعلامة الحلي رحمه الله هو رفع اليد عن حالة المحاكاة والاعتناء التي كانت موجودة في المراحل السابقة. وذلك حينما أخذ الفقه الإمامي مساره الطبيعي وبدأ الفقهاء بتنقيح أصول فقههم وأدوات استنباطهم، فكان من الطبيعي أن تنعكس النظرة المستقلة إلى الفقه الإمامي على النشاط الفقهي الإمامي أولاً، وتنتهي هذه النظرة إلى اجتناب المحاكاة مهما أمكن ثانياً - وإن كان هناك نغمة محاكاة قليلة جداً عند العلامة -. وهكذا بدأ النشاط الفقهي والمحتوى الفقهي ينحو باتجاه الاستقلال التامّ عن التأثر بالفقه غير الشيعي، وأنتج هذا الاتجاه فقهاً متميزاً بأدواته ومناهجه ومصادره وعمليات استنباطه ومدوناته الفقهية مضموناً وشكلاً معاً[١].

٢- تطور في المنهج والعرض للبحوث الفقهية

نلاحظ في هذه المرحلة تطوراً ملموساً في حقل تنظيم ومنهج عرض البحوث الفقهية، فتأليف المحقق الحلي لكتاب (الشرائع) حقق به مرحلة مهمة من

---

(١) راجع: مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام ١٤/١٥٤، بحث مراحل تطور الاجتهاد للحكيم.

مراحل التطوير في المتون الفقهية وبخاصة عند مقارنته بكتاب (النهاية) للشيخ الطوسي، حيث لم يلتزم في تأليفه ذكر متون الأحاديث وألفاظها، ولأنّه أيضاً أكثر فيه من التفريع وذكر الأقوال والإشارة إلى نتائج الأدلة، مما جعله يستقطب اهتمام الدارسين والباحثين والمؤلفين. وذلك حيث قسم المحقق الحلي في شرائعه الأبواب الفقهية إلى أربعة أقسام: عبادات وعقود وإيقاعات وأحكام. ووجه ذلك على ما ذكره الشهيد الأول: أن الغاية من الحكم إذا كانت مرتبطة بالآخرة فذالك مورد العبادات، وإن كانت مرتبطة بالدنيا فتارة يحتاج تحققها إلى إيجاب وقبول، وأخرى إلى إيجاب فقط، وثالثة لا تحتاج إلى شيء من ذلك. والأول مورد العقود، والثاني مورد الإيقاعات، والثالث مورد الأحكام[١].

ثم قسم كل واحد من هذه الموارد إلى مجموعة من الكتب، حيث تشترك المجموعة الواحدة بقاسم مشترك أعظم يقسم أجزاء ذلك القسم، ومن جهة أخرى كان يوزع الكتاب الواحد إلى أركان أو فصول أو مقدمات أو أطراف أو نظرات وإلى جانب هذا كله التزم في تقديم الواجب في كل قسم ثم أتبعه بالندب ثم بالمكروه وأخيراً بالمحرم إن وجد. وهذا تطوير رائع جداً. وكذلك تقريباً نفس المنهجية اختارها في اختصاره للشرائع في كتابه الذي أسماه (المختصر النافع).

ونحن لو وازنا كتاب الشرائع بكتب السابقين ومنهجهم لوجدنا بونا شاسعاً فمثلاً تجد في كتاب (الكافي في الفقه) لأبي الصلاح الحلبي، أنّه يقسمه إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) أنظر دروس تمهيدة في الفقه الاستدلالي في المقدمة ص ٣٦ نقلاً عن القواعد والفوائد ج ١ ص٣٠.

القسم الأول: في التكليف العقلي.

القسم الثاني: في التكليف السمعي.

القسم الثالث: حول الأصول.

ويذكر في القسم الأول حقيقة التكليف ووجوب النظر والعقائد بصورة عامة سواء الإلهيات بالمعنى الأخص أو الإلهيات بالمعنى الخاص، ثم يذكر في القسم الثاني أبواب الفقه، ويقسم الأحكام الشرعية إلى ثلاثة أقسام:

١ - العبادات.

٢ - المحرمات.

٣ - الأحكام.

ويذكر في القسم الثالث الدليل على ثبوت العقاب وسقوطه ومن ثم يتحدث حول الآخرة والميزان والصراط وسقوط التكليف وحول الجنة والنار [١].

وفي تقريب المعارف قسم التكاليف الشرعية إلى قسمين:

١ - الأفعال. ٢ - التروك.

وأما حمزة الديلمي سلاّر فقد قسم الفقه إلى قسمين:

١ - العبادات. ٢ - المعاملات.

ثم قسم المعاملات إلى قسمين:

١ - العقود.

٢ - أحكام.

---

(١) انظر فهرست كتاب الكافي في الفقه لأبي الصلاح الحلبي، الفهرست.

وقسم الأحكام إلى قسمين: الأحكام الجزائية وسائر الأحكام[(١)].

وتجد في كتاب (المقنعة) للشيخ المفيد مثلاً يقسم الكتاب إلى الاعتقادات ثم يذكر كتب الفقه ثم يذكر فيما بينها الأنساب والزيارات والمواليد والوفيات ومواضع القبور ثم يذكر بعدها كتاب النكاح والطلاق واللعان والتجارات وغيره، ثم يذكر مختصرات الكتب للطلاق والوقف وغيره[(٢)].

وتجد في (النهاية) للشيخ الطوسي أيضاً هذا التداخل بين الكتب وعدم الترتيب المعروف في الشرائع [(٣)].

فمثلاً جعل الشيخ في النهاية باب الخمس ضمن كتاب الزكاة بينما في الشرائع جعله كتاباً مستقلاً برأسه وجاء بالأنفال وأدخلها مع كتاب الزكاة بينما ليس كذلك في الشرائع وأدخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كتاب الجهاد بينما هو كتاب مستقل برأسه في الشرائع.

وجاء بكتاب الصيام بعد الصلاة بينما في الشرائع كتاب الزكاة بعد الصلاة وأدخل باب الاعتكاف ضمن كتاب الصوم بينما نجد خلاف ذلك في الشرائع حيث جعله مستقلاً وجاء بعد كتاب الجهاد بكتاب الديون والكفارات والحوالات والوكالات بينما كان في الشرائع كتاب التجارة وذكر باب اللقطة والضالة وأدخله مع كتاب الديون وجاء بكتاب الشهادات بعد الكفالات والوكالات والديون ولم يجعله في باب الأحكام حسب التقسيم المنطقي للشرائع وذكر باب الشفعة ضمن

---

(١) المراسم في الفقه الإمامي: حمزة بن عبد العزيز الديلمي سلّار: ٢٨، تحقيق د. محمود البستاني الطبعة الأولى، قم، ١٤٠٠هـ.

(٢) انظر فهرست كتاب المقنعة للشيخ المفيد.

(٣) انظر النهاية للشيخ الطوسي، الفهرست: ٧٨٣.

المتاجر بينما في الشرائع جعله في الأحكام وهكذا الوديعة والعارية والمزارعة كلها لم يجعلها كتباً مستقلة كما فعل المحقق في الشرائع وجعل اللعان والظهار والإيلاء ضمن كتاب الطلاق بينما تجد خلافه في الشرائع، وجاء بكتاب الأطعمة والأشربة ضمن الايقاعات ثم جاء بعده بكتاب الوصايا وكتاب المواريث والحدود والديات وتجد هذا معظمه مخالفاً لتقسيم ومنهجة المحقق في الشرائع.

فالناظر يجد فرقاً كبيراً شاسعاً. فلذا ما جاء به المحقق الحلي في كتابه الشرائع يعتبر نقلة نوعية في أسلوب المنهجة والتبويب الفقهي.

وبهذين الكتابين استطاع الشيخ المحقق أن ينقل التأليف الفقهي من وضعه ومنهجه الذي كان عليه عند جماعة الفقهاء والمحدثين، حيث الالتزام بمتون الأحاديث وألفاظها إلى التأليف بالتعبير الحر[١].

وكذلك نلاحظ هذه المنهجية ودقة الألفاظ في منهج وكتب العلامة الحلي كما في كتاب التبصرة حيث اقتصر فيه على مجرد الفتوى مع العرض الميسر والأسلوب السهل، مراعاة لمستوى المتعلمين حيث يبدأون به، واتبع نفس المنهج الشهيد الأول في رسالته الفقهية المختصرة (اللمعة الدمشقية) وهكذا سار العلماء من بعد المحقق على هذه المنهجية والتقسيم الرباعي لأبواب الفقه إلى العصر الحاضر.

٣- ظهور الموسوعات الفقهية الاستدلالية

ظهرت في هذه المرحلة موسوعات فقهية استدلالية ضخمة أثرت الفقه الإمامي، ونهضت بالفقه الاستدلالي إلى مرتبة عالية من حيث المستوى العلمي،

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

ومن حيث حجم البحوث الفقيه وتنوعها واستيعابها، إلى جانب التهذيب للمباحث الفقهية الموروثة. ويلمس الباحث لهذه الخصوصية في الموسوعات الفقهية التي دونها العلاّمة الحلي رحمه الله من قبيل: المختلف، والتذكرة، والمنتهى وغيرها، كما نلاحظ ذلك في الآثار العلمية لعلماء هذه المرحلة.

٤- تطور الفقه المقارن

فقد تطور في هذه المرحلة الفقه المقارن تطوراً ملحوظاً سواء من حيث كيفية العرض أو من حيث المحتوى العلمي والاستدلالي. فقد كتب العلامة الحلي (أعلى الله مقامه) عدة مستويات من الفقه المقارن وكوَّن مجموعة فقهية متكاملة في الفقه المقارن.

أ- كتاب مختلف الشيعة إلى أحكام الشريعة.

ب - كتاب تذكرة الفقهاء.

ج - منتهى المطلب في تحقيق المذهب.

وقد أشرنا إليهم جميعاً فيما تقدم ويبدو أن سبب ظهور هذه الكتب وأمثالها في الفقه المقارن في هذه المرحلة هو البعد النسبي عن عصر المعصومين، حيث ظهرت الاختلافات بين علماء الشيعة في حدود الأدلة وخاصة الروائية منها والتي يستند إليها في الاستنباط الفقهي من حيث دلالتها وسندها. كذلك بروز مسائل وحالات مستحدثة تستوجب الإجابة عنها على ضوء القواعد العامة، فمن الطبيعي أن يبادر العلماء من أمثال العلامة إلى إغناء مجال البحث والاستنباط الفقهي بمثل هذه المؤلفات القيمة، ولم تتوقف عملية التأليف في الفقه المقارن عند حدود تأليفات العلامة الحلي وإنما سار على نفس الطريقة من بعده، جملة من

العلماء حيث نرى كتب المحقق الآبي، وفخر المحققين (ولد العلامة) كتباً متميزة في الفقه المقارن حيث قارنوا بين آراء علماء الشيعة وأعملوا فيها النقد والإبرام مكان آراء علماء السنة.

المجال الثاني: في أصول الفقه

ونلاحظ في هذه المرحلة ما قام به المحقق الحلي في هذا المجال من تأليفه لكتابين في أصول الفقه وهما (المعارج) و(النهج) وذلك ليواصل مسيرة التطوير والتنمية في مناهج الفقه الإمامي والفكر الأصولي، وقام بتجلية وتنقيح القواعد الأصولية. وهذا الاهتمام الجاد بعلم الأصول أدى إلى تنقيح مباحثه، وإعادة النظر في تنظيمها، والاستقلال في طرح المسائل الأصولية، بنحو مبتكر متميّز ليبتعد بذلك عن طريق المحاكاة للمباحث الأصولية عند العامة.

وانعكس هذا الاهتمام على ميدان البحث والدرس الأصولي، إذ نجد العلامة الحلّي وهو من تلامذة المحقق قد ألف أكثر من مؤلف أصولي وفي مستويات علمية مختلفة كـ(غاية السؤول) و(نهاية الوصول) و(تهذيب طريق الوصول) و(مبادئ الوصول) وغيرها. وكانت كلها محور البحث والدرس وقامت بدور كبير في نشر الفكر الأصولي وتركيز قواعده، وأثمر هذا الاهتمام بعلم الأصول نمواً كمياً ونوعياً في بحوث ومسائل هذا العلم. فلو وازنّا بين ما دونه المحقق في (المعارج) والعلامة في (نهاية الأصول..) مع ما دونه المرتضى والطوسي في (الذريعة) و(العدّة) لكان الفرق بارزاً وواضحاً وهو معلم من معالم المرحلة. وكان لكتب المحقق والعلامة الدور الكبير في مجال الاستنباط والاستدلال ونشر الفكر الأصولي كما قد أشرنا إلى ذلك في محله.

المجال الثالث: في علم الحديث (دراية الحديث)

وقد كان القول في السابق بعدم جواز العمل بخبر الواحد المظنون صدوره عن المعصوم، وقد التزم بهذا المبنى الشيخ ابن إدريس وغيره من الذين سبقوه كالشريف المرتضى وابن البراج وابن قبة وأبي المكارم بن زهرة وأبي علي الطوسي بل ربما نسب إلى غيرهم أيضاً[1]، وقد برز من العلماء بعد ذلك من يقول بحجية خبر الواحد الجامع لشرائط الحجية، وتنامى هذا الاتجاه من حيث تنقيح وتنظيم البحوث المرتبطة بهذا الأصل المهم جداً في عملية الاستنباط. وفي هذه المرحلة بالذات. أواسط القرن السابع الهجري - حيث الابتعاد عن عصر النص واختفاء القرائن التي كان الفقهاء يقيِّمون الحديث من خلالها من حيث القطع بصدوره وعدمه، على هدى من معرفتهم. وهذه الأمور وغيرها دعت الحاجة إلى وضع منهج خاص لتقييم الأحاديث من حيث الاستناد فظهر عندنا ظاهرة (تربيع الحديث) أي التصنيف الرباعي للحديث حيث قسم في هذه المرحلة إلى أربعة أقسام:

١ - الصحيح.

٢ - الحسن.

٣- الموثوق.

٤ - الضعيف.

وأُسند التقسيم إلى ابن طاووس وقيل إلى العلامة، ولكن المشهور إلى ابن طاووس (عليهم الرحمة). ومهما يكن من أمر هذا التقسيم، فإنه من ابتكارات هذه المرحلة من مراحل الفقه الإمامي، وتعتبر هذه الظاهرة تطويراً ملموساً في

---

(١) مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام: منذر الحكيم، ١٥٤/١٤.

ميدان أدوات وأصول الاستنباط، إذ تعبّر عن تنقيح الحديث وتنعكس على النتاج الفقهي بشكل مباشر، كما انعكست على كتب الحديث من حيث تصنيف أحاديثها على أساس القيمة الفقهية لكلّ حديث من حيث درجة اعتباره ومدى إمكان الاعتماد عليه في مجال الاستنباط[١].

المجال الرابع: في علم الرجال

لّما كان علم الرجال - إضافة إلى الدراية - من أهم الأدوات في عملية الاستنباط والممارسة الفقهية والاستدلالية، أهتم به الأصحاب والأعلام من الشيخ الطوسي وتأليفه لـ(رجال الطوسي) وغيره الذي كان الأساس في فنه إلى أن جاء دور العلامة في هذه المرحلة ينهض بهذا الأمر، وضمن عقلية منهجية منظمة، ومن أجل تحقيق هدف أسلافه من الأعلام وضع الهيكل العلمي المتكامل لتطوير الفكر الفقهي الإمامي وذلك بتأليف الكتب الرجالية، حيث لاحظ وجود حاجة ماسة لاستقراء رجال الحديث وفرز الثقات من غيرهم، تسهيلاً لعملية الاستنباط، كما لاحظ وجود أسماء مشتركة يبقى وجودها واشتراكها عقبة في طريق الاستنباط الدقيق، ومن هنا ظهرت آثاره الرجالية كـ(الخلاصة) و(كشف المقال) و(إيضاح الاشتباه) وغيرها.

المجال الخامس: الاهتمام بالعلوم الأخرى

فقد ظهر في هذه المرحلة من بعض الفقهاء الاهتمام ببعض العلوم التي لها مدخلية في بعض الأبواب الفقهية كعلم الرياضيات، وعلم الهيئة والفلك وعلم

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، الفضلي، ٣٥٣.

المنطق والفلسفة والنحو والكلام وغيرها من العلوم التي تخدم المادة الفقهية من بعض الجوانب كما نجده واضحاً في الآثار العلمية للخواجة نصير الدين الطوسي - الذي ذكرناه في المرحلة السابقة وهو في الحقيقة من فقهاء هذه المرحلة أيضاً - والعلامة الحلي.

المجال السادس: تدوين القواعد الفقهية

وإن كان هذا المجال يحفل ضمن مجال الفقه ولكن جعلناه مجالاً برأسه لأهميته في عالم الاستنباط وممارسة الاستدلال الفقهي الاجتهادي حيث يُستَنَد إلى القواعد الفقهية في كثير من أبواب الفقه ومباحثه، مثل، قاعدة الطهارة، والحلية، والتجاوز، والفراغ، وكذلك قاعدة اليد، والملكية... وغيرها الكثير من هذه القواعد، وكان قد ظهر في هذه المرحلة أول مؤلف في هذا الموضوع «القواعد الفقهية» عند الإمامية وهو كتاب «القواعد والفوائد» للشهيد الأول حيث احتوى ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين قاعدة، وكذلك «نضد القواعد الفقهية» لتلميذ الشهيد الأول (الفاضل المقداد السيوري) وكذلك له أيضاً «جامع الفوائد في تخليص القواعد». وهذه إشارة بسيطة وإن كان هذا خارج نطاق البحث.

فهذه هي أهم خصائص هذه المرحلة من مراحل الفقه الإمامي وتاريخه والتي تبعتها حلقات ومراحل أخرى إلى الوقت الحاضر أُكمل فيها سد كل الثغرات والنواقص وتطوّر الفقه الإمامي إلى أعلا المراتب وأكملها.

الخاتمة مع جداول توضيحية

لقد مر في هذا البحث حول موضوع (تاريخ الفقه الإمامي من البداية إلى القرن الثامن الهجري) كيف أن البيان الشرعي المتمثل في الكتاب والسنة هو المصدر الأساس لاستكشاف الحكم الشرعي وأنّ ما صدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته من النصوص والأحاديث تمثل بمجموعها السنة الشريفة التي لا يجوز الخروج عنها ولا الاجتهاد في قبالها وأنّ عملية الاجتهاد والاستنباط الفقهي يبدأ في طول صدور هذه النصوص وبعدها في إطار فهمها واستخراج الأحكام منها، ورأينا كيف مر هذا الفقه (الفقه الإمامي) بمراحل متعددة وتكامل وتبلور في هذه الصورة الحاضرة والمتكاملة عبر مروره بمراحل التطور والتكامل التي تعرض لها البحث بالتفصيل والتي كانت عبارة عن مرحلتين أساسيتين الأولى هي مرحلة صدور البيان الشرعي والثانية عبارة عن مرحلة الاجتهاد والاستدلال في إطار البيان الشرعي، وكلا المرحلتين الأساسيتين لها عصور ومراحل فقد مرت المرحلة الأساسية الأولى بعدة عصور أولها عصر النبي وعصر الإمام علي وعصر الحسنين والسجاد وعصر الإمامين الصادقين ومن ثم

عصر الكاظمين ويليه عصر الإمام الجواد والهادي والعسكري وبعده العصر البرزخي وهو عصر الغيبة ودور السفراء وبعد هذا تنتهي مرحلة صدور النص وتبدأ المرحلة الأساسية الثانية والتي هي مرحلة الاجتهاد الفقهي والاستنباط ضمن حدود النص وتبدأ هذه المرحلة الأساسية الثانية بمرحلة التأسيس ومن ثم بمرحلة الانطلاق للفقه الإمامي ومن بعدها المرحلة الأخيرة مرحلة الاستقلال والرشد للفقه الإمامي.

وقد فصّلنا الكلام في كل المراحل وبيّنّا بعد ما ذكرنا مقدمة فيها بحوث تمهيدية احتوت على التعريف بموضوع الرسالة والبحث مع طرح العنوان الذي عُنوِّنَ به البحث والمشكلة التي يعالجها البحث وبعض الأسئلة المتعلقة في البحث من قبيل ما هي مراحل الفقه الإمامي إلى القرن الثامن الهجري، ومتى تأسس الفقه الإمامي وفترة تأسيسه وذكرنا بعد ذلك أهمية الموضوع وأهدافه والباعث على اختياره ضمن المقدمة، وذكرنا أيضاً سابقة البحث والمناهج التي اتبعت في خصوص هذا البحث واختلافها وتنوعها وبيّنّا ما نختاره نحن في هذا البحث وذكرنا أنّ الأساس في بحث هذا الموضوع هو المادة العلمية المتعلقة بالفقه الإمامي إضافة إلى ملاحظة بعض الظروف التي لها مدخلية بذلك كالزمان والمكان والأوضاع السياسية وغيرها لكن الأساس هو تطور المادة الفقهية. وذكرنا المنهج المتبع في هذه الرسالة والخطة حيث كما ذكرناها قبل قليل ثم ذكرنا امتيازات الفقه الإمامي عن غيره وشرحنا الاصطلاحات كالفقه والاجتهاد الإمامي وبدأنا بعد ذلك بتفاصيل البحث حيث ذكرنا في عصر التشريع من المرحلة الأولى كيف أن النبي قام بتبليغ الرسالة والقرآن الكريم على أكمل وجه واستغرق ثلاثاً وعشرين سنة قام بتبليغ القرآن وتدوينه وحفظه وضبطه وجمعه، ومن ثم كيف أن الأحاديث

صدرت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتعليم أحكام الدين والفقه والأحكام والواجبات والمحرمات وتفصيل ذلك كله وكيف أنّ النبي قد أمر علياً أن يدون القرآن الكريم والسنة النبوية تدويناً كاملاً كما ذكرناه في محله ومن ثم كان هذا العصر أي عصر النبي عصر تأسيس التشريع واكتمال الشريعة وكمالها.

ومن بعده جاء دور الأئمة عليهم السلام يبينون النصوص ويصونونها عن التحريف والتشويه واستمر ذلك إلى عصر الغيبة الكبرى (٣٢٩هـ) وقد قام الأئمة واحداً تلو الآخر يتوارثون العلم الذي علمه رسول الله إلى أمير المؤمنين تعليماً كاملاً مفصلاً ومدوناً وبإملاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمر النبي علياً أن يعلمه إلى أولاده ومواليه وشيعته وعموم الناس وبالأخص المقربين إليه وكان يكتب بعضه إلى رؤوساء أجناده وتارة جيشه، وقد رأينا أن علياً قد كتب كتاب الجامعة التي أملاها عليه رسول الله وكان فيها كل حلال وحرام وكل ما يحتاجه الناس إلى يوم القيامة حتى أرش الخدش. وصار الأئمة يتوارثونها واحداً بعد الآخر وينشرونها بين الناس، وقد مرت عليهم ظروف قاهرة منعتهم من نشر سنة رسول الله بصورة كاملة وقد رأوا كيف ابتعدت الأمة عن سنة الرسول وأخذت تعمل باجتهاد الرأي قبال النص فبذلوا قصارى جهودهم من أجل تبليغ الدين والسنة حتى كلفهم ذلك الكثير وأدى إلى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في سبيل ذلك وأخذ الإمام السجاد يكمل الطريق حتى حضرته الوفاة فأخرج صندوقاً عنده فقال: يا محمد! احمل هذا الصندوق. فحمل بين أربعة، فلما توفي جاء إخوته يدعون في الصندوق، فقال لهم: والله ما لكم فيه شيء، ولو كان لكم فيه شيء ما دفعه إليّ. وكان في الصندوق سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونظر الإمام السجاد إلى ولده، وهو يجود بنفسه وهم مجتمعون عنده، ثم نظر إلى ابنه محمد فقال: يا محمد خذ هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك وقال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكن كان مملوءاً علماً، كي ينقل للناس أحكام الإسلام والفقه الصحيح والعقائد الحقة عما ورثه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كتب في مقابل من كان يفتي برأيه وبالقياس مثل الحكم بن عتيبة فإنه اختلف مع الإمام الباقر عليه السلام في شيء فقال لابنه الصادق عليه السلام: يا بني قم، فاخرج كتاباً مدروجاً عظيماً وجعل ينظر حتى أخرج المسألة فقال: هذا خط عليّ وإملاء رسول الله، وأقبل على الحكم وقال: يا أبا محمدّ اذهب أنت وسلمة وأبو المقداد حيث شئتم يميناً وشمالاً فو الله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل.

هكذا بدأ الإمام الباقر عليه السلام من بين الأئمة بإراءة الكتب التي ورثها عن جدّه الإمام علي من إملاء رسول الله للمسلمين وأقرأها بعضهم، وتابعه في ذلك الإمام جعفر الصادق وأكثر من توصيفها والنقل عنها وبيان ما فيها وأنها كيف كُتبت، وأن فيها كلّ ما يحتاجه الناس إلى يوم القيامة حتى أرش الخدش. وكان الأئمة يصادمون في عملهم هذا مدرسة الخلافة في اعتمادها على الرأي والقياس في استنباط الأحكام وبيانها، وكانوا يصرّحون بأنّهم لا يعتمدون الرأي وإنّما يحدّثون عن رسول الله. كما قال الإمام الصادق عليه السلام: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن، حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله عزّ وجلّ. وبعدما انصرفت قلوب بعض المسلمين عن مدرسة الخلافة

والاجتهاد والقياس أثر استشهاد الحسين عليه السلام وأدركوا أن أولئك ليسوا على حق في ما يقولون ويفعلون، مالت قلوبهم إلى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ عند ذلك استطاع أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يبصروا بعضهم أمر دينهم، ويعرفوهم أن مدرسة المخالفين تعتمد الرأي في الدين في قبال أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين يبلّغون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان الفرد المسلم بعد تفهّم هذه الحقيقة، يتهيّأ لقبول ما يبينه الإمام من أئمة أهل البيت، ومن ثمّ بدأ بعض الأفراد يتلقى الحكم الإسلامي الذي جاء به رسول الله عن طريقهم. وكذلك استبصر الفرد بعد الآخر حتى تكونت منهم جماعات إسلامية واعية، ومن الجماعات الواعية مجتمعات إسلامية صالحة قائمة على أسس من المعرفة الإسلامية الصحيحة، وعند ذاك احتاجوا إلى مرشدين وعلماء فعيّن لهم الأئمّة من يقوم بذلك وينوب عنهم في التعليم وفي أخذ الحقوق المالية، فكانوا يرجعون إلى الوكلاء النوّاب في دينك تارة، وأخرى يجتمعون بإمامهم إذا تيسّر لهم السفر إليه. وإلى جانب ذلك ساعدت الظروف أحياناً الأئمة منذ الإمام الباقر عليه السلام على تكوين حلقات دراسية يحضرها الأمثل فالأمثل من أهل عصرهم يحدثهم الإمام فيها عن آبائه عن جده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تارة، ويروي لهم عن جامعة الإمام علي عليه السلام تارة أُخرى، وثالثة يبين لهم الحكم دونما إسناد، وتوسعت تلك الحلقات على عصر الإمام الصادق عليه السلام حتى بلغ عدد الدارسين عليه أربعة آلاف شخص، وكان تلاميذهم يدونون أحاديثهم في رسائل صغيرة تسمى الأصول، وأخذ أهل البيت عليهم السلام يربون العلماء والمتخصصين في كل المجالات وبالخصوص المجالات الفقهية حيث كانوا يعلمونهم القواعد العامة ويلقون لهم الأصول ويأمرونهم

بالتفريع على تلك الأصول وأخذوا يربوا نماذج كبيرة وعملاقة يروجون أثار النبوة أمثال زرارة بن أعين وبريدة بن معاوية العجلي ومحمد بن مسلم وأبان بن تغلب وليث المرادي ويونس بن عبد الرحمن والفضيل بين يسار وغيرهم. ودأبوا على ذلك حتى بلغوا عصر الإمام المهدي، ثاني عشر أئمة أهل البيت عليهم السلام حتى صنف قدماء الشيعة الاثني عشرية المعاصرين للأئمة من عصر أمير المؤمنين إلى عصر أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام ما يزيد على ستة آلاف وستمائة كتاب في الأحاديث المروية من طريق أهل البيت عليهم السلام المستمدة من مدينة العلم النبوي على حد تعبير الشيخ الحر العاملي وكل تلك الكتب مذكورة في كتاب وسائل الشيعة الذي أخذه وضبطه من تراجم الأصحاب ومؤلفاتهم، وكانت الأصول منها أربعمائة أصل، ثم غاب الإمام الثاني عشر عن أنظار الناس وأرجع بدءاً شيعته أينما كانوا إلى نوّابه الأربعة التالية أسماؤهم: وهم عثمان بن سعيد العمري ومحمد بن عثمان بن سعيد العمري وأبو القاسم حسين بن روح النوبختي وأبو الحسن علي بن محمد السمرِّي ومارس هؤلاء النيابة عن الإمام زهاء سبعين سنة وكان عصراً برزخياً حيث لا غياب محض ولا حضور محض وكان النواب يتوسطون بينه وبين الشيعة الإمامية حتى تعودت الشيعة على الرجوع إلى نوّاب الإمام وحدهم في ما ينوبهم، وألف في هذا العصر ثقة الإسلام الكليني أوّل موسوعة حديثة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام أسماها الكافي رفدت الفقه الإمامي فيما بعد بالكثير من السنة النبوية والآثار العلوية وكان قد جمع فيها قسماً كبيراً من رسائل خريجي مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي كانت شائعة في ذلك العصر يرويها المئات عن أصحابها وبذلك بدأ عهد جديد في تدوين الحديث بمدرسة أهل البيت عليهم السلام. وقد جاهد الأئمة بعد استشهاد الإمام الحسين

عليه السلام لإعادة الإسلام الصحيح إلى المجتمع فأعادوه حكماً بعد حكم وعقيداً بعد عقيد حتى تم في نهاية هذا العصر تبليغ جميع ما جاء به الرسول، وأبعد عنه كل محرّف وزائف في حدود من تقبل منهم، وتمّ تدوين جميع سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في رسائل صغيرة ومدونات كبيرة. وكذلك جاهدوا في إرشاد أبناء الأمة فرداً بعد فرد حتى تكونت منهم مجتمعات إسلامية صالحة فيها علماء يرجعون إلى مدوناتهم، حوت كل ما تحتاجه أبناء الأمة من حقائق الإسلام، وبذلك انتهى واجب الأئمة التبليغي في نهاية هذا العصر، كما انتهى واجب رسول الله التبليغي في آخر سنة من حياته فقبضه الله إليه صلواته عليه وآله، وكذلك اقتضت حكمة الله أن يحجب في نهاية هذا العصر الإمام المهدي عليه السلام عن الأنظار إلى ما شاء الله فأرجع شيعته إلى فقهاء مدرستهم وأنابهم نيابة عامة دون تعيين أحد بالخصوص، وبذلك بدأ عصر غيبة الإمام المهدي الكبرى، وناب عنه فقهاء مدرستهم في حمل أعباء التبليغ وحفظ دين الناس إلى اليوم وإلى ما شاء الله. فمارس خرّيجوا مدرسة أهل البيت عليهم السلام حمل أعباء التبليغ والاجتهاد والاستنباط للأحكام الشرعية ضمن نطاق البيان الشرعي على عهد الأئمة تدريجاً وبصورة مبسطة وأولية وتكامل عملهم وتطور تدريجياً - في الاجتهاد والفقاهة والاستدلال - شيئاً فشيئاً في عصر الغيبة الصغرى وتنامى في صورته الموسعة في عصر الغيبة الكبرى حيث تحولت الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في المساجد والبيوت على عهد الأئمة إلى مدارس ومعاهد علمية وحوزات علمية شيدت في بلدان كثيرة وكبيرة مثل قم والري وبغداد وبدأت المرحلة الأولى من المرحلة التأسيسية للفقه الإمامي والتي بدأت بالصدوق الأب والكليني وبابن عقيل وابن الجنيد والصدوق الابن وابن قولويه وكان هناك اتجاهان للعلماء

أحدهما اتجاه أهل الحديث أو الاتجاه الروائي والآخر الاتجاه العقلي ومثل الأول الصدوقان وأمثالهم والثاني ابن أبي عقيل الحذاء العماني وابن الجنيد الإسكافي ومن ثم برز اتجاه وسط ومعتدل خالف المسلكين واتخذ مسلك البين بين وجمع بين الاتجاهين حيث كان رائده الشيخ المفيد الذي تتلمذ على كلا الاتجاهين وأخذ منهما فجمع بين الاتجاه الروائي ولم يجمد عليه بل أعمل العقل والفكر من دون الخروج عن إطار النص وبذلك فتح فتحاً كبيراً في تاريخ الفقه الإمامي واستمر هذا الاتجاه في حاضرة العالم الإسلامي بغداد والتي كانت مركز العلم الإسلامي آنذاك تستقطب العلماء من كل حدب وصوب يتلمذون على يد الشيخ المفيد حتى برز علماء كبار منهم السيد الشريف المرتضى علم الهدى وأبو الصلاح الحلبي وحمزة بن عبد العزيز الديلمي سلاّر والطوسي وقد بدأ هؤلاء الفقهاء العظام بالتأليف والتدوين والتحقيق في فقه مدرسة أهل البيت عليهم السلام وشرعوا في تأسيس ما نصطلح عليه اليوم بالفقه الاجتهادي، وصنف العلماء من كل الاتجاهات الكثير من المؤلفات التي أسهمت في دفع عجلة الفقه الإمامي إلى الإمام ومن آثارهم الكافي ومن لا يحضره الفقيه للكليني والصدوق وكتاب الشرايع لابن بابويه والهداية والمقنع للشيخ الصدوق وهكذا بدأ الفصل بين الفقه المأثور وكتب الحديث وبين الكتب والرسائل الفقهية التي تدون بمنهجة مستقلة كما ظهر ذلك في مصنفات القديمين العماني والإسكافي ومؤلفات الشيخ المفيد والسيد المرتضى وتلامذتهم أمثال الشيخ الطوسي وأيضاً بدأ بتدوين أصول الفقه وفصل قواعدها الكلية أو العقلية أو الشرعية عن المسائل والفروع الفقهية كما في التذكرة بأصول الفقه للشيخ المفيد والذريعة للسيد المرتضى وبدأ التأليف في الفقه المقارن كما في كتاب الأعلام للشيخ المفيد وكتابين للسيد المرتضى (الانتصار والناصريات)

وجاءت مرحلة الانطلاق وأبدع الشيخ الطوسي في تلك المرحلة من الانطلاق في الفقه الاجتهادي بما أوتي من عبقرية ونبوغ أن يطوي بالفقه بل في علوم الشريعة كلها مراحل كبيرة وعظيمة ويخطو بها خطوات كبيرة إلى الإمام حيث ألف الكثير من الكتب وفي كل المجالات كالاستبصار والتهذيب والرجال والخلاف والمبسوط وأسس حوزة النجف بعد ما هاجر إلى النجف فاراً من بغداد بعد الهجوم عليها وعليه وإحراق مكتباتها العامرة.

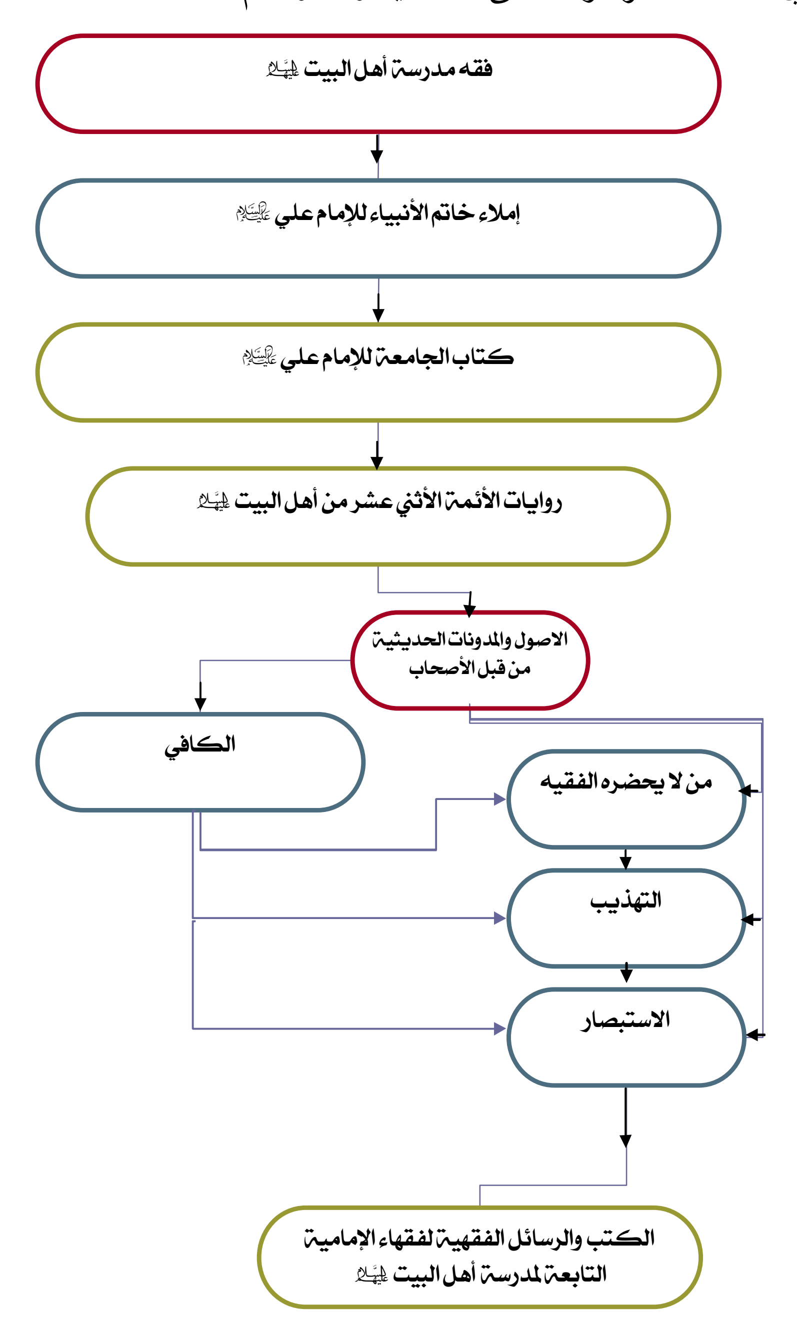
استمر الشيخ حيث أسس لها منهجها الصحيح الذي ورثه عن أستاذيه المفيد والمرتضى ووضع لها الهيكل الصحيح العلمي والمنهجي في تقنين عملية الاجتهاد والاستنباط حيث ألف عدة الأصول وأسس قاعدة حجية أخبار الآحاد إذا كانوا ثقاتاً ومن ثم صنف في الرجال عدة كتب كالفهرست واختيار معرفة الرجال إضافة إلى كتاب رجال النجاشي الذي عاصر الشيخ وكان تلميذاً للمرتضى وغيرهم من الكتب والعلماء أسهموا بدفع عجلة تطور الفقه الإمامي إلى أن جاءت مرحلة الاستقلال والرشد والتي أبدع فيها المحقق الحلي والعلامة وابنه فخر المحققين والشهيد الأول وأثروا الحوزة والفقه الإمامي من المناهج والكتب والتصانيف وفي كل المجالات في الفقه والأصول والرجال والدراية والفقه المقارن والفقه المقارن الشيعي والقواعد الفقهية وأصول الاستنباط وكل معداته حتى وصلوا إلى درجة الرشد والكمال في الفقه الإمامي فضلاً عن باقي التخصصات وكان في هذه الكتب والمؤلفات والمصنفات الكثيرة منهجية فريدة وتنظيم بديع وأساليب مبتكرة لم تكن معهودة من قبل أمثال كتاب الشرائع للمحقق الحلي ومعارج الأصول للمحقق أو نهاية الوصول إلى علم الأصول للعلامة الحلي أو تذكرة الفقهاء ومنتهى المطلب للعلامة الحلي والمعتبر للمحقق أو مختلف الشيعة

للعلامة أو القواعد والفوائد للشهيد الأول وكتب كثيرة فصلناها في تفاصيل البحث كانت عاملاً مهماً في تكامل الفقه الإمامي ورقيه وتطوره وازدهاره إلى أن مُلئ المشرق والمغرب بالمؤلفات والموسوعات والتحقيقات والآثار العلمية الدقيقة والمتناهية في العمق والاستدلال والمتانة.

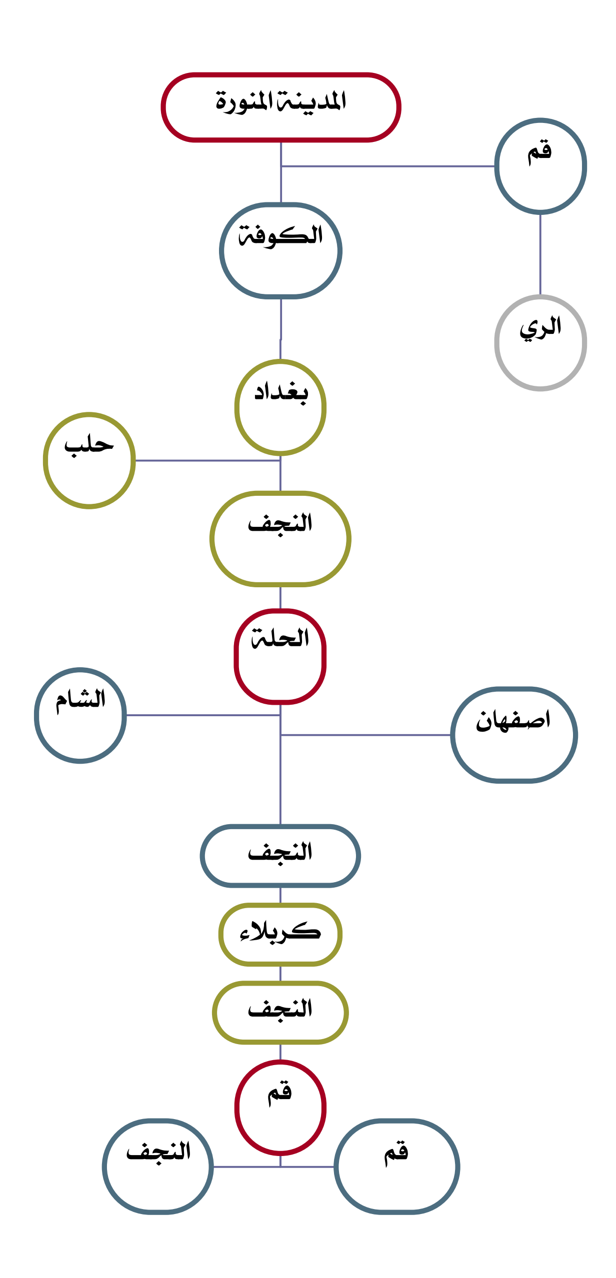
ولابد من الإشارة إلى أن هذا البحث المتواضع وإن لم يكن بمستوى الطموح ولكن أثرنا فيه بعض النقاط الجديرة بالبحث من قبيل: دراسة موضوعية لعدم تأليف الكتب من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام فلماذا لم يؤلفوا الأئمة كتباً فيها منهاج متكامل يسد كل تلك الثغرات التي سُدت عبر قرون أو بعضها لم يسد؟ ولِمَ لَم يؤلفوا كتاباً على غرار الكتب الكبيرة كالكافي والوسائل أو تذكرة الفقهاء أو غيرها. ونحن أجبنا عن الإشكال بعدة أجوبة ولكن نرجو من علمائنا الأعلام أن ينوروا عقولنا وأجيالنا بالأبحاث العلمية الموسعة في هذا المجال حيث لم يكن مطروحاً مثل هذا البحث من قبل.

وذكرنا خلال البحث جداول كثيرة ومخططات توضيحية تنفع الباحث وفي ختام الخاتمة نضع جداول أخرى ومخططات إضافية وهي كالتالي:

أ- جدول يوضح اتجاه الفقه الإمامي التابع لمدرسة أهل البيت عليهم السلام في أخذ سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:



ب - جدول المراكز الرئيسة للفقه الإمامي وفق تسلسلها الزمني



ج - جدول يبين نقل الزعامة للحركة العلمية الإمامية من عمان فبغـداد فـالنجف فالحلة فحلب:

١. الشيخ بن أبي عقيل العماني (القرن الرابع)

٢. الشيخ المفيد تـ٤١٣هـ

٣. السيد المرتضى تـ ٤٣٦هـ

٤. أبو جعفر الطوسي تـ ٤٦٠هـ

٥. أبو علي الطوسي تـ ٥١٥هـ

٦. إلياس بن محمد الحائري تـ القرن السادس

٧. عربي بن مسافر الحلي تـ القرن السادس

٨. محمد بن إدريس الحلي تـ ٥٩٨هـ

٩. فخار بن معد الموسوي تـ٦٣٠هـ

١٠. أحمد بن طاووس تـ٦٧٣هـ

١١. المحقق الحلي تـ٦٧٦هـ

١٢. ابن سعيد الحلي تـ ٦٨٩هـ

١٣. العلامة الحلي تـ ٧٢٦هـ

١٤. فخر المحققين تـ٧٧١هـ

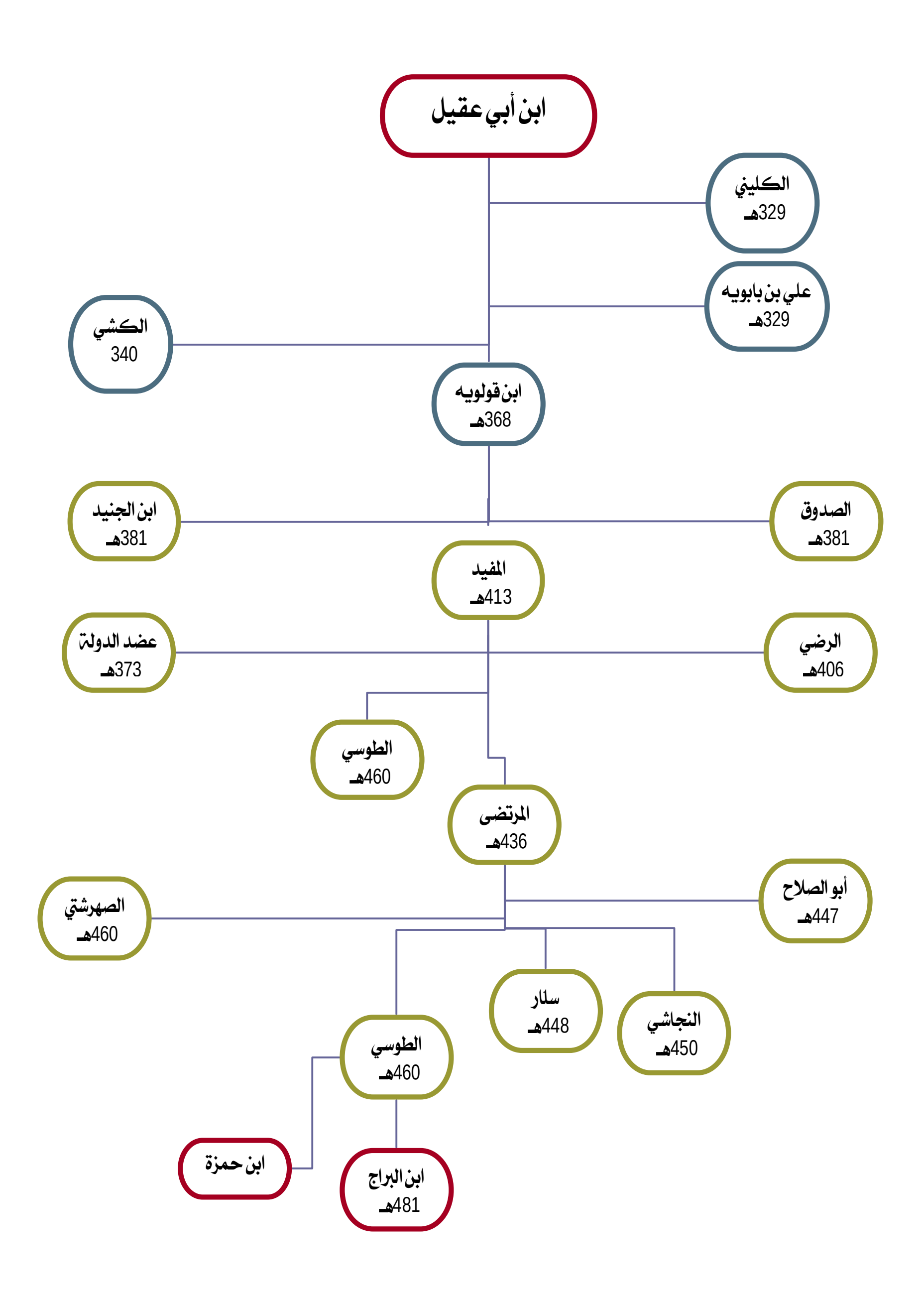
١٥. الشهيد الأول تـ ٧٨٦هـ

١٦. المقداد السيوري تـ ٨٢٦هـ

١٧. ابن فهد الحلي تـ ٨٤١هـ

وبعدهم الكثير..

د - جدول بأسماء الفقهاء من الاتجاهين (الروائي والعقلي) والاتجاه الوسط



جدول بياني تقريبي يعطينا صورة عن مستويات عدد الرواة لكل إمام.

المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف	52
الحسن العسكري عليه السلام	103
علي الهادي عليه السلام	182
محمد الجواد عليه السلام	113
علي الرضا عليه السلام	317
موسى الكاظم عليه السلام	272
جعفر الصادق عليه السلام	3217
محمد الباقر عليه السلام	446
علي السجاد عليه السلام	173
الحسين عليه السلام	109
الحسن عليه السلام	41
علي عليه السلام	442

فهرست المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة.

٣. ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي / شرح نهج البلاغة / دار الرشاد الحديثة / بلا تاريخ.

٤. ابن إدريس: محمد بن منصور الحلي / السرائر الحاوي لتقرير الفتاوي / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين / قم، ط، الثالثة، ١٤١٤هـ.ق.

٥. ابن الأثير: محمّد بن محمّد الشيباني / الكامل في التاريخ / دار الكتاب العربي - بيروت / الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٦. ابن حجر: شهاب الدين العسقلاني / لسان الميزان / نشر مؤسسة الأعلمي - بيروت / ط٢، ١٣٩٠هـ.

٧. ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل / المسند، شرح أحمد محمد شاكر / دار المعارف - القاهرة / ط الرابعة، ١٩٥٤م.

٨. ابن داود الحلي: تقي الدين / رجال بن داود / نشر المطبعة الحيدرية - النجف، ١٣٩٢هـ.

٩. ابن طاووس: سيد علي بن طاووس / كشف المحجة لثمرة المهجة / المطبعة الحيدرية - نجف.

١٠. ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد / سنن ابن ماجة / دار إحياء التراث العربي - بيروت / ١٣٩٥هـ.

١١. ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين / لسان العرب / نشر أدب الحوزة - قم، ١٤٠٥هـ.

١٢. الآخوند الخراساني: محمد كاظم / كفاية الأصول / تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ط السابعة، ١٤٢٣هـ.

١٣. أسد حيدر: أسد حيدر / الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ.

١٤. الآصفي: محمد مهدي / تاريخ الفقه الشيعي / مقدمة الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية / دار الهادي للمطبوعات - قم، نمونة، ١٤٠٣هـ.ق.

١٥. الآصفي: محمد مهدي / تاريخ فقه أهل البيت / مقدمة رياض المسائل / مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - قم، ط الأولى، ١٤٨١هـ.

١٦. أم مهدي: السيدة أم مهدي / المنتظر والمنتظرون / تقديم جعفر السبحاني / مركز الآفاق للدراسات الإسلامية - قم، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٧. الإمام السجاد، علي بن الحسين عليه السلام / الصحيفة السجادية / لجنة البحوث والدراسات / المجمع العالمي لأهل البيت - قم، ط الثانية، ١٤٢٣هـ.

١٨. الأمين: السيد محسن / أعيان الشيعة / تحقيق حسن الأمين / دار التعارف - بيروت، ١٩٨٦م.

١٩. الايرواني: باقر / دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي / طبعة المركز العالمي للعلوم الإسلامية - قم، الطبعة الأولى.

٢٠. الإيرواني: باقر / دروس تمهيدية في القواعد الرجالية / نشر سعيد بن جبير - قم، م صدر، ط الثانية ١٤٢٢هـ.

٢١. الإيماني: مهدي الفقيه / الإمام المهدي عند أهل السنة / المجمع العالمي لأهل البيت - قم، ط الثانية، نگين، ١٤١٨هـ.

٢٢. البحراني: يوسف لؤلؤة البحرين / تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم / دار الأضواء - بيروت، ط الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٣. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل / صحيح البخاري / دار الفكر - بيروت، ط الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٤. البدري: سيد سامي / الحسين في مواجهة الضلال الأموي / دار الفقه للطباعة والنشر، م ياسين، ١٤٢٦هـ.ق.

٢٥. ابن سعد: محمد بن سعد / الطبقات الكبرى / دار صادر - بيروت.

٢٦. الترمذي: محمد بن عيسى / سنن الترمذي / دار الفكر - بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٧. ثلة من العلماء موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي - قم، ط الأولى، م، محمد ١٤٢٣ هـ.ق.

٢٨. الجلالي: محمد حسين / شروح الشرائع / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العددان ١١ و١٢ ط ٢، قم، السنة الثالثة ١٩٩٩م.

٢٩. الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله الضبي / مستدرك الصحيحين / دار المعرفة - بيروت.
٣٠. الحائري: كاظم الحسيني / أصول الدين / دار التفسير / قم، م شريعت، إصدار مكتب السيد الحائري ١٤٢٤هـ.
٣١. الحائري: كاظم الحسيني / المرجعية والقيادة / نشر دار التفسير، إصدار مكتب الحائري - قم، م شريعت، ١٤٢٤هـ ق.
٣٢. حب الله: حيدر / نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي التكوين والصيرورة / مؤسسة الانتشار العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٣٣. الحبشي: منصور الحبشي / الشيخ المفيد في أضواء من حياته / أنوار الهدى - قم، م، مهر، ١٤٢٥ هـ.ق.
٣٤. الحجوي الثعالبي: محمد بن الحسن / الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي / دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٦هـ.ق.
٣٥. الحراني: ابن شعبة / تحف العقول عن آل الرسول / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم، ١٤٠٤هـ.
٣٦. الحكيم: أحمد / خلاصة الأسرار من بحار الأنوار / انتشارات ذوي القربى - قم، ط الأولى، م أمير، ١٤٢٠هـ.
٣٧. الحكيم: محمد تقي / الأصول العامة للفقه المقارن / مؤسسة آل البيت - قم، ١٣٩٠هـ.
٣٨. الحكيم: منذر / مراحل تطور الاجتهاد / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت - قم، ط الثانية، الأعداد (١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) ١٤٢٠ هـ.ق.
٣٩. الحلبي: أبو الصلاح / الكافي في الفقه / بلا تاريخ.
٤٠. الخرازي: صفاء الدين / أبان بن تغلب الكوفي / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العدد٣٠، ط ٢، قم، السنة الثامنة، ٢٠٠٣م.
٤١. الخرازي: صفاء الدين / الشيخ المفيد / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العددان ٣١، ٣٢، ط ٢، قم، السنة الثامنة ٢٠٠٣م.
٤٢. الخرازي: صفاء الدين / الفقيه الأقدم ابن الجنيد الإسكافي / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العددان ٩ و ١٠ ط ٢، قم، السنة الثالثة ١٩٩٨م.

٤٣. الخرازي: صفاء الدين / الفقيه الأقدم الحسن بن أبي عقيل العماني / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العدد ٨، ط ٢، قم، السنة الثانية، ١٩٩٧م.

٤٤. الخرازي: صفاء الدين / فقه الكليني دراسة وتحليل / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العددان ٢٢و ٢٣، ط ٢، قم، السنة السادسة، ٢٠٠١م.

٤٥. الخرازي: صفاء الدين / محمد بن مسلم الطائفي / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العدد٢٤، ط ٢، قم، السنة السادسة، ٢٠٠٢م.

٤٦. الخرازي: صفاء الدين/ الصدوق الثاني: محمد بن بابويه القمي / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام، تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / الأعداد ٤، ٥، ٦، ٧، ط ٢، قم، السنة الأولى، ١٩٩٧م.

٤٧. الخزرجي: ضياء الدين / بحث حول زرارة / مجلة فقه أهل البيت / مؤسسة دائرة معارف فقه أهل البيت ط الثانية، السنة الخامسة، العدد ١٧، ١٨ قم/ ٢٠٠٠م.

٤٨. الخوئي: أبو القاسم / البيان في تفسير القرآن / أنوار الهدى / م، فروردين، ط الثامنة، ١٤٠١هـ.ق.

٤٩. الخوئي: أبو القاسم الموسوي / معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة / مركز انتشار آثار الشيعة - قم، ط الرابعة ١٤١٠ق.

٥٠. الذهبي: شمس الدين / تذكرة الحفاظ / مكتبة الحرم المكي.

٥١. الذهبي: شمس الدين محمّد بن أحمد / سير أعلام النبلاء / مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة.

٥٢. الرازي: محمد، مختار الصحاح / دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٣. الزركشي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر / البحر المحيط في أصول الفقهة حرره عبد القادر العماني وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، ط الثانية، ١٤١٣هـ.

٥٤. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي / الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / دار الكتاب العربي.

٥٥. السبحاني: جعفر / أدوار الفقه الإمامي / نشر وطباعة مؤسسة الإمام الصادق - قم، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٦. السبحاني: جعفر / تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره / جعفر السبحاني / مؤسسة الإمام الصادق

- قم، ط الأولى، ١٤٢٧ هـ.ق.

٥٧. السبحاني: جعفر / كليات في علم الرجال / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم، ط الثانية، ٤١٥.

٥٨. سلّار: حمزة بن عبد العزيز الديلمي / المراسم في الفقه الإمامي / تحقيق: د. محمود البستاني، افست الحرمين، قم، ط الأولى، ١٤٠٠هـ.

٥٩. سليم: سليم بن قيس الكوفي / كتاب سليم / مؤسسة النبراس للطباعة والنشر - النجف الأشرف.

٦٠. السيد الصدر: حسن هادي / تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام / مؤسسة الأعلمي - طهران، ١٣٦٩ ش.

٦١. السيد المرتضى: علي بن الحسين / تقديم السيد أحمد الحسيني / نشر دار القرآن الكريم - قم، طبعة سيد الشهداء، ١٤٠٥هـ.

٦٢. السيد بحر العلوم: مهدي / الفوائد الرجالية / نشر مكتبة الصادق - طهران، مطبعة آفتاب، الطبعة الأولى، ١٣٦٣هـ. ش.

٦٣. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / قدم له عبد الرزاق المهدي / دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط الأولى، ١٤٢١هـ.

٦٤. الشاكري: حسين / أعلام مذهب أهل البيت عليهم السلام / المؤسسة للتبليغ والإرشاد - قم، م، سرور، ط الأولى، ١٤٢٢، ق.ق.

٦٥. الشاكري: حسين / السفراء في الغيبة الصغرى / المؤسسة الإسلامية للتبليغ والإرشاد - قم، م سرور، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٦. الشاكري: حسين / تدوين الحديث وتاريخ الفقه الشيعي / نشر المؤلف - قم، ط الأولى، م ستارة، ١٤١٨هـ.

٦٧. الشاكري: حسين / مناظرات الإمام الصادق وتصديه لحكة الزندقة / نشر المؤلف - قم، م ستارة، ط ١٤١٨ ق.

٦٨. الشاكري: حسين / نشوء المذاهب والفرق الإسلامية / نشر المؤلف - قم، م ستارة، ط١، ١٤١٨ق.

٦٩. شرف الدين: عبد الحسين الموسوي / النص والاجتهاد / تقديم العلامة محمّد تقي الحكيم / والعلامة محمّد صادق الصدر / وصدر الدين شرف الدين، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.ق.

٧٠. شرف الدين: عبد الحسين شرف الدين الموسوي / المراجعات / تحقيق حسين آل راضي / نشر المجمع العالمي لأهل البيت - قم، ط الثانية ١٤١٦هـ.

٧١. الشهابي: محمود / أدوار فقه (فارسي) / سازمان جاب وانتشارات إرشاد إسلامي - طهران، ط الخامسة، ١٣٧٥ش.

٧٢. الشهرستاني: سيد جواد / مقدمة الوسائل / تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت - قم، ط الأولى، م مهر، ١٤٠٩هـ.

٧٣. الشهيد الثاني: زين الدين الجبعي / الدر النضيد مختصر منية المريد / تلخيص مركز تدوين حوزه (متون) - قم، ١٣٨٢ ش، دار الهادي، قم، ١٤٠٣هـ.

٧٤. الشهيد الثاني: زين الدين الجبعي / الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية / دار الهادي - قم، ١٤٠٣هـ.

٧٥. الشوشتري: أسد الله / مقابس الأنوار / بلا هوية من المعجم الفقهي الكمبيوتري.

٧٦. الصدر: محمد باقر / المعالم الجديدة للأصول تحقيق المؤتمر العالمي لمحمد باقر الصدر / نشر مركز الأبحاث والدراسات التخصصية لمحمد باقر الصدر / ط الثانية، م، شريعت - قم، ١٤٢٥هـ.ق.

٧٧. الصدر: محمد باقر / دروس في علم الأصول / تحقيق مجمع الفكر الإسلامي - قم، ط الأولى،م، إسماعليان ١٤١٢هـ.

٧٨. الصدوق: محمد بن علي / الخصال / نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم، ١٣٨١هـ.

٧٩. الصدوق: محمد بن علي / أمالي الشيخ الصدوق / تحقيق قسم الدراسات الإسلامية / نشر مؤسس البعثة - قم، ١٤١٧هـ.

٨٠. الصدوق: محمد بن علي / علل الشرائع / نشر وطبع المكتبة الحيدرية - نجف، ١٣٨٦هـ.

٨١. الصدوق: محمد بن علي / من لا يحضره الفقيه / تحقيق السيد حسن الخراسان / دار الأضواء - بيروت، ط السادسة، ١٤٠٥هـ.

٨٢. الصدوق: محمد بن علي بن بابويه / إكمال الدين وإتمام النعمة / تحقيق علي أكبر الغفاري / نشر مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين - قم، ١٤٠٥هـ.

٨٣. الصدوق: محمّد بن علي بن بابويه / المقنع / مؤسسة الإمام الهادي / مطبعة اعتماد - قم، ١٤١٥هـ.

٨٤. الصفار: محمد بن الحسن بن فروخ / بصائر الدرجات الكبرى / تقديم ميرزا محسن كوچه باغي / منشورات الأعلمي - طهران.

٨٥. الطباطبائي: محمد حسين / الشيعة في الإسلام / المترجم دكتور جعفر دلشاد / انتشار الإمام الحسين - قم المقدسة، ط الثانية، ١٤٢٥هـ.

٨٦. الطبرسي: أبو منصور أحمد بن علي / الاحتجاج تحقيق إبراهيم البهادري ومحمد هادي

بإشراف السبحاني / نشر منظمة الأوقاف والشؤون الدينية - قم، م أسوة، ط٣، ١٤٢٢هـ.

٨٧. الطبرسي: الفضل بن الحسن / مجمع البيان في تفسير القرآن / مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٥هـ.

٨٨. الطبرسي: محمد جواد / حياة الإمام العسكري / نشر مكتب الأعلام الإسلامي - قم، ط الثانية، ١٤١٦ هـ.ق.

٨٩. الطهراني: محمد محسن بن علي آقا بزرك / تاريخ حصر الاجتهاد / تحقيق محمد علي الأنصاري - قم، م خيام، ١٤٠١هـ.

٩٠. الطهراني: محمد محسن بن علي الشهير (آقا بزرك) / الذريعة إلى تصانيف الشيعة دار الأضواء - بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٩١. الطوسي: محمد بن الحسن / الخلاف / تحقيق جامعة المدرسين / نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين - قم، ط الأولى.

٩٢. الطوسي: محمد بن الحسن / الغيبة / مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، ١٤١١هـ.

٩٣. الطوسي: محمد بن الحسن / الفهرست / تحقيق وتقديم/ السيد محمد صادق بحر العلوم / مؤسسة المكتبة الزواد، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٩٤. الطوسي: محمد بن الحسن / المبسوط في فقه الإمامية / تحقيق محمد تقي الكشفي / المكتبة الرضوية، م حيدرية - طهران، ٣٣٨٧ ش.

٩٥. الطوسي: محمد بن الحسن / النهاية في مجرد الفقه والفتاوى / تقديم الشيخ آقا بزرگ الطهراني / منشورات قدس - قم، ط دار الأندلس - بيروت، بلا تاريخ.

٩٦. الطوسي: محمد بن الحسن / تهذيب الأحكام / تحقيق السيد حسن الخرسان / دار التعارف - بيروت، ١٤٠١هـ.

٩٧. الطوسي: محمد بن الحسن / عدة الأصول / تحقيق محمد مهدي نجف / مؤسسة آل البيت - قم، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

٩٨. العاملي: جمال الدين الحسن بن زين الدين / معالم الدنيا وملاذ المجتهدين / تحقيق مهدي محقق / مؤسسة مطالعات إسلامي - طهران، ١٤٠٢هـ.

٩٩. العاملي: محمد بن الحسن / وسائل الشيعة / مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، ط الأولى، م، مهر ١٤٠٩هـ.

١٠٠. العسكري: مرتضى / معالم المدرستين / المجمع العلمي الإسلامي / م، كليني، ط الثالثة، ١٤١٣ هـ.ق.

١٠١. العطاردي: عزيز الله / مسند الإمام الحسن المجتبى / نشر عطارد - قم، ط الأولى، ١٣٧٣ش.

١٠٢. العلامة الحلي: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف / تذكرة الفقهاء / المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية - قم.

١٠٣. العلامة الحلي: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف / خلاصة الأقوال في معرفة أصول الرجال / نشر المطبعة الحيدرية - النجف، ط الثانية، ١٣٨١هـ.

١٠٤. العلامة الحلي: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف / مختلف الشيعة في أحكام الشريعة / تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين - قم.

١٠٥. العلامة الحلي: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف / منتهى المطلب في تحقيق المذهب / شر حاج أحمد تبريزي - قم، ١٣٣٣ ش.

١٠٦. العلامة الحلي: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف / نهج الحق وكشف الصدق / دار الكتاب اللبناني - بيروت، بلا.

١٠٧. العلّامة الحلي: الحسن بن يوسف / إيضاح الاشتباه / نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين / المطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى - قم، ١٤١١هـ.

١٠٨. العلامة الحلي: الحسن بن يوسف بن المطهر / كتاب الألفين الفارق بين الصدق والمين / تحقيق ونشر المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات - قم، ط الأولى ١٤٢٣ هـ.ق.

١٠٩. علماء: لجنة تأليف مؤسسة البلاغ / نشر مؤسسة الهدى الدولية / إيران، ط الثانية.

١١٠. العميدي: ثامر هاشم / غيبة الإمام المهدي عند الإمام الصادق / نشر مركز الرسالة - قم، م ستارة، ط١، ١٤٠٢٤ق.

١١١. العميدي: سيد ثامر/ الصدوق الأول، علي بن بابويه القمي / مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام / تصدر عن دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام / العددان ٢، ٣، ط ٢، قم، السنة الأولى،١٩٩٦م.

١١٢. الغروي: ميرزا علي / التنقيح في شرح العروة الوثقى / تقريرات أبحاث السيد الخوئي / مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي - قم، ط الثانية، ١٤٣٦هـ.

١١٣. فرحان: عدنان فرحان / حركة الاجتهاد عند الشيعة / دار الهادي، مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد - بيروت، ط الأولى، ١٤٢٥ هـ.ق.

١١٤. الفضلي: عبد الهادي / أصول البحث / نشر ناظرين، م شريعت - قم، ط الأولى، ١٤٢٦هـ.ق.

١١٥. الفضلي: عبد الهادي / تاريخ التشريع الإسلامي / دار الكتاب الإسلامي - قم، م، سرور ١٤٢٤ هـ.ق.

١١٦. الفضلي: عبد الهادي / دليل النجف الأشرف / مكتبة التربية - النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ.

١١٧. الفيض الكاشاني: محسن بن مرتضى / نوادر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين / تحقيق:

مهدي الأنصاري القمي / مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي - طهران، م آرين، ١٩٩٣م.
١١٨. القهبائي: المولى عناية الله / مجمع الرجال / تحقيق ضياء الدين العلامة الأصفهاني / مؤسسة إسماعيليان - قم ١٣٦٤هـ.
١١٩. كاشف الغطاء: محمد حسين / أصل الشيعة وأصولها / تحقيق علاء آل جعفر / مؤسسة الإمام علي - قم، م، ستارة، ط الأولى، ١٤١٥هـ.
١٢٠. الكشي: أبو عمر محمد بن عمر بن محمد / اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / تلخيص وتهذيب الشيخ الطوسي تعليق / حسن مصطفوي، دانشگاه مشهد، ١٣٤٨هـ.
١٢١. الكليني: محمد بن يعقوب / أصول الكافي / نشر المكتبة الإسلامية - طهران، تعليق على أكبر الغفاري، ١٣٨٨هـ.
١٢٢. الكليني: محمّد بن يعقوب / فروع الكافي / دار الأضواء - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
١٢٣. لجنة العلوم: مصادر السنة الشريفة / منظمة الحوزات العلمية خارج البلدان - قم، م، معراج، ط الثانية ١٤٢٥ هـ.ق.
١٢٤. لجنة تأليف: قواعد أصول الفقه على مذهب أهل البيت / لجنة تأليف القواعد الفقهية والأصولية التابعة لمجمع فقه أهل البيت / نشر مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت / قم، م ليلى، ١٤٢٣هـ.
١٢٥. لجنة علماء: وحدة تأليف الكتب الدراسية / القواعد الفقهية / نشر المنظمة العالمية للحوزات والمدارس العلمية - قم، ط الثانية، ١٤٢٥هـ.
١٢٦. الليثي: دكتورة سميرة مختار / جهاد الشيعة في العصر العباسي / هيئة أنصار أهل البيت عليهم السلام.
١٢٧. المجلسي: محمد باقر بن المولى محمد تقي / بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأبرار / مؤسسة الوفاء - بيروت، ط الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٢٨. مجموعة من الأعلام: مجموعة وفيات الأئمة / انتشار الشريف الرضي - قم.
١٢٩. المحقق الحلي: نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن / المعتبر في شرح المختصر / مؤسسة سيد الشهداء - قم، م مدرسة أمير المؤمنين، ١٣٦٤ ش.
١٣٠. المحقق الحلي: نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن / معارج الأصول / إعداد محمد حسين الرضوي.
١٣١. المدرسي: حسن / مقدمة أي برفقه شيعة / مترجم محمد آصف فكرت / بنياد بزوهشهاي إسلام - استان قدس رضوي، ١٤١٠هـ.
١٣٢. المدوّح: مرتضى جواد (كاتب الرسالة) / تنبيه الغافل وتحفيز العامل / نشر وطبع هيئة شباب

الشريعة بغداد / ط الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٣٣. المرتضى: علم الهدى علي بن الحسين / الانتصار / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم، ١٤١٥هـ.

١٣٤. المظفر: محمد رضا المظفر / أصول الدين / مؤسسة إسماعيليان، ط قم، إسماعيليان، ط السادسة ١٣٧٣ ش.

١٣٥. المفيد: محمد بن محمد / المقنعة / تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

١٣٦. المفيد: محمّد بن محمّد البغدادي / تصحيح اعتقادات الإمامية / نشر دار المفيد - بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤هـ.

١٣٧. المؤمن: محمد مهدي / خاتم الأوصياء / نشر مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، م عترت، ١٤٢٤هـ.

١٣٨. النجاشي: أبو العباس أحمد بن علي الأسدي الكوفي / الرجال (رجال النجاشي) / تحقيق الشيخ محمد جواد النائيني / دار الأضواء - بيروت، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٣٩. نخبة من الرواة: الأصول الستة عشر / دار الشبستري للمطبوعات - قم، م مهدية، ط الثانية، ١٤٠٥هـ.

١٤٠. النصيراوي: إبراهيم / أعلام الفقهاء والمحدثين / دار الهدى - قم، ط أولى، م ظهور، ١٤٢٦هـ.

١٤١. النوري: الميرزا محمّد / خاتمة المستدرك / مؤسسة آل البيت عليهم السلام - قم، مطبعة ستارة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٤٢. النيسابوري: مسلم / صحيح مسلم / دار الأفاق - بيروت.

١٤٣. الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر / مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٢هـ.

جدول المحتويات

الفصل الثاني: المرحلة التأسيسية للفقه الإمامي

الفصل الثالث: مرحلة الانطلاق

الفصل الرابع: مرحلة الاستقلال والرشد للفقه الإمامي